

جلعاد

«رواية»

مارلين روبنسون

الرواية الحائزة
جائزة بوليتزر

ترجمة : سامر أبو هواش

مارلين روبنسون

الرواية الحائزة على جائزة «بوليتزر»

جلعاد

ترجمة: سامر أبو هواش

الطبعة الأولى 1432هـ 2011م

جلعاد

مارلين روبنسون

PS3568.O3125 G5512 2011
Robinson, Marilynne
جلعاد / مارلين روبنسون ؛ ترجمة سامر أبو هواش ؛ أبوظبي : هيئة أبوظبي للثقافة والتراث ، كلمة، 2011.
ص 323 : 14×21 سم.
تدمك: 978-9948-01-602-1
ترجمة كتاب : Gilead
1-صراع الأجيال - قصة.
2-القصص الأمريكية-المترجمات إلى العربية.
أ-أبو هواش، سامر .

هذا الكتاب يتضمن ترجمة الأصل الإنجليزي:
Marilynne Robinson
Gilead

www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+

www.adach.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 059 6336 2 971+

قلتُ لك ليلة البارحة إنني سأرحل يوماً ما، وسألتَني إلى أين، وقلتُ لك إلى بارئي، وسألتَني لماذا، وأجبتك لأني بتّ طاعناً في السنّ. فقلتَ: لا أحسبك مسنّاً. ووضعتَ يدك على يدي وكرّرتَ ذلك، وكأنك بهذا التأكيد قد حسمتَ النقاش. قلتُ لك إن حياتك ستختلف كثيراً عن حياتي، وعن الحياة التي عشتها معي، وإن هذا سيكون رائعاً، فثمة سبل كثيرة لعيش حياة جميلة. فأجبتني: أخبرَتني والدتي بذلك. ثم حذّرتني: لا تضحك! لأنك حسبتني أسخر منك. مددّتَ يدك ولامستَ ثغري بأناملك وحدجتني بتلك النظرة التي لم أرَ مثلها يوماً على أيّ وجه آخر، سوى وجه والدتك؛ نظرة مفعمة بالكبرياء الجامح وبالشغف والقوة؛ أفاجأ دوماً من أن حاجبيّ لم يحترقا بعض الشيء جراء وقوعها على وجهي. وكم سأشتاق إليها.

يبدو من السخف افتراض أن الموتى يشتاقون إلى أيّ شيء. إذا كنتَ

قد صرتَ رجلاً بالغاً عندما تقرأ هذه الرسالة - وقصدي أن تقرأها في مثل ذلك الحين - فسيكون قد مضى زمن طويل على رحيلي. وسأكون قد عرفت معظم ما تمكن معرفته عن أن يكون المرء ميتاً، لكنني على الأرجح سأحتفظ بمعرفتي هذه لنفسي. يبدو أن الأمور تحدث على هذا النحو.

لا أعرف كم مرة سألني الناس عن الموت، وفي بعض الأحيان عندما لا تفصل بعضهم عن اكتشاف الإجابة بأنفسهم سوى ساعة أو اثنتين. وحتى في ريعان شبابي كان يقصدني أناسٌ طاعنون في السن - كحالي اليوم - ويطرحون عليّ هذا السؤال، شادّين على يديّ وشاخصين نحوي بعيونهم الحليبية المسنّة، وكأنهم متيقّنون من أنني أعرف الإجابة ويناشدونني البوح بها. وكان جوابي المعتاد هو أن الموت أشبه بالعودة إلى البيت. فأقول لهم: لا بيت لنا في هذا العالم. ثم أغادر الكنيسة وأسلك الدرب نفسها إلى هذا البيت القديم، حيث أعدّ لنفسي إبريقاً من القهوة وشطيرة من البيض المقلي، وأجلس - نصف الوقت في العتمة ونصفه في النور - لكي أستمع إلى المذياع؛ هذا بعد أن اقتنيت واحداً. أتذكر هذا البيت؟ لابدّ من أنك تذكّره ولو قليلاً. لقد ترعرعتُ في دور القساوسة[1]، وعشتُ في هذا البيت معظم سني حياتي، ونزلت ضيفاً

(1) Parsonage: بيت الكاهن أو القس، البيت الذي توفره الكنيسة المسيحية للقس الذي يمثلها في كنيسة معينة في منطقة معينة.

على عدد منها، لأن أصدقاء والدي ومعظم أقربائنا أقاموا أيضاً في دور القساوسة. ولطالما ظننت – عندما كنتُ أفكّر في الأمر في تلك الأيام، وهو ما لم يكن يحدث كثيراً – أن هذا البيت هو أسوأها على الإطلاق، وأكثرها هشاشة ووحشة. ولكن هذا انتهى الآن. إنه بيت قديم جيد، لكنني عشتُ فيه وحدي تماماً حينذاك فعانيت الكثير من الاغتراب، ولم أشعر أنه بيتي في هذا العالم. أما الآن فهو كذلك.

والآن يقولون إن قلبي قد أصابه الوهن. وقد استعمل الطبيب التعبير اللاتيني angina pectoris[1]، ذات الوقع اللاهوتيّ الذي يشبه تعبير misericordia[2]. حسناً، هذا ليس بمستغرب في مثل سني. وقد توفّي والدي هرماً، أما شقيقتاه فلم يُكتب لهما العمر الطويل. لذا لا يسعني إلا الشعور بالامتنان لذلك، وإن كان يؤسفني أنني لا أترك لك ولوالدتك سوى بضعة كتب لا يرغب أحد في اقتنائها. ذلك أنني لم أجن أيّ قدر يُذكر من المال، ولم أحرص بما فيه الكفاية على ما وصل إلى يديّ منه، لأنه لم يدر بخلدي يوماً أنني سأخلّف ورائي زوجة وابناً. حبّذا لو عرفت ذلك، لكنتُ أباً أفضل ولادّخرتُ لكما بعضاً مما يقيم أودكما بعدي.

هذا ما أرغب في أن تعرفه بصورة أساسية؛ مبلغ الأسف الذي يستبدّ بي على كل الأوقات الشاقة التي أعرف أنك ووالدتك مررتما بها لا محالة، دون أن تجدا أيّ عون حقيقي مني، سوى صلواتي. وأنا أصلي

(1) الذبحة الصدرية.

(2) الرحمة.

طوال الوقت. وقد فعلت هذا في حياتي، ولا بدّ من أنني أفعله الآن أيضاً، هذا إذا كانت الأمور تجري على النحو ذاته في الحياة الأخرى.

أسمعك تتكلم إلى والدتك. تسألها فتجيبك. لكنها ليست الكلمات بعينها ما يطرق مسمعي، بل وقع الأصوات فحسب. لا تحبّ الذهاب إلى النوم، وعليها في كلّ ليلة أن تعاود إقناعك بذلك. لا أسمعها ترتّل إلا ليلاً – في الغرفة المجاورة – وهي تداهنك لكي تنام. لكنني لا أتبيّن ما ترتّله. فصوتها يصلني همساً ويقع في قلبي موقعاً رائعاً. لكنها تضحك حين أخبرها بذلك.

ما عدت أميّز الأمور الرائعة حقاً. مررت بشابين في الشارع قبل أيام. أعرفهما وأعرف أنهما يعملان في الكاراج. وليسا من مرتادي الكنيسة، لكنهما شابان لطيفان يحبّان المزاح طوال الوقت، وها هما يدخنان في الشمس مستندين إلى جدار الكاراج. وهما دائماً ملطّخان بشحم السيارات وتنبعث منهما رائحة النفط، فلا أفهم كيف لا تشتعل فيهما النيران جراء ذلك. كانا يتبادلان التعليقات الطريفة المعتادة، ويضحكان على طريقتهما الساخرة المميّزة. وشعرت بروعة ذلك. كم مدهشة مشاهدة الناس وهم يضحكون، وكيف يستولي الضحك على كيانهم! أحياناً يكابدون فعلاً لكبت أنفسهم. وغالباً ما أرى ذلك في الكنيسة. فأتساءل ما هو هذا الشيء وما منبعه، وأتساءل ما الذي يخرجه الضحك من جسد المرء إلى درجة أنه يضطر إلى استنفاده حتى النهاية، مثل البكاء نوعاً ما، عدا عن أن الضحك ينقضي بسهولة أكبر بما لا يقاس.

بالطبع، حين رأياني أدنو منهما، توقّفا عن الضحك. لكنني أدركتُ أنهما ظلا يضحكان في سرّهما، مفكّرين ما الذي يمكن أن يكون قد سمعه الواعظ العجوز (الهرم) من كلامهما.

وددتُ أن أقول لهما إنني – كجميع الناس – أحبّ المزاح. وقد مررت في حياتي بمناسبات عدة رغبت فيها في قول ذلك. لكنه ليس بأمر يرغب الآخرون في سماعه. فهم يريدونني أن أنأى بنفسي عن مثل هذه الأمور. وددتُ أن أقول لهما إنني رجل يحتضر، ولن أحظى بالكثير من المناسبات المضحكة، ليس في عالمنا هذا على الأقلّ. لكنني أفترض أنني لو قلت ذلك لما كانت النتيجة سوى أن يتخذا موقف الجدية والرصانة. وقدر ما أستطيع أبقي حقيقة حالتي الصحية سرّاً عن الآخرين. ولكن بالنسبة إلى رجل يحتضر أشعر أنني في أفضل حال. وهذه من نعم الله عليّ. بالطبع والدتك تعرف بشأن الأمر. وقد قالت إنني إذا كنت أشعر بصحة جيدة فربما كان الطبيب مخطئاً. لكن في مثل سنّي هناك حدود لدرجة خطأه.

من بين أغرب ما في حياة القساوسة أن الناس يبدّلون الموضوع حين يرونك تدنو منهم. ثم تجدهم هم أنفسهم وقد جاؤوا إلى مكتبك لكي يستشيروك حول أعجب الأمور. هناك الكثير مما يكمن تحت سطح الحياة، والجميع يعرف ذلك. فهي مليئة بالحقد والخوف والشعور بالذنب، والكثير من الوحشة التي تجدها أيضاً حيث لا تتوقّع ذلك.

كان جدي لوالدتي قسيساً، وكذلك جدي لوالدي، ووالده من قبله، وقبل ذلك لا أحد يعرف، لكنني لن أتردّد في تخمين الجواب.

كانت تلك الحياة طبيعة ثانية لهم مثلما هي لي. وقد كانوا أشخاصاً طيبين، لكنني إذا قصّرت في تعلّم أمر منهم فهو التحكّم بأعصابي. وهذه حكمة كان يجدر بي اكتسابها من زمان. وحتى الآن، عندما يجعلني اهتياج نبض قلبي أفكّر في النهايات، أجدني قد فقدت أعصابي، حين يعلق دُرج على سبيل المثال أو حين أضيّع نظارتي. أخبرك بهذا علّك تعيه وتتجنّبه في نفسك.

ذلك أن نسبة قليلة زائدة من الغضب، بصورة متواترة وفي التوقيت الخاطئ، من شأنها التسبّب بما لا تتخيّله من ضرر. والأمر الأهم هو أن تصون لسانك. «هوذا نار قليلة أيّ وقود تحرق. فاللسان نار»[1]، وهذه حقيقة. حين بلغ والدي سنّ الكهولة أوصاني الوصية نفسها في رسالة بعثها لي، لكنني ألقيت برسالته في الموقد. وفوجئت بذلك كثيراً في حينه أكثر مما يفاجئني تذكّره الآن.

سوف أحاول أن أكون صريحاً الآن. وما أقوله إنما أقوله بكلّ احترام. فقد كان والدي يعتبر نفسه رجل مبادئ. وكان يتصرف انطلاقاً من إخلاصه للحقيقة مثلما يراها. لكن كان ثمة في الطريقة التي يتعامل بها مع الأمر ما يجعله أحياناً مخيّباً للآمال، وليس بالنسبة إليّ وحدي. أقول هذا على الرغم من كل الاهتمام الذي أولاه لتربيتي، والذي أشعر بسببه أنني مدين له كثيراً، وإن كان هو نفسه قد لا يوافقني الرأي. طيّب الله ثراه، أعرف يقيناً أنني خيّبت أمله. وكم يدهشني هذا، أخذاً في الاعتبار نقاء سريرة واحدنا تجاه الآخر.

(1) الكتاب المقدّس، رسالة يعقوب 3: 5–6.

حسناً، فلتنظر قدر ما تشاء، ولن تبصر، ولتسمع قدر ما ترغب ولن تعي[1]، مثلما جاء في كتاب الربّ. لا أزعم أنني أفهم مغزى هذا الكلام، على الرغم من كثرة ما سمعته وما وعظت به. لكنه يعبّر ببساطة عن حقيقة بالغة الغموض. يمكنك معرفة شيء حتى الصميم، ومع ذلك تبقى جاهلاً به بكلّ معنى الكلمة. قد يعرف إنسان والده أو ولده، دون أن يربطهما رابط على الرغم من ذلك، سوى روابط الولاء والحب وسوء التفاهم المتبادل.

ما أقصده من قولي هذا هو أن الناس الذين يشعرون بأن فيك أيّ قدر من الأسى سيحسبونك غاضباً وسيرون الغضب في أفعالك، حتى إن كنت تعيش بهدوء الحياة التي اخترتها لنفسك. يجعلونك تشكّك بنفسك، الأمر الذي يمكن – وفقاً للظروف – أن يشكّل تشويشاً كبيراً وهدراً للوقت. حبذا لو فهمتُ هذا في وقت أبكر مما فعلت. فمجرّد التفكير به يثير شيئاً من الاضطراب في نفسي. والاضطراب شكل من أشكال الغضب. أدرك ذلك.

إحدى الميزات الكبرى في أن تكون رجل دين هي أن ذلك يساعدك على التركيز. إذ يمنحك إدراكاً جوهرياً بما هو مطلوب منك فعله وبما يمكنك تجاهله على السّواء. وإذا كان ثمة حكمة يسعني تقديمها، فما أقوله الآن هو جزء مهمٌّ منها.

قبل أقل من سبع سنوات حللتَ على بيتنا بركة ونعمة، وقد كانت

(1) الكتاب المقدّس، إنجيل السيد المسيح حسب البشير مرقس، 4: 12 (لكي يبصروا مبصرين ولا ينظروا، ويسمعوا سامعين ولا يفهموا...).

سنوات قاحلة أيضاً، فقد جاءت في وقت متأخر جداً من حياتي، حين لم يعد بإمكاني القيام بأيّ تغييرات لكي أعيلك أنت ووالدتك. بيد أنني أفكّر في الأمر وأصلي. وهذا الأمر يشغل تفكيري كثيراً. أريدك أن تعرف ذلك.

نعيش ربيعاً رائعاً، وهذا اليوم هو واحد من أيامه الرائعة. كدتَ تتأخر عن المدرسة. أوقفناك على كرسيّ وتناولتَ «التوست» بالمربّى في حين لمّعت والدتك زوج حذائك ومشّطتُ أنا شعرك. كان لديك واجب حساب لم تنجزه ليلة البارحة، وقد استغرقك الأمر عمراً لكي تنجزه صبيحة اليوم، محاولاً عدم عدم كتابة الأرقام بالمقلوب. ولابدّ من أنك ورثت هذه الجدّية عن والدتك، ومن فرط رصانتك يلقّبك الكبار في السّن من الرجال بالشمّاس[1]، لكنك لم ترث هذا الجانب كلياً مني. فأنا لم أرَ ما يشبهه قبل أن ألتقيها. آه، إلا إذا استثنينا جدي. بدا لي أن نصف جدّيتها حزن ونصفها الآخر غضب، وكنت أتساءل ما الذي حصل معها في حياتها وبثّ هذا التعبير في عينيها. ثم حين بلغتَ الثالثة تقريباً، جئتُ إلى الحضانة ذات صباح فوجدتك مقتعداً الأرض في الشمس، بمنامتك، محاولاً استنباط وسيلة لإصلاح قلم تلوين مكسور. ونظرت إليّ وكانت تلك نظرتها هي. وما أكثر ما استحضرت تلك اللحظة. وللحق، كنتُ أشعر أحياناً أنك إنما تنظر مستعيداً تاريخ حياتي، متأملاً

(1) الشمّاس هي من يعمل في الكنيسة في مرتبة أقل من مرتبة القسيس أو الأسقف.

المتاعب التي أدعو الله ألا تتجشمها، طالباً مني أن أبرّر نفسي بلطف. تقول لي والدتك: «أنت تشبه أولئك الطاعنون في السّن في الكتاب المقدّس»، وكان ليصحّ ذلك لو تمكّنت من العيش مئة وعشرين عاماً، وربما من اقتناء بعض الماشية والثيران والخدم والخادمات. أورثني والدي حرفة صودف أنها أصبحت وظيفتي أيضاً. لكن الحقيقة أنها كانت طبيعة ثانية لي، وقد نشأت معها. والأرجح أنك لن تكون كذلك.

واقفاً وراء النافذة رأيت فقاعات الماء ترتفع في الهواء؛ فقاعات تنتفخ وتكتسب تلك الزرقة التي تلوح عليها قبيل انفجارها. فنظرت إلى الباحة في الأسفل ورأيتكما هناك، أنت ووالدتك، تنفخان في وجه الهرة حلقات متدافعة من الفقاعات إلى درجة أنّ الهياج ألمّ بالمسكينة من وفرة الفرص. كانت «سوبي» المعروفة بكسلها تقفز فعلياً في الهواء. وقد شقّ بعض الفقاعات طريقه بين الأغصان، وارتفع فوق الأشجار، وكان اهتمامكما منصبّاً على الهرّة، أملاً في تبيّن الآثار السماوية لمساعيكما الدنيوية هذه. كانت الفقاعات رائعة. وكانت والدتك ترتدي فستانها الأزرق، وأنت ترتدي قميصك الأحمر، وكنتما جاثيين أرضاً و«سوبي» بينكما وتلك الفقاعات الشفافة ترتفع عالياً فتثير في نفسيكما الكثير من الضحك. آه، يا لروعة الحياة، يا لجمال الكون.

أخبرتك والدتك أن ما أنشغل بكتابته لك هو تاريخ عائلتك، وقد بدوتَ مبتهجاً بالفكرة. حسناً إذن. ما الذي ينبغي أن أدوّنه لك. أنا، جون

آيمز، ولدت في العام 1880، في ولاية كنساس، لجون آيمزومارتا تيرنر آيميس. وعند كتابتي هذا أكون قد عشت ستة وسبعين عاماً، أمضيت أربعة وسبعين منها هنا في جلعاد، أيوا، باستثناء سني دراستي في الكلية وفي معهد اللاهوت.
وماذا يجب أن أخبرك أيضاً؟

اصطحبني والدي، حين كنت في الثانية عشرة، في رحلة إلى قبر جدي. وكان قد مضى على عيشنا في جلعاد[1] قرابة العشر سنوات، حيث عمل والدي في خدمة الكنيسة هنا. أما والده الذي ولد في ولاية ماين[2] وانتقل إلى كنساس في الثلاثينات من القرن التاسع عشر، فقد أقام معنا بضع سنوات بعد تقاعده، ثم فرّ من المنزل لكي يصبح واعظاً جوّالاً،

(1) جلعاد: مدينة جبلية تقع شرقي الأردن، وقد اشتهرت تاريخياً بنباتاتها الطبية وبأنها كانت «ملاذاً للهاربين» بحسب التوراة، وهذا المعنى الأخير هو الإسقاط الذي بسببه اختارت الكاتبة روبنسون من «جلعاد» عنواناً لروايتها، إذ كما سنرى فإن جلعاد – البلدة المتخيلة في الرواية – كانت ملاذاً للسود الهاربين من العبودية في ولايات الجنوب الأمريكي وذلك بعد صدور قانون حظر العبودية والذي يعدّ من أسباب نشوب الحرب الأهلية في أمريكا في الستينات من القرن التاسع عشر. وبحسب الكاتبة فإن النموذج الأصلي لبلدة جلعاد الذي استوحته لروايتها، هو مدينة Tabor الواقعة في ولاية أيوا، والتي اشتهرت تاريخياً بأنها من البلدات التي احتضنت السود الهاربين من ولايات الجنوب ومدنه التي ما زالت تقرّ العبودية وتدافع عنها. وكذلك فقد استوحت الكاتبة شخصية جد الراوي التي سيتكرر ذكرها كثيراً من شخصية القسيس جون تود الذي عرف بمدافعته عن السود وبإدارته لأنفاق التهريب السرية ومخازن الأسلحة والذخائر خلال الحرب الأهلية.

(2) تقع ولاية Maine في شمال شرق الولايات المتحدة على حدود كندا في الجهة الشمالية الغربية.

أو هذا ما حسبناه في حينه. وقد توفي في «كنساس» ودفن هناك قرب بلدة هجرها معظم من تبقّى من أهلها بسبب الجفاف وانتقلوا إلى بلدات أقرب من خطّ السكة الحديدية. وبالتأكيد لم يكن هناك سوى بلدة واحدة للبدء بالبحث فيها عن قبر جدي لأنها كانت «كنساس»[1]، وأولئك الذين أنشأوها كانوا من «الفري سويلرز»[2] الذين لم تأخذ مخطّطاتهم في التوسّع والبناء المستقبل البعيد في الحسبان[3]. لا أحبّذ كثيراً استعمال كلمة «ملعون»[4]، لكن لا تخطر ببالي – كلما تذكّرت ذلك المكان – سوى هذه الكلمة. وقد تطلب الأمر والدي شهوراً حتى يجد أين استقرّ المقام بوالده، باعثاً بالكثير من رسائل الاستعلام إلى الكنائس

(1) كنساس Kansas، الولاية الأمريكية الشهيرة الواقعة في الغرب الأوسط من الولايات المتحدة الأمريكية. أهميتها هنا في كونها كانت في صلب الصراع بين الداعين إلى تحرير العبيد والمطالبين بالحفاظ على قوانين العبودية القديمة. تأسست هذه الولاية في الثلاثينات من القرن التاسع عشر، لكن وتيرة الاستيطان اتسعت فيها ابتداء من الخمسينات من ذلك القرن، إذ تدفق إليها مؤيدو إلغاء العبودية من ولاية ميزوري خصوصاً لجعلها منطقة حرة للعبيد المتحررين، في حين سعى مؤيدو العبودية إلى كسبها كولاية تناصر العبودية. وهكذا كانت تلك السنوات مليئة بالصراعات الدموية حتى عرفت كنساس باسم «كنساس النازفة».

(2) Free Soilers: اسم مركّب من تعبير Free men on free soil «إنسان حرّ على أرض حرة»، حزب أمريكي نشأ في 1848 بهدف مناهضة توسيع العبودية إلى ولايات أخرى وحظرها حيث كانت تمارس في ولايات الجنوب، وقد اندمج هذا الحزب لاحقاً بالحزب الجمهوري الناشئ حديثاً.

(3) بسبب سرعة بناء البلدات واستيطانها لتكون خالية من العبودية عل نحو ما جاء شرحه في الهامشين السابقين.

(4) Godforsaken: أي المكان المنسي أو البائس أو المهجور أو المنبوذ، لكن إشارة القسيس هنا هي إلى المعنى الديني المتضمن في الكلمة، أي المكان الذي هجره الرب أو أحلّ عليه لعنته.

والصحف وما شابه. وبعد جهود مضنية ردّ عليه أحدهم وأرسل له طرداً صغيراً فيه ساعة جدّي ونسخة قديمة من الكتاب المقدّس خاصته وبعض الرسائل، التي علمت لاحقاً أنها كانت جزءاً يسيراً من رسائل والدي الاستعلامية، التي بلا ريب أوصلها الناس للشيخ ظناً منهم أنهم بذلك يقنعونه بالعودة إلى الديار.

وكم كان عميقاً حزن والدي لأن آخر ما سمعه من والده كان كلمات مفعمة بالغضب، ولم تجر أي مصالحة بينهما في حياته. وكان يوقر أباه حقاً، إذا تكلمنا بصورة عامة، فكان صعباً عليه تقبّل ما آلت إليه الأمور بينهما.

كان ذلك في 1892، في زمن كان الارتحال فيه ما زال شاقاً إلى حدّ كبير. وقد قطعنا بالقطار ما أمكن من مسافة، ثم استأجر والدي عربة يجرها زوج من الجياد. وكان ذلك يفوق حاجتنا لكنه كل ما أمكننا العثور عليه. سلكنا بعض الاتجاهات الخاطئة فأضعنا السبيل، وتجشمنا الكثير من العناء لنؤمن مياه الشرب للجوادين، حتى انتهى بنا الأمر إلى تركهما في إحدى المزارع ومتابعة الطريق راجلين. وكان الدرب رهيباً محتشداً بالغبار حيث هو مطروق ومحفّر حيث ليس كذلك. وكان والدي يحمل بعض العدة في كيس من الخيش لكي يجري التحسينات والإصلاحات اللازمة على شاهدة قبر جدّي حين نعثر عليه، أما أنا فحملت ما لدينا من طعام؛ بعض الخبز اليابس واللحم المقدّد والقليل من التفاح الأصفر الذي كنا نقطفه من هنا وهناك خلال مسيرنا. أما غياراتنا من القمصان والجواريب فأصبحت جميعها متسخة.

لم يكن لديه ما يكفي من المال للقيام بتلك الرحلة وقتذاك، لكنه كان مزمعاً على الأمر إلى حدّ أنه لم يستطع أن ينتظر الفراغ من الادّخار. قلت له إنني راغب في مرافقته فاحترم ذلك على الرغم من أن هذا يزيد الأمور صعوبة. فقد قرأت والدتي في الصحف أن الجفاف ازداد سوءاً في الغرب منا، وكانت مستاءة حين أخبرها أنه ينوي اصطحابي معه. فقال لها إن من شأن هذه التجربة أن تكون تعليمية لي، وكانت كذلك حقاً. وقد صمّم والدي على العثور على قبر والده مهما كلف الأمر. كانت المرة الأولى في حياتي التي أصل إلى لحظات أتساءل فيها عن المرة القادمة التي سأحظى فيها بجرعة من الماء، وأعدّه من حسن طالعي أنني لم أتساءل حول ذلك منذ ذلك الحين. كانت هناك لحظات شعرت فيها أننا سنموت تائهين. وذات مرة، حين كان والدي يجمع العصي لإشعال النار، واضعاً إياها بين ذراعي، قال إننا مثل ابراهيم وإسحاق في الطريق إلى جبل المريّا[1]. وهذا ما ظننته أنا أيضاً.

كان الأمر بالغ السوء إلى درجة أننا لم نكن قادرَين على شراء الطعام. توقفنا في مزرعة وطلبنا ذلك من سيدة فأنزلت من الخزانة صرة صغيرة وأرتنا بعض النقود المعدنية والورقية وقالت «قد يكون هذا كونفدرالي أيضاً لكثرة ما أبلاه من الخير معي»[2]. كان المتجر العمومي قد أقفل ولم

(1) الجبل الذي أمر النبي ابراهيم بالذهاب إليه للتضحية بولده إسحاق، بحسب التوراة.

(2) تقصد أن هذه النقود عديمة الجدوى بسبب المجاعة، و Confederate تعني الولايات الإحدى عشرة التي انفصلت عن الولايات المتحدة في أثناء الحرب الأهلية بين عامي 1860 و 1861وهذا يعني أن النقود التي تملكها الآن في أثناء المجاعة لا قيمة لها لانعدام الطعام، تماما مثل النقود التابعة للولايات الإحدى عشرة الانفصالية التي فقدت قيمتها كلياً =

تعد قادرة على التزود بالملح أو السكر أو الطحين. وقد قايضناها ببعض من اللحم المقدّد البائس الذي كان بحوزتنا – والذي لم أعد أطيق منظره منذ ذلك الوقت – مقابل بيضتين مسلوقتين وحبتي بطاطا مسلوقتين؛ كانت طيبة المذاق حتى دون ملح.

ثم سألها والدي عن والده وقالت له بكلّ تأكيد، لقد مرّ من هنا. لم تكن تعرف أنه توفي، لكنها كانت تعرف المكان الذي يحتمل أن يكون قد دُفن فيه، ودلتنا على ما تبقى من طريق قد تقودنا مباشرة إلى ذلك الموضع، والذي لا يبعد أكثر من ثلاثة أميال عن المزرعة. كانت الطريق مليئة بالعشب البري لكن يمكن تبيّن آثار عجلات العربات فيه. وقد نبتت الأجمات منخفضة فيها لأن التربة كانت ما زالت شديدة الجفاف. مررنا مرتين بتلك المقبرة ووجدنا الشاهدتين أو الثلاث شواهد فيها وقد وقعت أرضاً وكانت محتشدة بالأعشاب البرية. وفي المرة الثالثة لاحظ والدي عامود سياج، فمضينا نحوه، ورأينا حفنة من القبور في صف من سبعة أو ثمانية شواهد ربما، وبعدها نصف صف مغمور بذلك العشب البني الميت. وأتذكر أن عدم اكتماله أشعرني بالحزن. وفي الصف الثاني وجدنا شاهدة وضعها أحدهم عبر لصق قطعة من لحاء الشجر ودقّ المسامير فيها بطريقة تشكّل أحرف الموقّر آيميس. وبدا حرف الراء شبيهاً بالألف والسين بحرف الزاي، لكن لم يكن من شكّ بأنه قبر جدي.

كان قد حلّ المساء، فعدنا إلى مزرعة تلك السيدة واغتسلنا في

= في ذلك الوقت.

حوضها وشربنا من بئرها ونمنا في شونة التبن. وقد قدّمت لنا عشاء من عصيدة الذرة. أحببت تلك المرأة كأنها والدتي الثانية. أحببتها إلى حدّ البكاء. استيقظنا قبيل الفجر لكي نحلب لها البقرة ونقطع الحطب ونجرّ لها بعض الماء من البئر، ولاقتنا عند الباب مع إفطار مكوّن من العصيدة المقلية المكسوة بمربى التوت الأسود وفوقها ملعقة من اللبن، وتناولنا الطعام واقفين هناك في الرواق في العتمة والبرد، وكان ذلك بغاية الروعة.

ثم عدنا إلى المقبرة، التي كانت مجرد رقعة من الأرض يحيطها سياج نصف متهدّم ولها بوابة هي كناية عن سلسلة حديدية ثقّلت بجرس بقرة. أصلحت ووالدي السياج قدر ما نستطيع. وقد نخز تربة القبر قليلاً بمديته ثم ارتأى أنه علينا العودة ثانية إلى المزرعة لكي نستعير مجرفتين ونؤدي العمل بصورة أفضل. قال «قد نعتني بأمر أولئك الآخرين ما دمنا هنا». هذه المرة حضرت السيدة غداء من الفاصولياء. لا أذكر اسمها، وهذا مؤسف حقاً. كان المقطع الأول من سبابتها مفقوداً وكانت تلثغ في الكلام. بدت عجوزاً لي وقتذاك، لكنني أظن أنها كانت مجرد امرأة ريفية تحاول الحفاظ على سلوكياتها وسلامة عقلها، تحاول البقاء على قيد الحياة، وقد بلغ بها الضجر كلّ مبلغ وهي تقيم وحيدة في تلك المزرعة. قال والدي إن لهجتها تدلّ على أن عائلتها ربما تكون من «ماين»، لكنه لم يسألها عن ذلك. وقد بكت حين ودّعناها، ومسحت دموعها بمئزرها. وسألها والدي ما إذا كان هناك رسالة ما تريدنا أن نحملها معنا فقالت لا. وسألها ما إذا كانت ترغب في مرافقتنا فشكرتنا

وهزّت رأسها قائلة «هناك البقرة، وسنكون على ما يرام حين يهطل المطر».

كانت تلك المقبرة المكان الأكثر وحشة الذي يمكنك تخيّله. إذا وصفتها بأنها تشبه الطبيعة البكر لحسبت خطأً أن فيها بعض الحيوية. لكنها كانت جافة تسفعها الشمس سفعاً، إلى درجة يصعب عليك معها أن تتخيّل أن العشب فيها كان أخضر في يوم من الأيام. أينما وطأت قدميك تجد الجنادب الصغيرة تطير بالعشرات مصدرة صوتها ذاك الشبيه بإشعال عود ثقاب. وضع والدي يديه في جيبيه وراح ينظر حوله هازّاً رأسه. ثم بدأ بتقطيع العشب البرّي بمعول جلبه معه، وأعدنا تقويم الشواهد الهاوية، وكانت معظم القبور محدّدة بالحجارة، دون أسماء أو أي إشارات تذكر. وطلب مني أن أنتبه لخطواتي، لأنه ثمة قبور صغيرة منتشرة هنا وهناك لم ألاحظ وجودها في البداية، أو لم أعرف ما هي. وبالتأكيد لم أكن راغباً في السير عليها، لكن قبل أن يقصّ الأعشاب لم يكن سهلاً معرفة أماكنها وعرفت أنني قد دست على بعضها وشعرت بالغثيان. فقط في طفولتي انتابني مثل هذا الإحساس بالذنب، وبالشفقة أيضاً. وما زلت أحلم بذلك. كان والدي يقول دائماً كلما مات أحدهم، إن الجسد أشبه بثياب قديمة ما عادت الروح تريدها. لكن ها قد كنا هناك، نكاد نقتل أنفسنا لكي نعثر على قبر، وفي الوقت محاذرين أين نطأ أقدامنا.

عملنا وقتاً طويلاً هناك لتنظيف المقبرة. كان الجوّ حاراً، وكان صوت الجنادب صاخباً، وكذلك الريح التي تعصف في العشب الجاف. ثم

نثرنا بذار البرغموت[1] وعباد الشمس والرديكية[2] ونبات الجلبان العطر. وكنا دائماً نوفر هذه البذار من حديقتنا. حين فرغنا من العمل اقتعد والدي الأرض بجانب قبر والده، ومكث طويلاً هناك، مقتلعاً بيديه بعض العشب الضاري الذي ما زال عالقاً في التربة، ملوحاً بقبعته عله يحصل على بعض الهواء. أظنُّه قد شعر بالأسف لأنه لم يعد ثمة ما يفعله. وأخيراً نهض ونفض التربة عن ثيابه، ووقفنا هناك بثيابنا المزرية المبللة الرطبة وأيدينا المتسخة، وأولى الجداجد تصدر صريراً والذباب بدأ يكون مزعجاً حقاً والطيور تزعق على نحو ما تفعل حين تبدأ بالاستعداد لمبيتها الليلي، وأحنى والدي رأسه وشرع بالصلاة، مذكراً الرب بوالده، وطالباً منه المغفرة لكليهما معاً. اشتقت كثيراً لجدي، وشعرت بالحاجة إلى الغفران أيضاً. لكن تلك كانت صلاة طويلة جداً.

كانت كلّ صلاة طويلة بالنسبة إليّ في ذلك الحين، وكنت قد بدأت أشعر بالإعياء الشديد. حاولت أن أبقي عينيّ مغمضتين لكنني اضطررت بعد فترة إلى فتحهما. وهذا شيء أذكره جيداً. في البداية ظننت أنني رأيت الشمس وهي تشرق، وكنت أعرف جهة الشرق، لأن الشمس كانت عالية في الأفق حين وصلنا إلى هناك في الصباح. ثم أدركت أن ما أراه إنما هو القمر المكتمل الذي بزغ ما أن بدأت الشمس بالغروب. كلّ منهما كان يقف في مكانه، وبينهما أروع نور يمكن أن يراه المرء. شعرت أنني أستطيع لمسه، كأن هناك تيارات محسوسة من النور تتذبذب

(1) فصيل من النبات المعمر الذي ينبت في أمريكا الشمالية.

(2) نوع من الأعشاب.

بينهما، أو كأن هناك كتلاً مشدودة من الضوء معلقة بينهما. أردت أن يرى والدي هذا، لكنني علمت أنني لو نبّهته فسأوقظه من صلاته، وأردت فعل ذلك بأفضل طريقة ممكنة، فحملت يده وقبلتها. ثم قلت له «انظر إلى القمر»، فرفع رأسه نحو السماء. وظللنا واقفين هناك حتى بزغ القمر كاملاً وغربت الشمس كلياً. بدوا يطوفان في الأفق لوقت طويل ربما أفترض لأنهما كانا مشعّين جداً إلى درجة أنه لا يسعك النظر إليهما بوضوح. وذلك القبر ووالدي وأنا، كنا بينهما بالضبط، الأمر الذي بدا مذهلاً لي وقتذاك، بما أنني لم أفكّر كثيراً بأمر طبيعة الأفق.

قال والدي «لم أكن لأظن أن هذا المكان يمكن أن يكون رائعاً. تسرني معرفة أنه كذلك».

كان مظهرنا – حين عدنا أخيراً إلى البيت– رهيباً، إلى درجة أن والدتي انفجرت بالبكاء لمجرد رؤيتنا. كنا قد هزلنا وترهلت ثيابنا واتسخت أشدّ الاتساخ. وعلى الرغم من أن الرحلة برمتها، ذهاباً وإياباً، لم تستغرق شهراً كاملاً، لكننا نمنا خلالها في حظائر وسقائف وحتى في العراء خلال ما يقارب فترة الأسبوع التي تهنا فيها. كانت مغامرة عظيمة، وكنت ووالدي نضحك من بعض الأمور الرهيبة التي حصلت معنا، ولاسيما تلك المرة التي أطلق فيها رجلاً طاعناً في السن النار علينا. كان والدي، كما قال وقتذاك، ينوي قطاف بعض الجزر من حديقة مررنا بها. وكان يحرص دائماً على ترك ثمن ما يمكن أن نجده

ويستحق السرقة – وهو كان قليلاً باستمرار – على شرفة البيت. كان مشهداً يستحق المشاهدة؛ والدي وهو يقفز فوق سياج متداع حاملاً شتلة من الجزر، في حين يركض وراءه رجل مصوباً بندقيته. فررنا بين الأجمات وحين تأكدنا من أن مطاردنا ما عدا في إثرنا، اقتعدنا الأرض ومسح والدي التراب عن الجزر بسكينه وقطّع الجزرة إلى قطع ثم وضع قبعته كطاولة بسط على رأسها القطع ثم تلا صلاة الشكر، الأمر الذي لم يخفق قطّ في فعله. قال «...على كل نعمك هذه» فانفجرنا كلانا بالضحك حتى انحدرت الدموع على وجهينا. أدرك الآن أن تأمين القوت لنا كان سعياً يائساً من قبله. وقد قاده إلى فعل أمر يشبه الجريمة. كانت تلك الجزرة كبيرة وقديمة وقوية حتى إنه عانى أشدّ المعاناة في تقطيعها. كان تناولها أشبه بقضم غصن من الشجر، ولم يكن ثمة مياه لنشربها معه أيضاً.

وقد أدركت لاحقاً فحسب أيّ مأزق كنت سأجد نفسي فيه لو أنه أصيب، أو حتى قتل، وبقيت وحدي هناك. ما زالت تراودني الكوابيس حول ذلك أحياناً. أظن أنه شعر بذلك النوع من الخزي الذي تشعر به حين تدرك أي خيار أحمق اتخذته بعد أن تكون قد قمت باتخاذه. لكنّ تصميمه كان بالغاً على العثور على ذلك القبر.

ذات مرة، ولكي يبيّن لي والدي أنني يجب أن أدرس جيداً في صغري لأن العلم يتأتى بسهولة عندئذ، أخبرني قصة رجل تعرف عليه في بداية حياته في كنساس، وكان كاهناً وصل بدوره حديثاً إلى هناك. قال: «كان هذا الرجل غير واثق البتة من معرفته بالعبرية. فكان يقطع

خمسة عشر ميلاً في أرض مفتوحة في عزّ الشتاء فقط لكي يستفسر عن مسألة دينية ما. وكنا نضطر إلى أن ندفئه قبل أن يتمكن من قول ما جاء من أجله». ضحك والدي وقال: «الأمر الغريب أن وجهة نظره تكون صحيحة غالباً». لكنني تذكرت هذه القصة حينذاك لأنني شعرت أننا كنا نفعل الأمر نفسه.

كفّ والدي عن التقاط الفضلات وعاد إلى قرع الأبواب، الأمر الذي كان متردداً في فعله، لأنه حين يكتشف الناس أنه كاهن كانوا يحاولون أحياناً إعطاءنا أكثر مما يمكنهم توفيره. أو تلك كانت قناعته على الأقل. وكان يسهل معرفة أنه كاهن، خصوصاً وقد بدا مظهرنا كالحاً بعد الأيام التي أمضيناها في طوافنا الصحراوي، مثلما أسماه. عرضنا القيام ببعض الأعمال لقاء الطعام في منزلين، وطلب منا الناس هناك أن نتلو شيئاً من الكتاب المقدس أو الصلاة فحسب. وقد شعر بالفضول كونهم عرفوا وتساءل بعض الشيء عم فيه ويفصح عن هويته. كانت مسألة كبرياء بالنسبة إليه أن يديه كانتا صلبتين وأنه لم يكن في جسده ما يذكر من اللحم. وقد اختبرت الأمر نفسه مرات عدة، وتساءلت عن الأمر أيضاً. حسناً، أمضينا بضعة أيام على شفير الكارثة، وظللنا نضحك لسنوات حول الأمر. وكانت دائماً التفاصيل الأصعب هي التي تثير فينا الضحك. أما والدتي فكانت برمة بالأمر كله، لكنها اكتفت بالقول: «إياكما أن تخبراني بتفاصيل ما جرى».

من نواح عدة كانت أماً حذِرة جداً، وامرأة مسكينة. كنتُ بمعنى ما ابنها الوحيد. قبل أن أولد ابتاعت كتاباً طبياً منزلياً. كان كبيراً وباهظ

الثمن، وكان أكثر تفصيلاً بكثير من «سفر الأحبار». وبناء على ما ورد في هذا الكتاب كانت تحاول أن تمنعنا من استعمال أدمغتنا لساعة بعد العشاء أو عن القراءة حين تكون اقدامنا باردة. وكانت الفكرة منع تلقي الدورة الدموية أوامر متناقضة. وقال لها جدي مرة إنه إذا لم يكن يسع المرء القراءة بقدمين باردتين فلن يكون هناك متعلّم واحد في ولاية «ماين»، لكنها كانت جدية للغاية حيال هذه المسائل، وكان يستفزّها فحسب. قالت «لا أحد في ماين يحصل على كفايته من الطعام فالنتيجة نفسها في النهاية». حين عدت إلى البيت قامت بغسلي ووضعتني في السرير وأطعمتني ست أو سبع مرات يومياً ومنعتني من استعمال دماغي بعد كل وجبة. وكان الضجر كبيراً.

كانت تلك الرحلة نعمة كبيرة لي. أدرك إذ أتذكرها الآن كم كان والدي شاباً وقتذاك. لم يكن يتجاوز الخامسة أو السادسة والأربعين. وكان رجلاً صلباً قوياً حين بدأ يتقدّم في السن. ولسنوات واظبنا على لعب «التقاط الكرات»[1] بعد العشاء، وحتى تغرب الشمس وتتكاثف الظلمة فلا نعود نرى الطابة. أظن أنه كان يقدّر فحسب وجود طفل في البيت؛ ابن من صلبه. حسناً، لقد كنت بدوري عجوزاً صلباً، حتى مؤخّراً.

أحسبك تعرف أنني تزوجت سابقاً في شبابي. كنا قد نشأنا معاً. وقد

(1) Catch: لعبة التقاط الكرات.

تزوجنا خلال السنة الأخيرة من دراستي الكهنوت، ثم عدنا إلى هنا لكي آخذ مكان والدي في منبر الوعظ[1] في حين اتجه هو وأمي جنوباً لبضعة أشهر بسبب صحة أمي. حسناً، لقد ماتت زوجتي في أثناء الوضع، وماتت الطفلة معها أيضاً. كان اسمهما لويزا وأنجلينا. رأيت الطفلة قبل أن تفارق الحياة وحملتها بضع دقائق، وكانت تلك نعمة. وقد عمّدها بوتون وأسماها أنجلينا، لأنني كنت في «طابور» [2]طوال النهار، ولم تكن الولادة متوقعة قبل ستة أسابيع، ولم يكن هناك من يطلعه على الاسم الذي وقع اختيارنا عليه أخيراً، كان من الممكن أن يكون اسمها ربيكا، لكن أنجلينا اسم جميل أيضاً.

يوم الأحد الماضي حين ذهبنا إلى منزل بوتون لتناول العشاء، رأيتك تنظر إلى يديه. لقد حولهما داء المفاصل جلداً على عظم، ولعلك حسبته شديد الهرم، لكنه يصغرني سناً. وقد كان الشاهد في زفافي الأول، وهو من زوجني ووالدتك أيضاً. ابنته غلوري عادت للعيش معه بعد أن أخفق زواجها، وهذا مؤسف، لكنها نعمة لبوتون أن تكون معه. وقد أخبرتني حين جاءت قبل أيام لتحضر لي مجلة، أن جاك قد يعود إلى البيت أيضاً. واحتجت إلى برهة لأتذكّر من يكون جاك. ربما لا تتذكّر الكثير عن بوتون الهرم. تجده نكداً من وقت لآخر وهذا مفهوم نظراً لوضعه. وسيكون مؤسفاً أن تتذكره على هذه الصورة. أما في شبابه فقد كان أحد أفضل الواعظين الذين سمعتهم في حياتي.

(1) Pulpit: هو منبر بالمعنى الحرفي، يقع في صحن الكنيسة ويكون غالباً مرتفعاً بسبب سماوية التعاليم التي تلقى عليه. لكن شرط الارتفاع هذا ليس ثابتاً في جميع الكنائس.

(2) Tabor: مدينة صغيرة في أيوا.

كان والدي يدوّن الخطوط العريضة لعظته، أما أنا فأكتب عظتي كلمة بكلمة. وقد تراكمت صناديق من هذه العظات في علّية البيت، وهناك بضع سنوات منها موضوعة في رِزَم في الخزانة. ولم أعد إليها قطّ لأرى ما إذا كان لها أيّ قيمة، وإذا كنت فعلاً قد قلت فيها شيئاً ذا مغزى. كل عمل حياتي تقريباً هو في هذه الصناديق، وهو أمر مذهل حين أفكّر به. يمكنني البحث فيها علني أعثر على بعضها مما قد أرغب في أن تحتفظ بها. إنني أخشاها بعض الشيء. وأظن أنني عملت على وضعها مثلما فعلت فقط لكي أشغل نفسي. إذا جاء أحدهم إلى البيت ووجدني أكتب فقد كان يرحل عادة، ما لم يكن الأمر الذي جاء من أجله ملحاً في أهميته. لا أعرف لماذا العزلة يمكن أن تكون علاجاً شافياً من الوحدة، لكن لطالما كان الأمر كذلك بالنسبة إليّ في تلك الأيام، وكان الناس يحترمونني بسبب تلك الساعات الطويلة التي أمضيها كاتباً في غرفة المكتب، وبسبب الكتب التي تصلني بالبريد – والتي لم تكن بالكثيرة حقاً لكنها أكثر مما أستطيع تحمّل كلفته. هكذا هدرت بعضاً من المال الذي كان يمكنني ادّخاره.

كان ثمة بالطبع ما يتجاوز ذلك. فلطالما شعرت أن الكتابة أشبه بالصلاة، حتى وإن لم أكن أكتب الأدعية أو العظات، مثلما كنت أفعل دائماً. تشعر أنك برفقة أحدهم. أشعر الآن أنني معك، أياً كان ما يعنيه ذلك، نظراً إلى أنك مجرد طفل صغير الآن، وحين تصير رجلاً بالغاً قد تجد رسالتي

هذه بلا معنى أو قد لا تصلك البتة لأي سبب من الأسباب. ولكن يا لشدّة أسفي على أيّ حزن قد تكون عانيته، وكم أشعر بالامتنان على أيّ أوقات طيبة قد تكون أمضيتها. أعني، إنني أصلي لك. وثمة حميمية في ذلك. هذه الحقيقة.

تبدي والدتك احتراماً للساعات التي أمضيها في حجرة المكتب. وهي فخورة بما لديّ من كتب. وهي في حقيقة الأمر التي لفتت أنظاري إلى عدد الصناديق التي ملأتها بالعظات والأدعية. لنقل إنها خمسون عظة في السنة على امتداد خمسة وأربعين عاماً، دون احتساب الجنازات وما شابه، والتي كان ثمة الكثير منها، هذا يجعل العدد ألفين ومئتين وخمسين عظة. فإذا كان معدّل العظة الواحدة ثلاثين صفحة فهذا يعني أنني كتبت قرابة سبعة وستين ألفاً وخمسمئة صفحة. أيعقل أن يكون ذلك صحيحاً؟ أظن أنه كذلك. كما أنا أكتب بخطّ صغير، مثلما يفترض أنك بتّ تعلم الآن. لنقل إن ثلاثمئة صفحة تشكّل كتاباً، فعندئذ أكون قد وضعت مئتين وخمسة وعشرين كتاباً، وهذا يضعني في صف واحد مع أوغسطين[1] وكالفن[2]، في ما يخصّ الكمية. وهذا مذهل. وقد كتبت معظم هذه العظات بأعمق إيمان وأمل، مغربلاً أفكاري ومتخيّراً كلماتي ومحاولاً قول ما هو حقيقي. وأصدقك القول، لقد كان هذا رائعاً. ولا أملك إلا الامتنان على كلّ تلك السنوات القاتمة، وإن بدت

(1) القديس أوغسطين (354–430): أحد أهم الشخصيات المسيحية الغربية، تعتبره الكنيستان الكاثوليكية والأنغليكانية قديساً، وتعتبره العديد من البروتستانت أحد منابع اللاهوتية.

(2) جون كالفن (1509–1564): مصلح ديني ولاهوتي فرنسي، مؤسس المذهب الكالفني المنتشر في سويسرا وفرنسا.

حين أتذكرها مثل صلاة طويلة مريرة استجيبت أخيراً. دخلت والدتك إلى الكنيسة في وسط الصلاة، لكي تخرج من الطقس، كما ظننت وقتذاك، لأنها كانت تمطر بشدة. وراحت تنظر إليّ بعينين بالغتي الجدية إلى درجة أنني أُحرجت من كوني أعظ أمامها. مثلما يمكن أن يقول بوتون، أحسست أمامها بفقر كلماتي.

كنت أستمتع أحياناً بدعة يوم أحد عادي. وهذا أشبه بالوقوف في حديقة زرعت حديثاً بعد مطر دافئ. يمكنك الإحساس بالصمت وبالحياة الخفية. وكل ما يتطلبه الأمر منك هو أن تحرص على ألا تطأها بقدميك. وكان ذلك يوماً ساكناً هادئاً، المطر على السقف، والمطر على النوافذ، والجميع يشعر بالامتنان، لأننا لطالما شعرنا بأننا لا نحصل على كفايتنا من المطر. في أوقات كهذه لا يهمني بصورة خاصة ما إذا كان الناس يصغون لما أقوله، لأنني أعرف ماهية أفكارهم، ثم إذا دخل فجأة غريب ما، فإن الإحساس نفسه بالدعة يبدو نعاساً وعادة رتيبة، لأنك تخشى أنه سيراه على هذا النحو.

لو لم تمت ربيكا، لكانت في الحادية والخمسين، أي أكبر من والدتك الآن بعشر سنوات. لزمن طويل فكّرت كيف سأشعر لو دخلتْ من ذلك الباب، ألن أكون خجلاً على الأقل، من النطق في حضورها. لأنني لطالما تخيّلتها تعود من مكان كلّ شيء فيه معلوم، وعندئذ ستسمع آمالي وتوقعاتي على نحو ما يسمعها شخص رأى الحقيقة وجهاً لوجه، وبالتالي يعرف حق المعرفة مدى جهلي. تلك كانت حيلة أمارسها على نفسي، لكي أمنع نفسي من أسباب الجدل والقناعات بقوة شديدة.

وقد قرأت الكثير من الكتب في تلك الأيام، وكنت دائماً أتجادل في عقلي مع هذا الكتاب أو ذاك، لكن أحسب أنني كنت أكثر حكمة من أن أحمل هذه الأفكار إلى منبر الوعظ. لكنني أظن على الرغم من ذلك أنه لأنني كتبت تلك العظات تحت وطأة أن ربيكا يمكن أن تدخل في وقت ما من الباب، أنني كنت مستعداً حين دخلت والدتك، وكانت أصغر مما ستكون عليه ربيكا بالطبع، لكنها لم تكن مختلفة عن تصوّري لها. لم يكن الأمر متعلقاً بمظهرها بل بالطريقة التي بدت بها غير منتمية إلى ذلك المكان، وفي الوقت نفسه الوحيدة التي تنتمي بها إلى إليه.

أقول هذا لأن الجدية التي بدت عليها كانت أشبه بالغضب. كأنها ستقول «جئت إلى هنا من مسافة لا تقاس ومن مكان لا يمكن تخيله لكي أسدي صلواتك خدمة. والآن قل شيئاً ذا معنى». أصبحت عظتي رماداً على لساني، وليس لأنني لم أبذل جهداً فيها، فقد كنت أبذل جهداً على جميع عظاتي. أتذكر أنني عمّدت طفلين في ذلك اليوم. وأتذكّر مدى كثافة نظراتها نحوي. وكلا الطفلين بكيا حين وضعت المياه على رأسيهما للمرة الأولى، ورفعت رأسي ورأيت ملمح الذهول المتجهّم على وجهها، علمت أنها ستكون موجودة حتى قبل أن أرفع رأسي وأنظر، وشعرت بأنني أريد أن أقول لها بجدية: «إذا كنت تعرفين طريقة أفضل لفعل هذا، فسأكون ممتناً لو أخبرتني». ثم بعد ستة أشهر فحسب عمّدتها. وشعرت بالرغبة في أن أسألها «ما الذي فعلته؟ ما الذي يعنيه هذا؟». وكان هذا السؤال يراودني غالباً، لا لأنني كنت أشعر بأقلّ من التيقّن من أنني فعلت شيئاً ينطوي على معنى ما، لكن لأنه

مهما فكرت وقرأت وصليت، كنت أشعر في داخلي بإلغاز هذا الأمر. انحدرت الدموع على وجنتيها، تلك المرأة الحبيبة. وهذا لن أنساه ما حييت إلا إذا نسيت كلّ شيء آخر كما هو ديدن الطاعنين في السّن. لكن يبدو أنني لن أعيش كفاية لأنسى الكثير مما لم أنسه بعد، وأعرف أنه كثير. لطالما شغلت العمادة تفكيري على مرّ السنين. وغالباً ما تناقشت حولها مع بوتون.

قد يبدو ما سأذكره الآن تافهاً لا يستحق الذكر، أخذاً في الاعتبار أهمية الموضوع، لكنني لا أشعر حقاً بأنه كذلك. كنا أطفالاً شديدي الورع نشأنا في بيئة ورعة في بلدة ورعة إلى حدّ كبير، وقد انعكس ذلك إلى حدّ كبير على سلوكياتنا. فأذكر أننا قمنا ذات بتعميد مجموعة من الهُريرات. كانت قطط حظيرة قذرة هزيلة بالكاد تقف على قوائمها، ذلك النوع من الكائنات التي تمضي حياتها الغفل في مطاردة الفئران دون إيلاء اهتمام يذكر بالبشر، إلا تجنّبهم. لكنّ يبدو أن جميع الحيوانات في صغرها تكون اجتماعية، فكان يفرحنا دوماً العثور على هريرات جديدة تطوف خلسة من أيّ شق قد تكون أمها خبأتها فيها، ولديها الاستعداد نفسه للعب معنا. وقد خطر لإحدى الفتيات أن تلبسها فستان دمية؛ كان هناك فستان واحد فقط، وكان كافياً إذ أن القطط ما كانت تطيقها أكثر من دقيقة واحدة فتسارع إلى التملّص منه ما أن تتم عمادتها. وقمت أنا نفسي بتبليل جباهها، مكرراً الثالوث المقدّس فوق

رؤوسها.

وقد وجدتنا أمها العجوز ذات الذيل الأعوج ونحن نعمّدها عند الغدير، فبدأت بحملها من أعناقها واحداً بعد الآخر. ما عدنا نميز بين القطط، لكننا كنا واثقين بما فيه الكفاية من أن بعضها ما زال يقبع في ظلمة الوثنية، وكان هذا مصدر قلق كبير لنا. وأخيراً سألت والدي بأكثر الطرق العرضية الممكنة ما الذي يحدث بالضبط لقط إذا، مثلاً، جرى تعميده. فقال إنه تجب معاملة القربان المقدّس والنظر إليه بأقصى احترام ممكن. ولم يكن هذا جواباً عن سؤالي. فنحن نحترم القربان المقدّس بالفعل، وقد أحببنا عالم تلك القطط إلى أقصى حدٍّ، ومع ذلك فهمت مقصده ولم أعد إلى القيام بالمزيد من العمادة حتى رسمت كاهناً.

وقد أخذت الفتيات معهن اثنين أو ثلاثة من صغار القطط وحولنها إلى قطط منزلية محترمة. لويزا أخذت قطة صفراء. وكانت لا تزال لديها حين تزوجت. أما القطط الأخرى فاستمرت في حياتها الهمجية، غير مميزة عن جنسها سواء كان وثنياً أم نصرانياً لا أحد يعرف. أسمت قطتها «سباركل»[1]، بسبب الرقعة البيضاء على جبينها. وأخيراً اختفت. أظن أنه قبض عليها وهي تسرق الأرانب، وهي خطيئة كانت تميل إليها كثيراً، على الرغم من أنها كانت قطة مسيحية متزمتة في ذلك الوقت. قال أحد الفتية إنه كان يمكن للويزا أن تسميها «سبرينكل»[2]. كان

(1) Sparkle: السنا أو الشعاع أو الشرر أو الوميض.

(2) Sprinkle: الموشاة، المنقطة، وتعني أيضاً الرذاذ أو المطر الخفيف، والأرجح أن هذا المعنى المقصود ربطاً بالمعنى التالي.

هذا الفتى معمدانياً[1] يؤمن تماماً بالغمر الكامل، الذي يفترض بتلك الهريرات أن تكون شاكرة لي لأنني لا أؤمن به. وقال لنا إن مناهجنا لا يمكن أن تحدث أيّ تأثير، ولم نستطع إثبات خطأه. لابدّ من أن هرتنا «سوبي» تمتّ بقرابة بعيدة إلى تلك القطة.

ما زلت أتذكر إحساسي بتلك الجباه الصغيرة الدافئة تحت راحة يدي. أتيح للجميع أن يلمسوا أو يربتوا على رأس قطة أو ظهرها في وقت من الأوقات، لكن أن تلمس واحدة بهذه الطريقة، بالنية الصافية لمباركتها، هو أمر مختلف تماماً. فهو يبقى في العقل. ظللنا لسنوات نتساءل، من وجهة نظر كونية، عما فعلناه بها. وما زال يبدو لي سؤالاً حقيقياً. فالعمادة تنطوي على حقيقة، وهو ما أعتبره كنهها في المقام الأول. فهي لا تعزّز القدسية، بل تعترف بوجودها، وثمة قوة في هذا. لقد شعرت بهذه القدسية تخترقني نوعاً ما. وكان إحساسي هو أنني عرفت هذه الكائنات حقاً، أعني شعرت بحياتها الملغزة وبحياتي الملغزة في آن معاً. لا أرغب في أن أحثّ القسّ فيك على الظهور، لكن ثمة ميزات في الأمر لن تأخذها في الحسبان ما لم أدلك عليها. لا أعني بهذا أنك مضطر إلى أن تكون قساً لكي تحصل على البركة. ولكن ببساطة من المرجح أكثر بكثير أن تجد نفسك في هذا الموضع. إنه أمر يتوقعه الناس منك. لا أعرف لماذا ليس ثمة في الأدبيات الدينية إلا القليل عن

(1) Baptist: أحد أتباع الكنيسة المعمدانية التي تعتبر أن المعمودية تمثّل طقس دخول الإنسان في الإيمان المسيحي، وبالتالي ترفض عمادة الأطفال، على اعتبار أن الدخول في الدين يجب أن يجري بصورة واعية، وبالتالي العمادة تكون للمؤمنين.

هذه الناحية من الدعوة الداخلية[1].

يصف لودفيغ فيورباخ[2] العمادة بطريقة رائعة، وقد وضعت خطاً تحت وصفه هذا. يقول: «الماء هي الأنقى والأصفى بين السوائل؛ وبسبب ميزتها الطبيعية هذه فهي تمثل صورة الطبيعة النقية للروح القدس. باختصار، تمتلك الماء دلالة في ذاتها، بوصفها ماء؛ وبسبب ميزتها الطبيعية تعتبر وتختار بوصفها حاملة الروح القدس. وبالتالي ففي أساس العمادة نجد دلالة طبيعية رائعة وعميقة». وفيورباخ هو ملحد معروف، لكنه يصف بالقوة نفسها النواحي المبهجة في الدين مثل الجميع، وهو يحبّ العالم. بالطبع هو يظن أنه تمكن تنحية الدين جانباً وترك الفرح نقياً غير مقنّع. هذا هو خطوه الوحيد، وهو خطأ جسيم. لكنه مدهش في وصفه للفرح، وأيضاً في تعبيراته الدينية.

يمقت بوتون فيورباخ بشدّة لأنه بحسبه ساهم في زعزعة إيمان الكثيرين،

---

(1) The Calling: هو الدعوة التي يشعر بها المرء لكي يكون واعظاً يعظ الناس بكلام الكتاب المقدس، وهناك نقاشات كثيرة تتعلق بكيفية حصول هذه الدعوة، وما إذا كانت نوعاً من الوحي أو خياراً يتخذه المرء بنفسه، وفكرة مشاركة الناس الآخرين، الرعية، في هذه الدعوة، أي قبولهم بأن يكون شخصاً بعينه واعظاً لهم، هي جزء من هذه النقاشات.

(2) Ludwig Andreas Feuerbach (1804–1872): فيلسوف ألماني أثّرت أفكاره في نشوء الجدلية الماركسية.

لكنني اختلف مع هؤلاء بقدر اختلافي مع فيورباخ. إذ يبدو لي أن بعضهم يمضي باحثاً عما يزعزع إيمانه. وهكذا كان الاتجاه الشائع خلال نحو قرن من الزمن. وقد أعطاني أخي كتابه «جوهر المسيحية»[1]، معولاً على أن يحدث في نفسي صدمة تخرجني من ورعي اللانقدي، مثلما عرفت وقتذاك. كان عليّ أن أقرأه سرّاً أو هكذا ظننت. فوضعته في علبة من البسكويت وخبّأته في شجرة. يمكنك تصوّر أن قراءته في مثل تلك الظروف منحني قدراً كبيراً من التشويق. وقد كنت أجلّ إدوارد وأحترمه لأنه درس في جامعة في ألمانيا.

لاحظت أنني لم آت حتى على ذكر إدوارد، مع أنه كان شديد الأهمية بالنسبة إلي، وما زال كذلك، طيّب الله ثراه. أحياناً أشعر أنني بالكاد عرفته، وفي وفي أحيان أخرى كأنني كنت أكلمه طوال حياتي. وقد ظنّ أنه يسديني خدمة ويخرج شيئاً من «الغرب الأوسط»[2] من داخلي، وهي الخدمة عينها التي أسدتها له أوروبا. لكن ها أنذا، وقد عشت حتى النهاية الحياة التي أنذرني منها، وأشعر إجمالاً بكثير من الرضا. ومع ذلك أعرف أنني متحسّس في ما يخص موضوع ضيق الأفق في التفكير.

تلقّى إدوارد تعليمه الجامعي في «جوتنجن»[3]. وكان إنساناً رائعاً.

(1) أحد كتب فيورباخ الأساسية، نشر عام 1841، وفيه يعرض نقده للدين.

(2) Middle West أو :Midwest: أحد الأقاليم الأربعة في الولايات المتحدة الأمريكية، يتضمن 12 ولاية، والإشارة هنا إلى الطابع الديني المحافظ في تلك المناطق، ولاسيما الريفية منها.

(3) Göttingen: جوتنجن، الجامعة الشهيرة التي أسسها جورج أغسطس (جورج الثاني =

كان يكبرني بنحو عشر سنوات، فلم أعرفه جيداً في طفولتنا. كان يفصل بيننا شقيقتان وشقيق، وجميعهم قضوا بالديفتيريا[1] في أقلّ من شهرين. وقد عرفهم هو على عكسي، فكان هذا أيضاً فارقاً كبيراً بيننا. على الرغم من أنه كان يؤتى على ذكر الموضوع في بيتنا، فلطالما شعرت أن ثمة حياة مليئة بالبهجة يتذكرها والداي وإدوارد ولا يسعني أنا تخيلها حقاً. في أي حال، غادر إدوارد البيت في السادسة عشرة لكي يذهب إلى الجامعة. وأنهى دراسته في التاسعة عشرة حاصلاً على شهادة في اللغات القديمة، وذهب مباشرة إلى أوروبا. ولم يره أحد منا طوال سنوات. ولم يكن هناك حتى الكثير من الرسائل.

ثم عاد إلى البيت مع عكاز للمشي وشارب ضخم. Herr Doktor[2]. لابدّ من أنه كان في السابعة والعشرين أو الثامنة والعشرين. وقد نشر كتاباً صغيراً في ألمانيا، دراسة ما عن فيورباخ. كان لامع الذكاء وكان والدي فخوراً به كما كان منذ طفولته على ما أظن. وقد أخبرني والداي قصصاً عن كيف كان يقرأ كل ما يقع تحت يديه، وكيف حفظ كتاباً كاملاً للونغفيلو[3]، ونسخ خرائط أوروبا وآسيا وحفظ أسماء جميع المدن والأنهار. بالطبع ظننا – شأن الجميع سواهم – أنهما ينشئان صموئيل[4]

= ملك إنجلترا لاحقاً) عام 1737. والجامعة مسماة على اسم المدينة التي تقع فيها، وتقع مدينة جوتنجن في ولاية سكسونيا السفلى بألمانيا الغربية.

(1) Diphtheria: الخناق.

(2) هكذا في النص بالألمانية، السيد الدكتور.

(3) Henry Wadsworth Longfellow (1807–1882): شاعر وتربويّ أمريكي.

(4) النبي التوراتي.

صغيراً فكانوا يزوّدونه بالكتب والألوان وبمنظار مكبّر وبكل ما يخطر ببال أو يصل إلى يدّ. وكانت والدتي تعبّر علانية أحياناً عن أسفها لأنهما لم يطلبا منه المشاركة بالكثير من الأعمال المنزلية، وقد حرصت على ألا تكرر الغلطة نفسها معي. لكنّ طفلاً بمثل روعته لم يكن بالأمر الشائع كثيراً، وكان الاعتقاد العام أنه سيصبح كاهناً عظيماً. فجمعت رعية الكنيسة التبرعات لكي يتمكن من الذهاب إلى الجامعة ثم إلى ألمانيا. وإذا به يعود ملحداً. وهذا ما ادّعاه دوماً بأيّ حال من الأحوال.

التحق إدوارد بجامعة الولاية في «لورنس»[1] مدرساً للأدب والفلسفة الألمانيين وظلّ هناك حتى وفاته. تزوج فتاة ألمانية من «إنديانا بوليس»[2] ورزقا بستة أولاد شقر الشعور، جميعهم في أربعينياتهم الآن. كان على بعد بضع مئات من الأميال طوال تلك السنوات التي بالكاد التقيته خلالها. وكان يرسل التبرعات للكنيسة تعويضاً عن مساعدة الرعية له. ظلت تصل حوالة مصرفية في الأول من يناير من كل عام طوال الوقت الذي كان فيه على قيد الحياة. كان رجلاً طيباً.

تبادل إدوارد ووالدي الحديث حين عاد الأول، مرة على مائدة العشاء في تلك الليلة الأولى حين طلب منه والدي تلاوة صلاة الشكر، فتنحنح إدوارد وأجاب: «أخشى أنني لا أستطيع فعل ذلك بضمير مرتاح يا سيدي»، فامتقع وجه والدي. كنت أعلم بوجود رسائل بينهما لم يُسمح لي بقراءتها، وكان هناك كلمات قلقة بين والديّ. فكان

(1) Lawrence: سادس أكبر مدينة في ولاية كنساس.

(2) Indianapolis: عاصمة ولاية إنديانا.

ما قاله إدوارد التأكيد المرعب لمخاوفهما. قال له والدي: «لقد عشتَ تحت هذا السقف. وتعرف عادات هذه العائلة. ولعلك تظهر لها بعض الاحترام». ورد إدوارد، وكان هذا خطأً كبيراً منه: «حين كنت طفلاً كنت أفكّر كطفل، أما الآن وقد صرت رجلاً فقد تخليت عن أموري الطفولية». غادر والدي المائدة وجلست والدتي صامتة والدموع تجري على وجنتيها، ومرّر لي إدوارد البطاطا. لم أكن أعرف ما المتوقع مني فعله، فتناولت بعضها. ومرّر لي إدوارد مرق اللحم. تناولنا وجبتنا غير المباركة بصمت لبعض الوقت، ثم غادر إدوارد المنزل ورافقته سيراً على الأقدام إلى الفندق.

وبينما نمشي قال لي إدوارد: «جون، سوف أقول لك الآن ما ستعلمه بالتأكيد ذات يوم. هذا المكان متخلف، ويجب أن تكون واعياً على ذلك. مغادرة هذا المكان أشبه بالاستيقاظ من غيبوبة». أظن أن الجيران رأونا نغادر البيت قبيل وقت العشاء في اليوم الأول، إدوارد طاوياً إحدى ذراعيه إلى الخلف، ومنحنياً قليلاً بما يوحي بحاجته قليلاً إلى العكّاز، وقد بدا عليه الاستغراق في أفكار عميقة صعبة ربما تجري بلغة أجنبية. أترى ما أقوله الآن! لو رأوه لتيقنوا فوراً مما شكوا به طويلاً. وعلموا أيضاً أنه كان ثمة غضب ونحيب في مطبخ والدتي وأن والدي كان في العلية أو في سقيفة الحطب، في مكان هادئ منعزل، جاثياً على ركبتيه، مناجياً الربّ عله يعرف ما المطلوب منه فعله. وها أنا مع إدوارد، أمشي وراءه، وقد تحوّل إلى مصدر أسى جديد لوالديّ، أو هذا ما ظنناه.

إضافة إلى تلك الكتب التي ذكرتها أعطاني إدوارد اللوحة الصغيرة التي تمثّل سوقاً والمعلقة عند السلالم. ويجب أن أحرص على أن أخبر والدتك أنها ملكي لا ملك الكنيسة. أشك في أنها تساوي شيئاً ذا قيمة لكنني أظنّ أنها سترغب في الاحتفاظ بها.

سأتذكر أن أخبر والدتك بأن تحتفظ بكتاب فيورباخ والكتب الأخرى لك. لا أرى في هذا الكتاب ما يثير القلق. وقد قرأته أول مرة تحت الملاءة، وعند الغدير، لأن والدتي منعتني من أي اتصال بإدوارد، وعلمت أن هذا يشمل قراءتي الكتاب الإلحادي الذي أعطاني إياه. قالت لي: «إذا تكلمت إلى والدك يوماً بهذه الطريقة، فسيقتله الأمر». في الحقيقة لطالما أزمعت الدفاع عن والدي. وأحسبني فعلت ذلك.

ثمة بعض الملحوظات التي وضعتها على هوامش الكتاب التي آمل ن (أن) تجدها مفيدة.

ذكرني ذكري لفيورباخ والفرح الذي يتكلم عنه، بشيء رأيته باكراً ذات صباح قبل بضع سنوات في طريقي إلى الكنيسة. كان ثمة شاب وشابّة على بعد بضع أبنية مني. وكانت الشمس أشرقت ساطعة بعد وابل من المطر، وكانت وريقات الأشجار تترقرق بقطرات المطر. ولسبب ما، ربما بفعل الحماسة الصرف، قفز الشاب وتعلّق بغصن، فانهالت عليهما

كمية من المياه، فضحكا وجريا يتضاحكان، وأخذت الفتاة تجفّف شعرها وفستانها كأنها تشعر بشيء من القرف، لكنها لم تكن كذلك. لا أعرف لماذا تذكرت هذا الآن، ما عدا ربما لأنه من السهل التصديق في مثل تلك اللحظات أن المياه خلقت للمباركة في المقام الأول، وفقط بالدرجة الثانية لري الزرع أو الغسيل. أتمنى لو أنني أبديت تجاهها المزيد من الاهتمام. قد تبدو لائحة الأمور التي أندم عليها غير مألوفة، لكن من يمكنه القول إنها كذلك حقاً. إنه كوكب مثير للاهتمام. ويستحق كلّ ذرة اهتمام تستطيع أن توليها له.

ألاحظ إذ أكتب الحرص الذي يتطلبه مني عدم استعمال كلمات معينة أكثر مما ينبغي. أفكر في كلمة «تواً». أكاد أتمنى لو أنني كتبت أن الشمس قد أشرقت تواً والشجرة التمعت تواً وانهمرت المياه منها تواً والفتاة ضحكت تواً – حين تستعمل على هذا النحو فإنها تشير إلى تشديد على الكلمة التي تليها، وتلازمها دائماً نبرة صوتية ما. يتكلم الناس على هذا النحو حين يرغبون في لفت الانتباه إلى شيء ما فائض عن ذاته، إذا جاز القول، إلى نوع من النقاء والإسراف، وفي أي حال إلى شيء عادي في نوعه، ونادر في درجته. هكذا يبدو لي الأمر حالياً. ثمة شيء حقيقي يراد الإشارة إليه بهذه الكلمة «تواً» لا تلحظه اللغة الاعتيادية. إنها أشبه بكلمة ge الألمانية. يحزنني أنه عليّ حرمان نفسي منها. فهي تحرم القصة من نصف قيمتها.

كما أنني ميال إلى استعمال كلمة «عجوز» التي لا علاقة فعلية لها بالسن، كما تبدو لي، بل بالمألوفية. فهي تفصل شيئاً على حدة بوصفه

شيئاً ينظر إليه بعاطفة اعتيادية متواضعة. وأحياناً تتضمن العجز أو الهشاشة. أقول «العجوز بوتون» أو «هذه البلدة القديمة المتهدمة»، وأعني بذلك شدّة قربهما إلى قلبي.

لستُ أكتب مثلما أتكلم. وأخشى أن تظنّ أنني لا أعرف أفضل من هذا. كما – بقدر ما يسعني ذلك – لست أكتب بالطريقة التي أكتب بها العظات، فهذا سيكون سخيفاً في ظلّ هذه الظروف. لكنني أحاول فعلاً أن أكتب كما أفكّر. لكن بالطبع هذا كله يتغيّر ما أن أضع أفكاري في كلمات. وكلما بدا أكثر أنها تعكس تفكيري، بدت أكثر وعظية، وهو ما أحسب أنه لا يمكن تجنّبه. لكنني على الرغم من ذلك سأقاوم هذا النزوع.

مضيت راجلاً إلى منزل بوتون لكي أطمئن على حاله. فوجدته في مزاج نفسي رهيب. تصادف في الغد الذكرى الرابعة والخمسون على زواجه. قال: «الحقيقة أنني متعب فحسب من الجلوس وحدي هنا. هذه هي الحقيقة». غلوري تفعل كلّ ما في وسعها لكي تؤاسيه، لكنه يعيش أيامه الصعبة. قال: «حين كنا شباباً، عنى الزواج شيئاً ما. وعنت العائلة شيئاً. لم تكن الأمور على حالها اليوم على الإطلاق!». برمت غلوري عينيها عند سماعها هذا الكلام وقالت: «لم نسمع شيئاً من جاك منذ مدة وهذا يقلقنا بعض الشيء».

قال: «غلوري، لَمَ تفعلين هذا دائماً؟ لَمَ تقولين نحن عندما تقصدين الكلام عني؟».

قالت: «أبتاه، بقدر ما يعنيني الأمر لا يستطيع المجيء قبل دقيقة من موعده».

قال: «حسناً، من الطبيعي أن أقلق ولن أعتذر عن ذلك».

قالت: «أظن أنه من الطبيعي أن تنفّس عن قلقك بإلقاء اللوم عليّ ولكنني لا أستطيع الزعم أنني أحبّ ذلك».

وهلمجرا. فعدت إلى البيت.

لطالما كان بوتون طيّب القلب، لكنه منهك من وضعه الصحّي، ومن وقت لآخر يقول أشياء لا يجدر به قولها. لا يكون على طبيعته.

يؤسفني أنك طفل وحيد. فأنت تعيش حياة جدّية لا تتاح لك فيها الكثير من الفرص للمرح أو لارتكاب الأخطاء، كما أنك منكفئ على ذاتك فلا تتعاطى كثيراً مع غيرك من الأطفال. أراك واقفاً على أرجوحتك وتجيل نظرك مشاهداً بعض الفتية الذين في مثل عمرك يلعبون في الشارع. هناك فتى ضخم يحاول ركوب دراجة هوائية كبيرة. أظن أنك تعرف هؤلاء الأطفال، لكنك لا تتكلم إليهم. وإذا ما شعرت أنهم رأوك فمن المرجّح أن تدخل إلى البيت. أنت خجل كوالدتك. وأرى كم صعبة هي الحياة التي جلبتها للعيش فيها، وأشعر أنك تحسّ بذلك أيضاً. فهي لا تشبه زوجة القسّ. وهي تقول هذا بنفسها، لكنها لا

تحجم عن ممارسة دورها كاملاً. على الأرجح أن مريم المجدلية كانت تعدّ الطعام من حين لآخر، أياً يكن ما يعنيه هذا قديماً. ربما كانت تطبخ مرق اللحم على ما أفترض.

لا أقصد ذلك إلا باحترام، عندما أقول إنه لطالما صعقني إحساسي بأن والدتك تذكّرني بتلك المرأة التي اختار الرب أن يمضي جزءاً من وقته الفاني معه. كم غريب قول هذا بعد كل هذه القرون. هناك براءة مكتسبة، وهي تستحق أن يحتفى بها بقدر ما يحتفى ببراءة الأطفال. لطالما رغبت في الوعظ حول هذا الأمر. وعلى حدّ علمي لقد فعلت ذلك. حين يقول الرب إنكم يجب «أن تصيروا مثل أولئك الأولاد»[1] أظن أنه يعني أنه على المرء أن يتجرّد من الصلف الزائد والادعاء والصغائر؛ «عرياناً خرجت من بطن أمي»[2] وهلمجرا. أظن أنني سأعظ حول ذلك خلال أيام الحلول[3]. سأدون ملحوظة بذلك. إذا لم أتذكر أنني وعظت حول ذلك قبلاً فلا أحد سواي سيتذكر على الأرجح. كما أتخيّل يسوع يصادق جدي أيضاً، ويحضّر له بعض الإفطار، ويتناقش وإياه في بعض المسائل، والحقيقة أن جدي روى بالفعل تجارب عديدة من هذا القبيل. لا يسعني قول الشيء نفسه عن نفسي. أشك في أنني حظيت يوماً بالقوة لذلك. وهذا أمر خطر ببالي من وقت لآخر على مرّ السنين،

(1) إنجيل متى، 18: 4، «وقال: الحق أقول لكم: إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السماوات».

(2) التوراة، سفر أيوب، 1: 21، «عرياناً خرجت من بطن أمي، وعرياناً أعود إلى هناك».

(3) أيام الأحد الأربعة السابقة لميلاد السيد المسيح.

ولا أعرف حقاً معناه.

لطالما أراحني أن والدتك تشعر بالانسجام في العالم، ولو بصورة مؤقتة، أو يجدر بي أن أقول في سلام في العالم، لأنني أظنّ أن ألفتها مع العالم قد تكون أعمق من ألفتي أنا. أتمنى بكل صدق لو كانت لديّ الوسائل لأوفّر عليك أقلّ احتكاك بالفقر نفسه الذي باركه الرب بالفعل وبالمثال. ذات مرة حين عبّرت عن قلقي حيال ذلك بصوت عال، قالت والدتك: «أتظن أنني لا أعرف كيف أعيش فقيرة؟ لقد فعلت ذلك طوال حياتي». ومع ذلك ما زال يخجلني أن أفكر أنني سأتركك ووالدتك عاريين إلى هذا الحدّ أمام العالم – يا ربي، أدعو، وفّر عليهما نعمة الفقر.

لقد كان لي بعض الاحتكاك بذلك الفقر المقدّس. لم يحتفظ جدي يوماً بشيء مما يستحق أن يمنح للآخرين، ولا سمح لنا بالاحتفاظ به أيضاً، كما أخبرتني والدتي. كان يخطف الغسيل مباشرة عن الحبل. وقالت والدتي إنه أسوأ من لص، ومن حريق منزلي. قالت إنه يمكنها على الأرجح الذهاب إلى أيّ بلدة في الغرب الأوسط لتجد بنطالاً قد رقعته ذات مرة يمشي في الشارع هناك. أظن أنه كان قديساً نوعاً ما. وحين كان يعلّق أحدهم على مسامعه بأنه فقد عيناً خلال الحرب الأهلية كان يقول «أفضّل أن أتذكّر أنني احتفظت بعين». وقالت والدتي إنه كان من الجيد معرفة

أنه ثمة شيء يودّ الاحتفاظ به. قال لي مرة إنه جرح في معركة «ويلسون كريك» يوم وفاة الجنرال ليون[1]، وعقّب: «وتلك كانت خسارة».

حين غادَرنا، شعرنا جميعاً بالمرارة لغيابه. لكنه كان يجعل الحياة صعبة بالفعل. كانت البراءة التي فيه هي السبب. كان يفتقر إلى الصبر تجاه أيّ شيء ما عدا التفسير الأبسط لأكثر الوصايا صرامة، ولا سيما وصية «من سألك فأعطه»[2].

أتمنى لو أنك عرفت جدي. سمعت أحدهم ذات مرة يقول إن العين التي بقيت له تساوي عشر عيون في آن معاً. يبدو لي أن نظرة عادية، أو حتى محدّقة، تتوزّع قليلاً حين يكون هناك عينان. كان يشعرني -بمجرّد أن ينظر إليّ- كأنه يلكزني بعصا. ولا أقصد أنه كان يعني أيّ سوء بذلك. لكنه كان مستعراً فحسب بالحقائق القديمة، ولم يكن يتحمّل كلّ الصبر الذي فرضه عليه السلام وشيخوخة جسده والنسيان الذي طاول كلّ شيء. كان يعتقد أنه يجدر بنا جميعاً أن نعيش بسرعة قصوى. ولا أقول إنه كان مخطئاً، وإلا لكن ذلك شبيهاً بمناقضة يوحنا المعمدان.

(1) الجنرال ناثانييل ليون (1818—1861): أول جنرال من جيش «الاتحاد» (المعروف أيضاً باسم الجيش الفدرالي) يقتل خلال الحرب الأهلية الأمريكية، وقد قتل خلال معركة ويلسون كريك المذكورة، والتي جرت عام 1861 قرب سبرينغفيلد، بولاية ميزوري.

(2) إنجيل متّى 5: 42، «من سألك فأعطه، ومن أراد أن يقترض منك فلا تردّه»، من «عظة الجبل».

كان جدي يتخلّى فعلاً عن أيّ شيء. وحين يبحث والدي في البيت عن منشار أو عن علبة مسامير، مثلاً، يجدهما قد اختفيا. وكانت والدتي تلفّ كلّ ما يتوافر لديها من مال في منديل وتخبئه في صديريّ فستانها. وجاء وقت صارت اضطرت فيه إلى بيع الدجاج والبيض (كان لدينا حينذاك رقعة أرض صغيرة حول هذا البيت، إضافة إلى حظيرة ومرجة وقنّ دجاج وسقيفة للحطب وبستان صغير جميل وعريشة عنب. لكن مع الوقت اضطرت الكنيسة إلى بيعها كلها. وقد اعتدت في تلك الفترة أن أسمع أنهم يزمعون تالياً بيع القبو بالمزاد العلني أو السطح). في أي حال، كانت أوقاتاً شاقة، وكانت مضطرة أيضاً إلى التعامل مع العجوز (الهرم)، الذي اعتاد أن يهب حتى ملاءات سريره. وقد فعل ذلك مرات عدّة وعانت والدتي كثيراً لتجد بديلاً لها. وقد أجبرتني في أثناء تلك الفترة على ارتداء ثياب الكنيسة[1] طوال الوقت لكي لا تصل يده إليها، ثم لم تمنحني لحظة راحة لأنها تعرف أنني سأذهب وألعب «البيسبول» بها، وهو ما كنت أفعله بالتأكيد.

أتذكر مرة دخوله إلى المطبخ وهي تكوي الملابس. قال لها: «يا ابنتي لقد قصدنا بعض الإخوة طلباً للمساعدة».

فقالت: «حسناً، آمل أنه يسعهم الانتظار دقيقة حتى تبرد هذه المكواة». وبعد بضع دقائق وضعت المكواة في الموقد وذهبت إلى حجرة المؤونة وجاءت بوعاء من مسحوق خميرة الخبز، وراحت تنبشه بشوكة حتى استخرجت منه ربع دولار. وفعلت ذلك ثانية حتى أصبح

(1) المقصود ثياب الذهاب إلى الكنيسة، التي عادة ما تكون مرتبة نظيفة.

هناك ربع دولار وعشرون سنتاً على الطاولة. فحملتهما ومسحت عنهما الطحين بطرف المئزر وأعطته إياها. والآن، خمسة وأربعون سنتاً كانت تساوي الكثير من البيض في تلك الأيام، وهي لم تكن بالمرأة البخيلة. أخذ جدي النقود، لكن كان واضحاً أنه لديها المزيد (ذات مرة حين كان في حجرة المؤونة وجد مالاً مخبوءاً في صفيحة فارغة لأنه حين حمل الصفيحة راحت تقعقع، فاعتاد الذهاب إلى الحجرة من وقت لآخر ليرى أيّ شيء آخر قد يقعقع. فاعتادت أن تغسل مالها ثم تضعه في السمن أو في السكر. لكن من وقت لآخر كان يظهر نيكل[1] حيث لا تريده أن يظهر، في وعاء السكر، بالطبع أو في العصيدة). لا ريب في أنها حسبت أنها تستطيع جعله يستمر في تصديق أن كلّ مالها مخبّأ في حجرة المؤونة إذا ما خبّأت بعضاً منه هناك.

لكنه لم يخدع البتة بذلك. أظن أنه ربما كان فاقداً بعض توازنه في ذلك الوقت، لكنه ظلّ قادراً على الرؤية عبر كلّ شيء وكلّ شخص إلا— كما قالت والدتي — السكارى والفاشلين. لكن هذا لم يكن صحيحاً تماماً أيضاً. لكنه قال فحسب «لا تدينوا»[2] وبالطبع هذا من الكتاب المقدّس وتصعب مناقضته.

لكن يجدر بي القول إن والدتي عانت كثيراً للاعتناء بعائلتها، ما كان يمثّل عملاً شاقاً في تلك الأيام، ولاسيما عليها، مع آلامها وأوجاعها. كانت تحتفظ بزجاجة من الويسكي في حجرة المؤونة للتخفيف من

(1) قطعة نقدية معدنية تساوي خمسة سنتات.

(2) إنجيل متّى 7: 1، «لا تدينوا لكي لا تدانوا».

آلام الروماتيزم. «هذا هو الشيء الوحيد الذي لست مضطرة لتخبئته»، قالت. إذ لم يكن جدّي يتردّد، مثلاً، في أخذ مرطبان من الشمندر المخلّل دون استئذانها. لكنه في ذلك اليوم وقف هناك حاملاً القطع المعدنية الثلاث بيده الكهلة المتيبسة الشبيهة بيد مومياء وراح يحجها بتلك العين الرهيبة، وهي شبكت ذراعيها فوق صرّة المال في صديري فستانها، كما كان من الواضح أنه يعرف، وجعلت تحملق به في المقابل، حتى قال لها: «حسناً فليباركك الرب ويحفظك»، وخرج من الباب.

قالت والدتي «لقد غلبته بالنظرات! لقد غلبته بالنظرات!». وبدت في غاية الذهول حيال ذلك. كما سبق وقلت، كانت تكنّ له الكثير من الاحترام. ولطالما قال لها ألا تقلق حيال كرمه لأن الرب سيعوّضها. واعتادت القول إنه لو لم يتجشّم الرب الكثير من العناء لإبقاء كسوتنا علينا، لربما حصل له الوقت لكي يوفّر لنا كعكة من وقت لآخر أو فطيرة. لكنها اشتاقت إلى جدّي حين رحل، شأننا جميعاً.

حين أراجع ما كتبته عن جدّي في الصفحات السابقة أشعر أنني وصفته في شيخوخته كشخص غريب الأطوار ببساطة، وكأن الأمر كان مقتصراً على أننا تسامحنا معه واحترمناه وأحببناه وأحبنا. وهذا كله صحيح. لكنني أظنّ أننا كنا نعرف أيضاً أن أفعاله الغريبة كانت تنطوي على عاطفة مكبوتة؛ أنه كان مليئاً بالغضب، ليس أقله منا، وأن نوبات الغضب في شيخوخته لم تكن، جزئياً، سوى نوبات من الأسى

المكتوم. وأظن أن والدي كان غاضباً بدوره من الاتهامات التي يراها ماثلة في اهتياج والده، وأيضاً من نهبه المستمرّ لأشياء البيت. وبروح المسامحة المسيحية المألوفة جداً لدى رجال الدين، وبين الأب وابنه، دفنا اختلافاتهما. بيد أنه يجب القول إنهما لم يدفناها بعمق كاف، وعلى الأرجح كان الأمر أشبه بطمر نار بدلاً من إخمادها.

كانا يتخاطبان معاً بطريقة معينة عندما تكون المرارة القديمة على وشك الظهور.

فيسأله والدي: «هل أسأت إليك بأيّ شكل من الأشكال أيها الموقّر؟».

فيجيبه والده: «لا، أيها الموقّر، أنت لم تسئ إليّ بأي شكل من الأشكال. على الإطلاق».

فتقول والدتي: «والآن، لا تبدآ أنتما الاثنان بالتشاحن».

كانت والدتي شديدة الاعتزاز بدجاجاتها، خاصة بعد رحيل العجوز (الهرم) وكفّه عن نهبها. فقد اختارت هذه الدجاجات بعناية، مما جعلها تزدهر وتمنح البيض بمعدل مذهل بالنسبة إليها. لكن ذات أصيل هبّت عاصفة قوية خلعت سقف قن الدجاج، فخرجت الدجاجات مهتاجة مرفرفة، على نحو ما يفعل الدجاج على ما أظن. وأنا ووالدتي رأينا ذلك يحدث، لأنها حين أحسّت باقتراب المطر نادتني لكي أساعدها على جمع الغسيل عن الحبل.

كانت كارثة شاملة. حين ارتطم السقف بالسياج – وهو مجرد شريط من أشرطة قن الدجاج ثبّت بالمسامير على بعض الأعمدة وكان إلى شباك العنكبوت أقرب – فرّ بعض الدجاج نحو المرجة، وبعضه الآخر إلى الطريق العام، وبعضه الأخير دونما وجهة محدّدة، بل تصرّف كالدجاج فحسب. ثم تدخلت كلاب الجيران وكلابنا أيضاً، ثم هطل المطر مدراراً. ولم نستطع أن نصدّ حتى كلابنا نحن؛ فقط اتخذت بهجتها مسحة من الخزي على كما أذكر، أما بقية الكلاب فلم تعرنا ذلك القدر من الاهتمام. كانت تعيش أفضل أوقات حياتها.

قالت والدتي: «لا أريد مشاهدة هذا». فتبعتها إلى المطبخ وجلسنا هناك نصغي إلى الهرج والمرج والريح والمطر. ثم قالت والدتي: «الغسيل!» الذي كنا قد نسيناه. قالت: «تلك الشراشف لابدّ من أنها تمرغت في الوحل، ما لم تكن قد أوقعت حبل الغسيل برمته». وكان هذا يوم عمل قد ضاع منها، ناهيك عن الدجاجات الهاربة. أغمضت إحدى عينيها ونظرت إليّ وقالت: «أعرف أنه ثمة بركة ما في هذا كله». كانت لدينا عادة محاكاة طريقة العجوز في الكلام أحياناً حين لا يكون معنا في الغرفة. ومع ذلك كنت متفاجئاً من مزاحها الصريح حول جدي، مع أنه كان قد رحل منذ مدّة في ذلك الحين. كانت تحبّ أن تضحكني دائماً.

حين عثر والدي على والده في «ماونت بليزنت»[1] بعيد انتهاء

(1) Mount Pleasant: مدينة في ولاية ميتشيغن.

الحرب[1]، صدم في البداية حين رأى جسامة إصاباته، حتى أنه وقف أمامه عاجزاً عن النطق. فكان أول ما قاله جدي له: «أنا واثق من أنني سأجد بركة كبيرة في ذلك». وهذا ما ظلّ يردّده حيال كل ما أصابه طوال حياته، مما كان يميل إلى أن يكون قاسياً إلى هذا الحدّ أو ذاك. أتذكّر على الأقلّ أنه عاد بمعصمين ملويين وضلع مكسور. وقد قال لي مرة إنه أن يكون المرء مباركاً يعني أن يكون مجروحاً، وهذا صحيح إيثمولوجياً[2]، في الإنجليزية، لكن ليس في اللاتينية أو العبرية. لذا فأي فهم قد يكون قائماً على هذا الاستنتاج لم يكن يتمتع بالمصداقية المستقاة من الكتاب المقدّس. لم يكن من عادته أن يلوي التفسيرات على هذا النحو، لكنه فعل ذلك لكي يقيم اعتباراً لنفسه، على ما أظن، مثل معظمنا.

في أي حال، بدت الفكرة مهمة بالنسبة إليه. كان دائماً يحاول مساعدة أحدهم على توليد عجل أو تشذيب أغصان شجرة، سواء أطلب مساعدته أم لم يطلبها. وكلّ الأسى الذي شعر به كان تجاه البائسين، دون أن يبقي شيئاً من الأسى لنفسه مهما كانت بالغة إصاباته، حتى بدأ أصدقاؤه بالموت تباعاً، على نحو ما جرى في غضون نحو سنتين. ثم بات وحيداً بصورة رهيبة، لا ريب في ذلك. وأظن أن هذا شكّل جزءاً مهماً من فراره إلى كنساس. هذا إضافة إلى الحريق في كنيسة الزنوج. لم يكن حريقاً ضخماً؛ أحدهم كوّم بعض الأعشاب الجافة على الجدار

(1) الأهلية.

(2) Blessed: جذر الكلمة يعود إلى كلمة blood أي دم، وكانت الكلمة تعني أولاً أن «يكون الشيء معلّماً بالدم» في الطقوس الوثنية.

الخلفي للكنيسة وأشعل فيها عود ثقاب، ورأى أحدهم الدخان وأطفأ الحريق بمجرفة (كانت كنيسة الزنوج تقع حيث يقع الآن محل المرطبات، وإن كنت قد سمعت بأنه توقف عن العمل. فقد بيعت هذه الكنيسة قبل سنوات. وما تبقى من الرعية انتقل إلى شيكاغو. في ذلك الوقت كان عددهم نحو ثلاثة أو أربعة عائلات. جاء راعي الأبرشية مع كيس من النبات التي اقتلعها من السلالم الأمامية، لا سيما الزنابق. ظن أنني قد أرغب فيها، وهي لا زالت هناك على واجهة كنيستنا الأمامية، وتحتاج إلى التشذيب. يجب أن أقول للشماسين من أين جاءت، لكي يعرفوا أنها تتمتع ببض الأهمية ويحتفظوا بها حين يجري هدم الكنيسة. لم أكن أعرف راعي أبرشية الهنود جيداً، لكنه قال إن أباه كان يعرف جدي. وقال إنهم آسفون للرحيل، لأن هذه البلدة عنت لهم الكثير في يوم من الأيام).

بدأتَ في الفترة الأخيرة بمصادقة فتى تعرفت إليه في المدرسة، لوثري[1] صغير منمّش يدعى طوبياس، وهو ولد لطيف. صرت تمضي نصف الوقت في منزله، ونظن أن هذا جيداً لك، لكننا أحياناً نشتاق إليك شوقاً رهيباً. وهذه الليلة ستخيم في فناء منزلهم، أي في الشارع المقابل على بعد بضعة منازل فقط. لكن تناول العشاء دونك يبدو شيئاً محزناً.

(1) اللوثرية، فرع كبير من البروتسانتية تعمل بتعاليم الإصلاحي الديني الألماني مارتن لوثر (1483–1546).

عدتَ وطوبياس إلى البيت تجران نفسيكما جراً عند الفجر وفرشتما كيسي النوم على أرض غرفتك ونمتما حتى الظهر (كنتَ قد سمعتَ هريراً بين الأجمات. فطوبياس لديه إخوة). وكانت والدتك قد غفت في الردهة واضعة كتاباً في حجرها. فأعددت لكما شطائر الجبن المحمصة التي أطلت وضعها على النار حتى احترقت قليلاً. وحكيت لكما القصة التي تحبها كثيراً؛ كيف كانت والدتي العجوز المسكينة تغفو على كرسيها الهزّاز أمام موقد المطبخ في حين يتصاعد الدخان يتصاعد من القدر التي تغلي مثل أضحية لم تُقبل، وتناولتما الشطائر ربما بسعادة أكبر بقليل بسبب لكونها محروقة. وقدمت لكما كعكتين صغيرتين بالشوكولا مكسوتين بالكريما البيضاء، والتي اعتدت شراءها لوالدتك لأنها تحبها وتأبى شراءها لنفسها. أشك في أنها حظيت بدقيقة نوم الليلة الفائتة. أما أنا ففاجأت نفسي – فقد نمت نوماً عميقاً، وأفقت من حلم غير مزعج كنت أخوض فيه مع أناس لا أعرفهم نقاشاً لا أذكره. وسررت كثيراً بعودتك إلى البيت.

كنت أفكر في قنّ الدجاج. كان موضعه في الفناء حيث يقع بيت مولر الآن. وكنتُ وبروتون نجلس على سطحه فنطلّ على حدائق الجيران وعلى الحقول. كنا نأخذ معنا الشطائر ونتناول الغداء هناك. لديّ

طوالتان[1] صنعهما إدوارد لنفسه قبل سنوات. كانتا طويلتين جداً إلى درجة كنت أضطر عندها إلى الوقوف على درابزين الشرفة لكي أتمكن من اعتلائهما. وقد جعل بوتون أباه يصنع له طوّالتين، وكانت هذه مصدر تسليتنا خلال كذا صيف. كان علينا البقاء على الطرقات أو حيث الأرض صلبة، لكننا برعنا بالسير بهما في الأرجاء كأنهما رجلان طبيعيتان. كنا نجلس دون عناء على غصن شجرة، ونضطر أحياناً إلى مواجهة إزعاج الدبابير أو البعوض. وقد وقعنا بضع مرات لكن بالإجمال كان الأمر جميلاً. كنا مثل جبّارين في الأرض، مثل فارسين باسلين. ولم نحسب أن ذلك السقف يسهل اقتلاعه كما حدث. كان مغطى بطبقة من القار الأسود، وكان دائماً دافئاً حتى في عز البرد، وأحياناً كنا نضطجع عليه اتقاء للريح. نضطجع هناك ونتكلم فحسب. أذكر أن المخاوف بدأت تنتاب بوتون حينذاك بشأن ندائه الداخلي، كان يخشى من أن هذا النداء لن يأتي، وعندئذ سيضطر إلى أن يسلك مسلكاً آخر في الحياة، ولم يكن بمقدوره التفكير في أي مسلك آخر. فكنا نستعرض الاحتمالات التي تخطر ببالنا، ولم تكن بكثيرة.

كان بوتون بطيء النمو. ثم بعد طفولة قصيرة بات أطول مني وظلّ كذلك طوال أربعين عاماً. أما الآن بعد أن احدودب ظهره فلا أعرف كيف يمكن قياس طوله. قال إن عموده الفقري قد تحوّل إلى مفاصل. قال إنه تحوّل إلى كومة من المفاصل، ولا واحد منها يعمل. لن تتمكّن البتة من أن تتخيّل حاله السابقة إذا ما نظرت إليه الآن. كان دائماً متفوقاً

(1) Stilt: الطوّالة: إحدى رجلين خشبيتين يعدّ المشي بهما ضرباً من البراعة.

في «البايسبول» من المدرسة حتى معهد اللاهوت.

ذكّرته قبل مدة حين كان يقول لي، مستلقياً هناك على السقف ناظراً إلى الغيوم: «ماذا تحسب نفسك فاعلاً إذا رأيتَ ملاكاً؟ سأقول لك ماذا سأفعل، أخشى أن أفرّ من وجهه!». ثم ضحك بوتون العجوز، وقال «لعلي ما زلت راغباً في ذلك... عما قريب سأعرف».

لطالما كنت أطول قامة من معظم الناس، وأضخم جثة أيضاً. وهذه سمة عائلية. فكان الناس يحسبونني – في يفاعتي – أكبر سناً مما أنا عليه حقاً، متوقّعين غالباً المزيد مني – المزيد من التعقّل عادة – مما يدخل ضمن قدراتي حينذاك. فاكتسبت مهارة ادّعاء المزيد من الفهم، وهي مهارة خدمتني جيداً في الحياة. أقول هذا لأنني أريدك أن تفهم أنني لست قديساً بأي شكل من الأشكال، ولا تمكن مقارنة حياتي بحياة جدّي. فقد حصلت على قدر لا أستحقّه من الاحترام. وهذا يبدو غير مؤذ كفاية في معظم الحالات. فالناس يرغبون في احترام راعيهم وأنا لا أتدخّل بهذا الأمر. لكنني طوّرت سمعة عظيمة بوصفي رجلاً حكيماً من خلال طلبي كتباً أكثر مما تسنى لي الوقت يوماً لقراءتها، وقرأت منها أكثر مما تعلمت شيئاً مفيداً، ناهيك طبعاً عن أن بعض الرجال المضجرين حقاً قد ألفوا كتباً، وهذه ليست بالفكرة الجديدة، لكنّ حقيقتها شيء عليك أن تختبره حتى تفهمه بالكامل.

أحمد الرب عليها جميعاً بطبيعة الحال، وعلى تلك الفترة الغريبة التي احتلّت

معظم حياتي، والتي دأبت على القراءة فيها بسبب الوحدة، وفي وقت كانت فيه الرفقة السيئة أفضل بكثير من عدم وجود رفقة على الإطلاق. يمكن أن تحبّ كتاباً رديئاً بسبب حظه أو جسارته أو ادعائه، إذا كانت لديك تلك الشهية الجامحة للأشياء البشرية، التي أتمنى من كل قلبي أن تنجو منها. «النفس الشبعانة تزدري العسل، وللنفس الجائعة كل مرّ حلو»[1]. هناك ملذات تجدها حيث لا تبحث عنها، وقد تكون هذه حكمة أبوية، لكنها أيضاً حقيقة الرب، وهو شيء أعرفه من خبرتي الطويلة في الحياة.

غالباً، حين يرى أحدهم النور مضاء في حجرة مكتبي في وقت متأخر من الليل، ما يعني ذلك أنني أنني غفوت على مقعدي فحسب. وبالتالي، فإن سمعتي هي إلى حدّ كبير من خلق المخيلة المحبّة لأبناء رعيتي، الذين لم أختر أن أبدّد لهم أوهامهم، جزئياً بسبب اشتمال الحقيقة على نوع من العاطفة التي تتسبّب بمشاعر الشفقة بأقلّ أشكالها احتمالاً. حسناً، لقد كانت حياتي — في جميع نواحيها المهمة —معلومة منهم جميعاً، وقد كانوا متفهّمين لها. وقد أمضيت شطراً كبيراً من حياتي مؤاسياً البائسين، لكنني لم احتمل يوماً فكرة أن يؤاسيني أحد، ما عدا العجوز بوتون العجوز الذي لطالما امتلك من الحصافة ما يجعله لا يكثر من الكلام. لقد كان صديقاً رائعاً لي في تلك الأيام، وكان عوناً كبيراً. أتمنى أن تتكون لديك فكرة جيدة عن مدى روعة هذا الرجل في شبابه. كانت عظاته رائعة لكنه لم يدوّنها يوماً، ولم يحتفظ قطّ بملحوظاته، فاختفت كلها. أتذكر عبارة من هنا أو هناك. وأفكر

(1) سفر الأمثال، 27: 7.

يومياً بالعودة إلى عظاتي القديمة لأرى إذا كان هناك عظة أو اثنتان قد ترغب في قراءتهما يوماً ما، لكن هناك الكثير منها، وأخشى قبل كل شيء أن أجد معظمها أحمق أو بليداً. قد يكون من الأفضل أن أحرقها جميعاً، لكن هذا سيسوء والدتك التي تقدّرها أكثر بكثير مما أفعل؛ ربما فقط بسبب ضخامة حجمها بما أنها لم تقرأها. لعلك لن تتذكّر من العلية سوى أن الدرج المؤدّي إليها هو إلى السلّم الخشبي أقرب، وأنها شديدة القيظ عندما لا تكون شديدة البرد.

قد يكون مهلكاً لي أن أحاول إنزال هذه الصناديق بنفسي. ومن المذلّ أن أكون قد كتبت قدر ما كتب أوغسطين، ثم أن أضطر إلى إيجاد وسيلة للتخلص منه. ليس من كلمة في تلك العظات لم أقصدها حين كتبتها. ولو تسنى لي الوقت لقرأت خمسين سنة من حياتي البريئة. يا للفكرة الرهيبة! فإن لم أحرقها سيفعل سواي يوماً ما، وهذا إذلال آخر. إن عادة الكتابة هذه متجذرة في داخلي، كما ستعرف جيداً إذا وصلت هذه الرسالة اللا نهائية إلى يديك، في حال لم تضع أو تحرق أيضاً.

أحسب أنه من الطبيعيّ أن تشغل تلك الصناديق القديمة بالي. فهي سجلّ حياتي في نهاية المطاف، نوع من الترقّب ليوم القيامة، فكيف يمكنني ألا أشعر بالفضول تجاهها؟ فقد كنت راعياً للنفوس، المئات منها على مرّ السنوات، وآمل أنني بعظاتي تلك كنت أخاطبهم هم، لا نفسي فحسب مثلما أشعر أحياناً حين أراجع حياتي. ما زلت أصحو في غمار الليل، مفكراً كان يجدر بي قول هذا أو ذاك ما عناه! متذكراً أحاديث أجريتها مع أناس قبل سنوات، بعضهم رحل عن عالمنا منذ

زمن طويل وتجاوز فكرة أن أصوّب الأمور معه. ثم أتساءل أين كان اهتمامي الحقيقي منصباً. إذا كان هذا هو السؤال حتى.

ثمة موعظة ليست في الصناديق. موعظة أحرقتها في الليلة السابقة لتلاوتي لها. هذه الأيام ما عاد يذكرون كثيراً «الإنفلونزا الإسبانية»[1]، لكنها كانت جائحة رهيبة انتشرت في خضم الحرب الكبرى، في بداية تورطنا فيها[2]. وقد أزهقت هذه الإنفلونزا أرواح آلاف الجنود؛ جنود أصحّاء في ريعان شبابهم، ثم انتشرت إلى سائر المواطنين. كانت أشبه بالحرب، بل كانت حرباً. لم تتوقّف الجنازات هنا في آيوا. وخسرنا الكثير من الشباب وصرنا نرتحل بكثرة. صار الناس يأتون إلى الكنيسة واضعين الكمّامات – هذا إذا أتوا أصلاً – ويجلسون متباعدين قدر المستطاع عن بعضهم بعضاً. وشاع بين الناس أن الألمان تسببوا بنشرها عبر سلاح سرّي ما، وأظن أنهم رغبوا في تصديق ذلك، لأن هذا وفّر عليهم التفكير في معانيها الأخرى.

(1) Spanish Influenza أو Flu Pandemic: جائحة الانفلونزا التي امتدت من مارس من العام 1918 وحتى يونيو 1920، وكانت وباء عالمياً بامتياز إذ قضى بسببها ما بين خمسين ومئة مليون إنسان، ولم تفرّق بين الشباب المتعافي وكبار السن أو الأطفال، وقد اشتهرت خطأ باسم الأنفلونزا الإسبانية لأن إسبانيا كانت البلد الوحيد الذي لم يمارس الرقابة حول أخبار الإصابة بها، مما ولّد انطباعاً بأنها نشأت وانتشرت هناك حصراً، علماً أنها انتشرت في أمريكا وعدد من البلدان الأوروبية قبل مدة طويلة من وصولها إلى إسبانيا.

(2) دخلت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب العالمية الأولى عام 1917 بإعلانها الحرب على ألمانيا.

كان يقصدني أهل أولئك الجنود الشبان ويسألونني كيف يسمح الرب بحدوث مثل هذا الشيء. وكانت تحدوني رغبة في سؤالهم ما شأن الرب بأن يخبرنا بأنه لم يسمح بشيء. لكنني كنت أؤاسيهم بالقول إننا لن نعرف البتة ما الذي ارتاح منه أولادهم بالموت هكذا، فيفهمون أن أولادهم نجوا من الخنادق والموت بالغازات، لكن ما عنيته حقاً أنهم نجوا من ممارسة القتل. كان الأمر تماماً مثل جائحة من الجوائح التي وردت في الكتاب المقدس. فكّرت عندئذ بسنحاريب[1].

كان مرضاً غريباً – رأيته هناك في «فورت رايلي». كان أولئك الفتية غارقين بدمائهم، غير قادرين حتى على النطق بسبب امتلاء حلوقهم وأفواههم بالدم. وكانوا يموتون بأعداد كبيرة جداً فلم يكن ثمة متسع لدفنهم فراكموا الجثث فوق بعضها بعضاً في الفناء. وذهبت إلى هناك للمساعدة، ورأيت الوباء رأي العين، فقد جنّدوا جميع الشبان من الجامعات، ثم انتشر الوباء بصورة بالغة السوء إلى درجة اضطروا عندها إلى إقفال المكان وملأوه بالأسرّة النقالة، وكان هناك موت رهيب، هنا في آيوا. الآن، إذا لم تكن هذه الأمور إشارات فلا اعرف ما هي الإشارات. فكتبت موعظة عن ذلك، قلت فيها أو قصدت أن أقول إن هذا الموت ينقذ الشبان الطائشين من عواقب جهلهم واندفاعهم، وإن الربّ يحصد أرواحهم قبل أن يمضوا ويرتكبوا الجرائم ضدّ إخوتهم.

(1) سنحاريب (704– 682 ق.م): ملك آشور، الإشارة هنا إلى الواقعة المذكورة في التوراة حول محاصرة جيش الآشوريين بقيادة سنحاريب لأورشليم والغضب الذي انزله به الرب بسبب سخريته منه في رسائله إلى حزقيا، فأزهق أرواح 185 ألفاً من جنوده في ليلة واحدة.

وقلت إن موتهم هو إشارة ونذير لبقيتنا بأن الرغبة في الحرب ستجلب عواقب الحرب، لأنه ليس من محيط كبير كفاية لكي يحميهم من حكم الرب حين نقرّر تحويل محاريثنا إلى سيوف وآلات تشذيب الزرع إلى حِراب، مزدرين إرادة الرب وعظمته.

أظن أنها كانت عظة رائعة. فكرت حين كتبتها كم سيكون والدي مسروراً بها. لكن شجاعتي خذلتني لأنني عرفت أن الأناس الوحيدين الذين سيكونون موجودين في الكنيسة ليسوا إلا بعض النسوة العجائز ممن كنّ أكثر حزناً وهمّاً مما يمكنهن الاحتمال، وممن لا يؤيدن الحرب أكثر مني، واللواتي كنّ يحضرن العظة على الرغم من أنني قد أكون ناقلاً للعدوى. فشعرت أنه من السخف أن أتخيل نفسي متوعّداً من المنبر في ظلّ تلك الظروف، فألقيت تلك العظة في الموقد ووعظت أمثولة الشاة الضائعة. أتمنى لو أنني احتفظت بها، لأنني عنيت كلّ كلمة فيها. وقد تكون العظة الوحيدة التي لا أمانع الإجابة عنها في الآخرة. ومع ذلك أحرقتها. لكنّ ميرابيل ميرسير لم تكن بيلاطس البنطي[1] أو وودرو ويلسون[2].

أفكر الآن كم كنت ستحسبني شجاعاً لو أنك وجدتها بين أوراقي وقرأتها. من الصعب فهم زمن آخر. لم تكن لتتخيل صحن الكنيسة وهو فارغ إلا من بضع نسوة متشحات بالخمر الثقيلة لإخفاء الكمامات التي

(1) بيلاطس البنطي: ولد في العام العاشر قبل الميلاد، وبحسب الأناجيل الأربعة فهو الحاكم الروماني الذي تولى محاكمة المسيح وصادق على الحكم بصلبه.

(2) وودرو ويلسون (1856–1924): الرئيس الثامن والعشرون للولايات المتحدة الأمريكية، حكم بين 1913 و1921.

يضعنها، ورجلين أو ثلاثة. وكنت أعظ واضعاً وشاحاً حول فمي طوال أكثر من سنة. وكانت تفوح من الجميع رائحة البصل، بعد أن أشيع أنه يقتل جراثيم الأنفلونزا، وكانوا يفركون أجسادهم بوريقات التبغ.

كان هناك براميل موضوعة على نواصي الشوارع لكي نرمي فيها نوى الخوخ مساهمة في المجهود الحربي. فقد قيل لنا إن الجيش يحوّل هذه النواة إلى فحم من أجل المرشّحات في أقنعة الغاز، وكانت المئات منها تصنّع مرشّح واحد فقط. فكنا جميعاً نتناول الخوخ من باب الوطنية، مما جعل طعمه مختلفاً بعض الشيء. وقد امتلأت المجلات بصور جنود يضعون الأقنعة الواقية ويبدون أغرب مما نبدو نحن. كان زمناً غريباً.

اعتبر معظم الشبان حينذاك الانخراط في الحرب من باب الشجاعة، وربما تكون قد حدثت – منذ كتابتي هذه الرسالة – حروب جديدة يعد الانخراط فيها من باب الشجاعة. ولا شك لديّ في أنّ مثل هذه الحروب سيقع. أظن أن ذلك الوباء كان إشارة كبيرة لنا لكننا رفضنا رؤيتها وفهم معناها، ومنذ ذلك الوقت لم تتوقف الحروب.

لست واثقاً كلياً من أنني أصدّق بالكامل ما قد قلته تواً. كان بوتون ليقول: «هذا الواعظ يتكلم». وهذا صحيح بما فيه الكفاية، لكنني لا أعرف ما الذي يعنيه.

دام عصر ظلامي الخاص – زمن وحدتي – معظم حياتي، كما قلت، ولا أستطيع التكلم بالكامل عن نفسي دون الإتيان على ذكر هذا العصر. كان الوقت يمرّ بغرابة شديدة، وكأنّ كل شتاء هو الشتاء نفسه، وكذلك كلّ ربيع. وكان هناك «البيسبول». وأظن أنني استمعت إلى آلاف المباريات[1]. أحياناً كنت أتمكن من تخيّل نصف مناورة، ثم يسود وشيش الراديو، ثم يهدر الجمهور في صوت صغير مسطح، أشبه بالشواش بدوره، مثل ذلك الصوت الفارغ في محارة. وكنت أشعر بالسرور لتخيلها، مثل حلّ أحجية مزعجة في عقلي، أو تفكيك حركة كوكبية ما. إذا كانت الطابة تندفع نحو الملعب الأيسر وهناك راكضون في القاعدتين الأولى والثالثة[2]، عندئذ يتحرك الراكضون ولاقط الكرات ولاعب الوسط، في مخيلتي. كنت أحبّ فعل هذا، ولا أستطيع أن أشرح السبب.

وأتذكّر مناقشات كنت أخوضها على نحو مماثل. كان جزء كبير من عملي يقتضي مني الاستماع إلى الناس، في خصوصية الاعتراف الكثيفة تلك، أو على الأقلّ خلال الإفضاء بالهموم، وكان ذلك يثير اهتمامي كثيراً. ولا أقصد أنني كنت أفكر بهذه المناقشات كمباريات. لكن كما تنظر إلى مباراة ما بطريقة أكثر تجريدية؛ أين مكمن القوة، ما هي الاستراتيجية؟ كأن كلّ اهتمامك بها منصبّاً على رؤية كيف يتفاعل

(1) عبر المذياع.

(2) هناك في ملعب البايسبول أو كرة القاعدة أربعة قواعد، وعلى اللاعبين أن يركضوا بين تلك القواعد بشرط أن يدوسوا على تلك القواعد لتسجيل نقطة.

اللاعبان مع بعضهما، وما يدفعان بعضهما إلى فعله، وكيف أن الحياة التي هي الموضوع الفعلي للأمر تنعكس في ذلك. وأعني بـ «الحياة» شيئاً مثل «الطاقة» (على نحو ما يستعملها العلماء) أو «الحيوية»، وأعني أيضاً شيئاً شديد الاختلاف. حين يقصدني الناس لكي يتكلموا إليّ، وأياً كان ما يقولونه، يذهلني دائماً ذلك التوهّج فيهم، ضمير المتكلم «أنا» الذي يمكن أن يعزى إلى «الحب» أو «الخوف» أو «الحاجة» والذي يمكن أن يكون موضوعه «»أحدهم» أو «لاشيء» ولا يكون ذلك مهماً حقاً، لأن المحبة هي في هذا الحضور فحسب، متشكلة حول «أنا» مثل ذؤابة شمعة تتغذى شعلتها من الأسى أو الإحساس بالذنب والفرح أو أيّ شعور آخر، لكنه شعور سريع وحاد وحيوي. ورؤية هذا الجانب من الحياة هي امتياز للقسّ نادراً ما يؤتى على ذكره.

تشكّل العظة الجيدة جانباً من محادثة شغوفة. ويجب أن تسمع على هذا النحو. هناك ثلاثة أفرقاء مضطلعون بها طبعاً، ولكن هكذا هي الحال حتى في أكثر الأفكار خصوصية؛ الذات التي تنتج الفكر، والذات التي تدرك وتجيب الفكر على نحو ما، والرب. وهذا أمر مذهل إذا فكرنا به.

أحاول وصف ما لم أصفه قبلاً بالكلمات. ولعلّي جعلت نفسي مضجراً بعض الشيء في سعيي هذا.

كان ذات يوم وأنا أستمع إلى إحدى المباريات أن خطر لي أن القمر يتحرّك فعلياً بطريقة لولبية، لأنه بينما يدور حول الأرض فهو يتبع أيضاً مدار الأرض حول الشمس. وهذا أمر واضح، لكن إدراكه أسرني.

كان القمر مكتملاً خارج النافذة، أبيض بارداً في سماء زرقاء، وكانت المباراة بيم فريقي «الكوبز»[1] و«سينسيناتي».

يذكّرني ذكر صوت المحارة بسطرين من قصيدة كتبتها يوماً:

افتح محارة الأذن وجد الكلمات
الكامنة وراء الوشوشة الكهنوتية.

سوى هذين السطرين ليس في هذه القصيدة ما يستحق تذكّره. أحد أبناء بوتون سافر إلى البحر المتوسط لسبب ما، وأرسل محارة كبيرة لطالما أبقيتها على مكتبي. لقد أحببت كلمة «وشوشة» منذ زمن بعيد، ولم أجد استعمالاً آخر لها. إلى ذلك، فما الذي كنت أعرفه في تلك الأيام سوى نصوص الكهانة والشواش وأيّ شيء آخر كنت أحبّ؟ كان هناك كتاب أقبل كثيرون على قراءته في ذلك الوقت وهو «يوميات كاهن ريفي»[2] وقد ألفه كاتب فرنسي يدعى برنانوس. شعرت بالكثير من التعاطف معه، لكن بوتون قال «كان الشراب. كان الرب بحاجة

(1) المقصود فريق Chicago Cups للبيسبول.

(2) رواية فرنسية Journal d'un curé de campagne لجورج برنانوس، نشرت عام 1937 وحولها روبرت بريسون فيلماً سينمائياً عام 1951. وما تأتي الكاتبة على ذكره على لسان بوتون عن الشراب يستند إلى أن القس الشاب، بطل الرواية، كان يعيش على الخبز والنبيذ فقط.

ببساطة إلى شخص مناسب أكثر منه لشغل ذلك الموقع». أتذكر قراءتي هذا الكتاب طوال الليل قرب المذياع حتى انطفأت كل المحطات وكنت ما زلت أقرأه حين أشرقت الشمس.

مرة أخذني جدي إلى «دي موان»[1] على متن القطار لكي نشاهد مباراة يلعب فيها باد فاولر[2]. وكان مع فريق «كيوكاك» لموسم أو اثنين. وقد ثبتني العجوز (الهرم) بعينه تلك وقال لي إنه ليس في هذه الأرض المستديرة من يمكنه أن يهزم باد فاولر أو يفوقه سرعة ومهارة. كنت في غاية الشوق لمشاهدة المباراة. لكنّ شيئاً لم يحدث في تلك المباراة أو هذا ما ظننته وقتذاك. لا جري ولا ضربات ولا أخطاء. وخلال الجولة الخامسة نشأت عاصفة رعدية كانت جاثمة طول فترة العصر في الأفق وتسبّبت بإنهاء المباراة. أتذكر الصياح الذي تعالى من الجمهور حين بدأ وابل المطر. كنت في العاشرة وقتذاك وشعرت بالراحة، لكنه كان أمراً محبطاً جداً لجدي. إحباط آخر رهيب يعاني منه الشيطان المسكين الطاعن في السن. أقول هذا بكلّ احترام. فحتى والداي كانا يسميانه كذلك؛ فقد عينه تلك في الحرب، وكان مظهره شرساً إلى حدّ ما. لكنه كان واعظاً جيداً وفقاً لنمط جيله، هذا ما قاله والدي.

في ذلك اليوم اشترى كيساً صغيراً من حلوى عرق السوس، وهو الأمر الذي فاجأني حقاً. وكلما وضع أصابعه في الكيس، كانت يده

(1) Des Moines: هي عاصمة ولاية آيوا وكبرى مدنها.

(2) Bud Fowler (1858– 1913): اسمه الأصلي جون جاكسون، كان لاعب بايسبول معروف، وهو أول لاعب أمريكي مشهور من أصول أفريقية.

المرتعشة تصدر صوتاً مقعقعاً، وكان الصوت أشبه بصوت النار. لاحظت ذلك عندئذ، وبدا طبيعياً لي. كما أنني افترضت إلى حدّ ما أن العاصفة والرعد في ذلك اليوم هما الكون يلوح له بقبعته، كأنه يقول له إنني مسرور لرؤيتك هنا في منصة المتفرجين أيها الموقّر. أو ربما كان ما يقوله، عجباً أيها المبجّل، ماذا بحق هذا العالم البائس تفعل هنا في مباراة رياضية[1]؟ قالت والدتي مرة إنه كان يجذب صداقات رهيبة - مستعملة «رهيبة» بالمعنى القديم بالطبع، قاصدة الاحترام فحسب. وقد تعرف في شبابه على جون براون[2]، وجيم لاين[3] أيضاً. أتمنى لو بوسعي إخبارك المزيد عن هذا. كان هناك نوع من العهد في منزلنا لا يحبّذ الإتيان على ذكر الأزمنة القديمة في كنساس أو الحرب. لم يمض وقت طويل بعد رحلة «دي موان» تلك حتى فقدناه، أو حتى فقد نفسه. في أي حال، بعد بضعة أسابيع انطلق في رحلته إلى كنساس.

قرأت في مكان ما أن شيئاً ما لا يكون موجوداً في صلته بشيء

(1) Terrible: من معانيها القديمة بالإنجليزية «الموقّر» أو «المحترم»، لكن هذا الاستعمال لم يعد دارجاً.

(2) John Brown (1800–1859): أحد أبرز المدافعين عن إلغاء العبودية، وكان مؤيداً للنهج العنفي في الردّ على الجنوبيين المناهضين لإلغاء العبودية، وقد قاد ما يعرف باسم «مجزرة بوتاواتومي» في كنساس حيث أقدم عام 1859 مع مجموعة من رفاقه على قتل خمسة من مؤيدي العبودية، في حادثة تعدّ الأكثر دموية قبل نشوب الحرب الأهلية وتعدّ من أسباب نشوب هذه الحرب. بعد إدانة براون بمقتل هؤلاء الخمسة أعدم شنقاً، وهو يعدّ أكثر شخصية أمريكية مثيرة للجدل في القرن التاسع عشر. وسوف يكشف سياق الرواية لاحقاً عن سبب ذكر صلة الجد بهذا الرجل.

(3) James Lane (1814–1866): سيناتور أمريكي وجنرال في جيش الاتحاد، كان من رموز حركة إلغاء العبودية في كنساس.

آخر، لا يمكن أن يكون موجوداً بذاته. لا أجد معنى في كلام افتراضي إلى هذا الحدّ، وإن كنت ربما أفتقر ببساطة إلى الفهم. لكن هذا الكلام يذكرني بتلك العصرية حين لم تحلق الكرات في الهواء ولا أحد ركض أو انزلق أو سجّل أهدافاً أو ناول كرات، حين لم يكن هنالك أي رقص «فالس» على الإطلاق إذا شئنا القول. أشعر أن العاصفة كان يجب أن تضع حداً للمباراة، كأنها نار ينبغي إخمادها، في اختراق لمثل هذا العالم من البطلان[1]. «كان ثمة صمت في السماء لنحو نصف ساعة»[2]، يبدو الأمر شيئاً من هذا القبيل مثلما أتذكره، وإن استمر الأمر لأكثر من نصف ساعة. البطلان. هذه الكلمة تتمتع بقوة حقيقية. لم يكن لجدي أيّ مكان ينفق فيه شجاعته، ولا طريقة ليحسّها في نفسه. وكان هذا مصدر أسى كبير.

بينما أكتب أدرك أن ذاكرتي قد صنعت الكثير من القليل جداً. كان هنالك ذلك الرجل المسنّ جدي جالساً قربي بمعطفه الرماديّ يرتعش فقط لأنه كان يرتعش، مشاركاً مسرات عرق السوس المتقشفة ربما مع كنساس التي تحوّلت على نحو ما – في عقله – من ذكرى إلى مقصد عصر ذلك اليوم بالذات. (فهو عاد إلى كنساس لا إلى البلدة التي تقع فيها كنيسته. ولهذا السبب احتجنا طويلاً لكي نعثر عليه). وقف باد فاولر في القاعدة الثانية واضعاً قفازه على وركه مشاهداً لاقط الكرات. أعرف أنه كان يحبّ اللعب دون قفاز، لكن هذا ما أذكره، وهذا كلّ

(1) Null: انعدام الوجود أو الفراغ أو البطلان.

(2) سفر الرؤيا، 8: 1، «ولما فتح الختم السابع حدث سكوت في السماء لنحو نصف ساعة».

ما أمكنني تذكره عنه، لذا لا جدوى من محاولة تصويب الذاكرة. وقد تتبعت مساره المهني في الصحيفة لسنوات، حتى أنشأوا «اتحادات الزنوج»[1]، ثم فقدت أثره نوعاً ما.

كنت لاقط كرات معقول في الثانوية والكلية وكان لدينا فريقان في معد اللاهوت. وقد اعتدنا اللعب في أيام السبت، على ملعب مغطى بالعشب تصعب فيه رؤية خطوط القواعد. لكننا أمضينا أوقاتاً حلوة. كان هناك شبان رائعون يدرسون الكهنوت في تلك الأيام. وأنا واثق من أن هناك مثلهم هذه الأيام.

بينما مشيت ووالدي على الطريق في الجو الهادئ تحت ضوء القمر، بعيداً من المقبرة حيث وجدنا قبر جدي، قال لي: «أتعرف، جميع من في كنساس رأوا نفس ما رأيناه». في ذلك الوقت حسبته يعني (تذكر أنني كنت في الثانية عشرة) أن الولاية برمتها شهدت معجزتنا. ظننت أن الولاية برمتها شهدت تلك البركة المخصوصة التي جلبها والدي بالصلاة هناك على قبر والده، أو النعمة التي ولّدها جدي من مرقده القائظ. لاحقاً لاحظت أن والدي ربما يكون عنى أن الشمس والقمر قد تناغما مع بعضهما على نحو ما فعلا دون أي إشارة إلينا نحن الاثنين. فهو لم يكن يحبّذ أي كلام عن الرؤى أو المعجزات، باستثناء

(1) Negro Leagues: مجموعة من اتحادات فرق البايسبول التي تتشكّل من اللاعبين السود بصورة أساسية، وقد نشأت عام 1920.

تلك المذكورة في الكتاب المقدّس.

لا يمكنني أن أقول لك كيف شعرت، ماشياً بجانبه تلك الليلة، على تلك الطريق المحفّرة، عبر ذلك العالم الفارغ - يا للقوة العذبة التي شعرت بها، فيه، وفي نفسي، ومن حولنا. وأشعر بالسعادة لأنني لم أفهم، لأنني نادراً ما عشت فرحاً كذاك الفرح، ولا طمأنينة كتلك الطمأنينة. كان مثل واحد من تلك الأحلام التي تكون عندها ممتلئاً بإحساس غامر قد لا تعيشه في الحياة الحقيقة، بصرف النظر عما هو هذا الشعور، حتى الشعور بالذنب أو الخوف؛ وتعلم منه أي آلة مدهشة أنت، على سبيل المجاز، أي قوة تمتلكها لكي تختبر أبعد من أي شيء قد تحتاج إليه فعلياً. من فكر أن القمر يمكنه أن يشع ويتوهّج على هذا الشكل؟ على الرغم من ما قاله، تبيّنت أن والدي كان يرتعش بعض الشيء. وكان عليه أن يتوقّف ويمسح عينيه.

روى لي جدي ذات مرة رؤيا راودته حين كان لا يزال يعيش في «ماين» ولم يكن قد بلغ بعد السادسة عشرة. حدث أن غفا قرب النار، منهكاً من العمل طوال اليوم في مساعدة والده على اقتلاع جذول الشجر. لمس أحدهم كتفه، وحين رفع رأسه رأى الرب ماداً ذراعيه المقيدين بالسلاسل نحوه. قال جدي: «كانت تلك السلاسل محفورة حتى عظامه». أخبرني ذلك بوصفه الواقعة الأشدّ حزناً، وحملق بي بعينه

السيرافية[1] الواحدة، وذلك الحزن القديم ما زال مقيماً فيها. قال إنه علم وقتذاك أنه عليه الذهاب إلى كنساس وأن يجعل من نفسه إنساساً مفيداً في خدمة قضية إلغاء العبودية. أن يكونوا مفيدين هو أقصى ما يرجوه الطاعنون في السن لأنفسهم، وأن يكونوا بلا هدف هو أسوأ مخاوفهم. وأنا أكنّ الاحترام الكثير لهذه النظرة. حين تكلمت مع والدي عن الرؤيا التي وصفها لي جدي، أومأ برأسه فحسب وقال «كانت تلك الأزمنة». هو نفسه لم يزعم تجربة كهذه، وبدا أنه يريد أن يطمئنني من ألا أخاف من أن الرب سيزورني أيضاً مع آلامه. وقد شعرت بالمؤاساة حينذاك. وهذا أمر رائع التفكير به.

شعرت أن جدي مبتلى ومنكوب، وبكل تأكيد كان كذلك، مثل رجل ضربته صاعقة أبدية، إذ كانت ثيابه مغطاة بالرماد وشعره منكوشاً دوماً وفي عينيه نوع من النذير المأساوي حين لا يكون نائماً بالفعل. كان أكثر الناس الذي عرفتهم اضطراباً، باستثناء بعض أصدقائه. وقد ظلوا جميعاً يجلسون مقرفصين على أعقابهم وذلك من باب التفضيل، وكأنهم حاقدون على الأثاث. لم يكن من لحم عليهم على الإطلاق. كانوا مثل الأنبياء العبرانيون يعيشون نوعاً من التقاعد غير المرغوب فيه، أو مثل الكنيسة الأولى التي تنتظر الحسم في جنس الملائكة. كان ثمة حرق في اليد التي يعمّد ويبارك بها أحد أولئك الهرمين لأنه أمسك ماسورة

(1) Seraph: السيرافيم أو السيراف، في الكتاب المقدّس يصفهم إشعياء النبي بأنهم فئة من الملائكة، لكل واحد منهم ستة أجنحة، باثنين يغطي وجهه، وباثنين يغطي رجليه، وباثنين يطير»، علماً أن الملائكة بالمعنى المعروف مذكورة في الكتاب المقدس اشتقاقاً من الكلمة العربية نفسها أي الملاك.

بندقية أحد مقاتلي الميليشيا بها. كان يقول: «حسبت أن هذا الولد لا يريد أن يطلق الرصاص عليّ، كان أصغر بخمس سنوات من أن ينبت له شارب. كان يجدر أن يكون في أحضان أمه. فقلت له فقط أعطني هذا الشيء وفعل ذلك وقد لاحت على وجهه ابتسامة شامتة بعض الشيء، ولم أستطع نزع البندقية من يدي- فكرت أن هذه قد تكون المزحة - ولا استطعت نقلها إلى اليد الأخرى لأن تلك الذراع كانت مربوطة بحزام البندقية. فمشيت بها فحسب».

لقد ذهبوا إلى «لاين» و«أوبرلين»[1]، وأجادوا العبرية واللاتينية وحفظوا لوك[2] وميلتون[3]. حتى أن بعضهم أنشأ معهداً صغيراً جميلاً في «طابور» استمرّ مدةً من الزمن. وأولئك الذين تخرّجوا فيها، لاسيما الشابات منهم، ذهبوا إلى الطرف الآخر من الكرة الأرضية كمعلمين وإرساليين وعادوا بعد عقود من الزمن لكي يخبرونا عن تركيا وكوريا. لكن معظمهم مع ذلك كانوا عجائز رائعين. كان الأمر الأكثر طبيعية في العالم أن يبدو قبر جدي مثل مكان حاول أحدهم أن يخمد فيه ناراً.

(1) مدينتين في كنساس، إحداهما، لاين، سميت على اسم الجنرال المؤيد لإلغاء العبودية المذكور سابقاً. والأرجح أن المقصود بذكر هاتين المدينتين المعارك التي خاضها هؤلاء الرجال هناك، إذ لم أجد في تاريخ هاتين المدينتين وهما في الواقع بلدتين صغيرتين ما يدلّ على أيّ معنى غير هذا.

(2) John Locke (1632– 1704): فيلسوف تجريبي ومفكر سياسي إنجليزي.

(3) John Milton (1608–1674): الشاعر الإنجليزي المعروف.

كنت أستمع تواً إلى أغنية في المذياع، واقفاً هناك، ومتمايلاً بعض الشيء على إيقاعها لأن والدتك رأتني من الرواق وقالت «يمكنني أن أريك كيف تفعل هذا». جاءت وأحاطتني بذراعيها وألقت رأسها على كتفي، وبعد مدة قالت، بأرقّ صوت يمكنك تخيّله: «لماذا كان يجب أن تكون مسّناً إلى هذا الحدّ؟».
وأنا أطرح السؤال ذاته على نفسي.

قبل بضعة أيام عدتَ ووالدتك إلى البيت تحملان الزهور. عرفت أين كنتما. بالطبع تأخذك إلى هناك فوق، لكي تعوّدك قليلاً على المكان. وقد سمعت أنها جعلته مكاناً رائعاً أيضاً. إنها امرأة مدبّرة. كان معكما صريمة الجدي[1] وأريتماني كيفية امتصاص الرحيق من البراعم. كنت تقضم رأس الزهرة المستدقّ وتناولها لي، وادّعيت أنني لا أعرف كيف أفعل ذلك، واضعاً الزهرة برمتها في فمي، مدعياً أنني أمضغها وأبتلعها، أو أنها صفارة صغيرة أحاول النفخ فيها، وأنت تضحك وتضحك وتقول لا! لا! لا! ثم ادّعيت أن ثمة نحلة تطنّ في فمي وقلت «لا، لم يكن هناك أيّ نحل!». وأمسكتك من كتفيك ونفخت في أذنك وقفزتَ كأنما هناك بالفعل نحلة، وضحكت، ثم صرت جدياً وقلت «أريدك أن تفعل هذا» ثم وضعت يدك على وجنتي وجعلت

(1) Honeysukle: أو نبتة سلطان الجبل، وهي نبتة ذات أريج غنية بالأزاهير، ويقال إن من يراها أو يجمعها يكون حظه حسناً في الحياة.

الزهرة تلامس شفتي برقة وحرص وقلت «الآن امتص، يجب أن تأخذ دواءك». وهكذا فعلت، وكان طعمها كصريمة الجدي، تماماً كما كنت أفعل عندما كنت بمثل سنك وكانت تنبت على كلّ سياج ودرابزين شرفة في جميع الأرجاء.

أدهشتني الطريقة التي تحسستُ بها الضوء عصر ذلك اليوم. لطالما أوليت عنايتي للضوء، لكن لا أحد يمكنه أن يبدأ بفعل ذلك جيداً. كان ثمة شعور بثقل ضوئي يُخرج الرطوبة من العشب، ورائحة النسغ القديم العفن من ألواح الأرضية على الشرفة، ويثقل حتى الأشجار قليلاً مثلما يفعل الثلج. كان من نوع الضوء الذي يستلقي على كتفيك مثلما تستلقي قطة في حضنك. ضوء بالغ الإلفة. كانت «سوبي» العجوز مضطجعة في الشمس بلصق الرصيف. تتذكّر «سوبي». لا أعرف حقاً لماذا يجدر بك تذكرها. فهي حيوان غير مميز البتة. سوف ألتقط لها بعض الصور الفوتوغرافية من أجلك.

إذن، ظللنا نمتصّ صريمة الجدي حتى وقت العشاء، وأحضرت والدتك الكاميرا، فلعلّك تحصل على بعض الصور. وقد نفد الفيلم قبل أن أصوّرها. وهذا أمر اعتيادي. أحياناً إذا حاولت أن أصوّرها تخبّئ وجهها بيديها، أو تخرج من الغرفة. لا تعتقد أنها امرأة جميلة. ولا أعرف من أين استقت هذه الأفكار عن نفسها، ولا أظنني سأعرف يوماً. أحياناً أتساءل لماذا تزوجت رجلاً متقدّماً في السّن مثلي. لم أكن

لأجروْ على ذلك. كانت تلك فكرتها. غالباً ما أذكّر نفسي بهذا. وهي تذكّرني به أيضاً.

لم أحسب يوماً أنه ستكون لي زوجة تخصني وتحنو بشغف على طفل من صلبي. وما زال هذا يذهلني كلما فكرت به. أذكر لك هذا جزئياً لكي أقول لك إنك إذا ما تساءلت يوماً عما فعلته بحياتك - والجميع يطرح على نفسه هذا السؤال آجلاً أم عاجلاً - فقد كنت فضل الله عليّ، معجزة، شيئاً أكثر من معجزة. قد لا تتذكّرني جيداً البتة، وقد يبدو لك أمراً غير مهم أنك كنت الطفل الرائع لرجل هرم يعيش في بلدة قديمة مغبرة ستتركها خلفك دون ريب. فقط لو كنت أملك الكلمات لكي أصف لك مشاعري.

ثمة وميض على شعر الطفل في نور الشمس. هناك ألوان قوس قزح فيه، أشعة صغيرة رقيقة من اللون نفسه الذي تجده في الندى أحياناً. تجده في براعم الزهور، وعلى جلد الطفل. شعرك ناعم داكن وجلدك شديد البياض. أظن أنك لست أوسم من معظم الأطفال. لكنك فتى حسن الطلعة فحسب، على شيء من النحول، حسن السلوك والهيئة. كل هذا حسن، لكنه وجودك ما أحبك من أجله بصورة أساسية. يبدو لي الوجود الآن أكثر الأمور روعة التي أستطيع تخيّلها، وأنا موشك

على العبور إلى دار البقاء، في برهة، في رفة عين.

رفة العين. هذا هو التعبير الأروع. لطالما حسبته أروع ما في الوجود، ذلك التوهّج الذي تراه في الناس حين يصيبهم سحر شيء ما، أو طرافته. «نور العينين يفرح القلب»(1). إنها الحقيقة.

بينما تقرأ رسالتي هذه، فإنني في دار البقاء، وعلى نحو ما أكثر حياة مما كنت في حياتي، في عزّ شبابي، محاطاً بالأحباء. إنك تقرأ أحلام رجل هرم قلق ومشوّش، في حين أعيش الآن في ضوء أفضل من أيّ واحد من أحلامي - بيد أنني لا أنتظرك لأنني أريد لنفسك العزيزة الفانية أن تعيش طويلاً، وأن تحبّ هذا العالم المسكين الفاني، الذي بصورة ما لا يسعني تخيّل أنني لن أشتاق له بشدّة، على الرغم من توقي الشديد لكي أعرف ما ستعنيه استعادة زوجتي وطفلتي، أعني لويزا وربيكا. لقد تساءلت حول هذا الأمر طوال سنوات. حسناً، هذه البذرة القديمة ستسقط قريباً على الأرض. وعندئذ سأعرف.

أحتفظ ببضع صور للويزا، لكنني لا أحسب الشبه بين صورتها في رأسي وتلك الصور، كبيراً. وأظّن أنني - أخذاً في الاعتبار أنني لم أرها منذ واحد وخمسين عاماً- لن أتمكن من الحكم على الأمر. حين كانت في التاسعة أو العاشرة كانت تقفز بالحبل كالمجنونة، وإذا حاول أحدهم أن يلهيها تهرب منه فحسب، دون أن تفوّت قفزة واحدة وكانت

(1) سفر الأمثال، 15: 30.

خصلات شعرها تقفز على ظهرها، وحين أحاول الإمساك بواحدة من هذه الخصلات تفرّ مبتعدة في الشارع، وهي ما زالت تقفز. كانت تحاول الوصول إلى الرقم ألف أو مليون ولا شيء يمكن أن يلهيها. وقد ذكر في الكتاب الطبي المنزلي الذي اشترته والدتي أنه لا ينبغي السماح لفتاة صغيرة بإجهاد جسدها على هذا النحو، لكن حين أطلعت لويزا على الصفحة التي تتضمن هذه المعلومة، قالت لي أن أهتم بشؤوني فحسب. كانت تركض باستمرار حافية القدمين وخصلتاها تطيران وقبعتها مائلة. لا أعرف متى كفّت الفتيات عن ارتداء قبعات الشمس[1] هذه أو لماذا يرتدينها أساساً. إذا كان القصد منها أن تمنع النمش فأؤكّد لك أنها لا تفعل ذلك.

لطالما حسدتُ الرجال الذين يرون زوجاتهم وهنّ يتقدّمن في السن. بوتون فقد زوجته قبل خمس سنوات، وهو تزوج قبلي، وقد غزا شعر ابنه الأكبر بياض كالثلج، وتزوّج ومعظم أحفاده كذلك. لكنني لن أرى طفلاً لي يكبر أو زوجة تتقدّم في السن. لقد كنت راعياً للكثيرين من الناس وعمّدت مئات الأطفال، وطوال هذا الوقت شعرت كأن جزءاً عظيماً من حياتي ظلّ مقفلاً عليّ. تقول والدتك إنني كنت مثل ابراهيم، لكن دون زوجة طاعنة في السن ولا وعد بالنسل. كنت أعيش

(1) Sunbonnets: قبعة نسائية بصورة خاصة، وأحياناً يرتديها الأطفال، وهي قبعة واسعة لها لسان من الخلف للوقاية من الشمس، وقد كانت مثل هذه القبعات رائجة حتى الستينات من القرن العشرين في الولايات المتحدة الأمريكية.

على الكتب والبايسبول وشطائر البيض المقلي.

انضممت إليّ والقطة في حجرة مكتبي. جلست «سوبي» في حجري وتمددت أنت على بطنك على بقعة مشمسة على الأرضية ورحت ترسم الطائرات. قبل نصف ساعة كانت «سوبي» مستلقية في مربع الشمس هذا. وبينما كنت في حجري رسمت - كما قلت لي - طائرة «ميسر شميت 109» وها هي في زاوية الصفحة. تعرف جميع أسماء الطائرات من كتاب أعطاك إياه ليون فيتش قبل نحو شهر، وذلك من وراء ظهري على ما أظن، لأنه ما كان ليتخيل موافقتي على ذلك. كل طائراتك تشبه تلك التي في الزاوية، لكنك تسمّيها بأسماء مختلفة مثل «سباد»[1] و«فوكر»[2] و«زيرو»[3]. ولطالما حاولت أن تجعلني أقرأ الطباعة الأنيقة التي تفيد كم رشاشاً فيها وكم من القنابل تحمل. لو كان والدي هنا، أو لو كنت والدي، لكنت وجدت طريقة أقنعك بها أن الأمر الرجولي والنبيل هو إعادة الكتاب إلى فيتش صاحبه فيتش، الرجل الكبير في السّن. وعليّ أن أفعل ذلك حقاً. لكنه لا يقصد سوءاً. ربما أخبئ الكتاب في حجرة المؤونة. متى اكتشفت أمر هذه الحجرة؟

(1) Spad طائرة حربية فرنسية صنعت في الحرب العالمية الأولى.
(2) Fokker طائرة هولندية استخدمت في الحرب العالمية الأولى وظلت تنتج الطائرات لأغراض مدنية حتى أعلنت إفلاسها في 1996.
(3) إشارة إلى طائرة Mitsubishi A6M Zero اليابانية التي استخدمت في الحرب العالمية الثانية وكانت من أفضل المقاتلات في تلك الفترة.

هذا هو المكان الذي نضع فيه الأشياء التي لا نريدك أن تصل إليها. الآن بما أنني أفكر بالأمر، نصف الأشياء في تلك الحجرة كانت هناك دائماً لكي لا يصل إليها أحدنا.

كان يمكنني الزواج ثانية وأنا ما زلت شاباً، فالرعيّة تفضّل قسّاً متزوجاً، وقد جرى تعريفي على كل ابنة أخ وكلّ أخت زوج على بعد مئات الأميال. وإذ أتذكر ذلك فإنني أشعر بالشكر الجزيل لأي تردّد أبقاني وحيداً حتى مجيء والدتك. حين أراجع حياتي الآن أشعر بأنه في خضمّ تلك الظلمة الدامسة كان يجري إعداد معجزة، وأنني محقّ لتذكري ذلك الوقت الذي كنت أنتظر فيه بيقين، كوقت مبارك، حتى ولو لم تكن لديّ فكرة عما كنت أنتظره.

حين جاءت والدتك، حين كنت بالكاد أعرفها، نظرت إليّ نظرتها تلك – لا رفة في تلك العين – وقالت، بنعومة وجدية فائقتين: «يحسن أن تتزوجني». كانت تلك المرة الأولى في حياتي التي عرفت فيها إحساس أن تحبّ إنساناً آخر. لا أعني أنني لم أحب البشر قبلاً. لكنني لم أدرك ما يعنيه أن تحبهم قبلاً. ولا حتى والداي. ولا حتى لويزا. أجفلت غاية الإجفال حين قالت لي ذلك ولدقيقة لم أجد ما أردّ به عليها. فمضت مبتعدة، واضطررت إلى لحاقها في الشارع، وظللت لا أملك الجرأة على لمس كمّها، لكنني قلت لها: «أنت محقة، سأفعل». وقالت «إذن أراك غداً»، وتابعت طريقها. وكان ذلك أكثر الأمور إثارة في حياتي.

يمكنني أن أتمنى لك لحظة كتلك اللحظة، على الرغم من أنني حين أفكّر بكلّ ما جاء قبلها، لي ولوالدتك العزيزة أيضاً، فلست أكيداً من أنني سأفعل.

ها أنذا أحاول أن أكون حكيماً، مثلما ينبغي أن يكون الأب، وبالتأكيد مثلما ينبغي أن يكون راع هرم. لا أعرف ما أقوله سوى أن أسوأ المحن ليست محناً فحسب - وحتى وأنا أكتب هذه الكلمات، أفكّر في تلك الطفلة ربيكا، بالطريقة التي كانت تنظر فيها إليّ وأنا أحملها، والتي يبدو أنني لم أنسها، لأنني في كلّ مرة أعمّد فيها طفلاً أتذكرها من جديد. ذلك الإحساس بجبين طفل على راحة كفك - كم أحببت هذه الحياة. لقد عمّدها بوتون كما سبق وذكرت، لكنني وضعت يدي عليها لكي أباركها فحسب، وشعرت بنبضها ودفئها وبالبلل على شعرها. لقد قال الرب: «إن ملائكتهم في السماوات كلّ حين ينظرون وجه أبي الذي في السماوات» (إنجيل متّى 18: 10). لهذا السبب أسماها بوتون أنجلينا. كثر من الناس وجدوا العزاء في هذه الآية.

كنت أفكّر مؤخّراً بالوجود. في الحقيقة، لطالما وقّرت الوجود إلى حدّ أنني بالكاد استمتعت به بصورة صحيحة. في طريقي إلى الكنيسة هذا الصباح، مررت بذلك الصف من أشجار السنديان الضخمة على مقربة من النصب التذكاري للحرب - إذا كنت تتذكّر هذه الأشجار

- وتذكّرت صباحاً آخر؛ صباح خريفي قبل عام أو اثنين، حين كانت هذه الأشجار تسقط أكوازها بكثافة كوابل البَرد تقريباً. كان ثمة حركة قوية في أوراق الشجر وكان هناك أكواز ترتطم بالرصيف بقوة شديدة تجعلها تقفز ثانية وتحلق قرب رأسي. كلّ هذا في الظلمة بالطبع. أتذكّر جزءاً من القمر، لا أكثر. كانت ليلة - أو صباحاً- شديدة الوضوح، بالغة السكون، وكان هنالك طاقة كبيرة في تلك الأشياء التي تتحرّك بين الأشجار، مثل العاصفة، مثل مخاض. وقفت قليلاً هناك فاقداً الإحساس بوجهتي، وفكّرت أن هذا كله ما زال جديداً عليّ بعض الشيء. لقد عشت حياتي في المروج وما زال صف من أشجار السنديان قادراً على إدهاشي.

أشعر أحياناً أنني طفل يفتح عينيه على العالم مرة ويرى أشياء مذهلة لا يعرف اسم أي منها ثم يكون عليه أن يغمض عينيه ثانية. أعرف أن هذا كله مجرد خيالات طفيفة مقارنة بما ينتظرنا لكنه أكثر روعة لهذا السبب. هناك جمال إنساني فيه. ولا يمكنني تصديق أنه - حين نتغيّر جميعاً ونوضع على طريق الخلود - سننسى حالنا المذهلة من الفناء واللا ديمومة، حلم الولادة الناصع والفناء الذي كان يعني العالم كله بالنسبة إلينا. أحسب أن عالمنا هذا سيكون، في الأبدية، بمثابة طروادة، وسيكون كلّ ما عشناه فيه ملحمة الكون، ذلك النشيد الذي ينشدونه في الشوارع. لأنني لا أتخيل أي حقيقة في وضع هذا العالم في الظلّ تماماً، وأظن أن التقوى تمنعني من أن أحاول ذلك.

ليلة البارحة توفيت لاسي ثراش. أوليس هذا اسماً غريباً؟ كانت أمها من آل لاسي لاسي، وهي من أقدم العائلات هنا، لكنها كانت آخر من تبقّى منهم، أما آل ثراش فقد رحلوا إلى كاليفورنيا. كانت سيدة عذراء. وقدَ توفيت بسرعة وصمت فجأة وبصورة لائقة، ربما احتراماً لي، بما أنها كانت قلقة على صحتي. كانت واعية نصف ساعة، ثم غابت عن الوعي نصف ساعة، ثم رحلت. تلونا «الصلاة الربيّة»[1] والمزمور الثالث والعشرين[2]، ثم رغبت في سماع «حين أنظر إلى الصليب الرائع»[3] للمرة الأخيرة، فأنشدتها ودمدمت معي قليلاً، ثم بدأت تغيب شيئاً فشيئاً. كم أقدّر هذه السيدة. فقد وفّرت عليّ الكثير من العناء، إذا جاز القول. وبأي حال لم تبقني مستيقظاً بعيد موعد نومي، وهناءة نومها ساهمت كثيراً في هناءة نومي. أولئك القديسون القدامى يباركوننا كلما سنح لهم ذلك.

---

(1) Lord's Prayer، وباللاتينية Oratio Dominica: صلاة مسيحية أوصى بها بحسب الأناجيل السيد المسيح عندما سأله تلاميذه كيف يصلون، ونصها معروف: «أبانا الذي في السماوات، ليتقدس اسمك...» إلخ.

(2) يردد خصوصاً في الموت أو عند التأبين، وهو الذي يبدأ بـ «الربّ راعيّ فلا يعوزني شيء. في مراع خضر يربضني. إلى مياه الراحة يوردني...»، وينتهي: «وأسكن في بيت الربّ إلى مدى الأيام».

(3) When I Survey the Wondrous Cross: ترتيلة من تأليف إسحاق واتس (1674–1748) الذي يعرف بأنه «أبو التراتيل الإنجليزية» ونشرت في كتاب «تراتيل وأناشيد روحانية» عام 1701، وتتخذ أهميتها من كونها أول ترتيلة لا تعتمد في تأليفها على إعادة صياغة النص الإنجيلي.

سأخبرك هذه القصة التي كان جدي ورفاقه يضحكون حين يروونها. لست واثقاً تماماً من مدى صحتها، فحين كانوا يروونها بين أنفسهم، على نحو ما كانوا يفعلون، أشكّ في أنهم فكروا أن تنميق قصة ما هو عينه الافتراق عن الحقيقة فيها.

على أية حال، في إحدى المستوطنات المنسية المناهضة للعبودية في المنطقة، وما أن انتهى السكان من بناء متجر عمومي[1] على جانب الطريق واصطبل للماشية على الطرف المقابل، حتى قرروا بناء نفق بينهما. كان بناء الأنفاق نشاطاً رائجاً في ذلك الزمن، و(وقد تجلّى) قدر كبير من الحذق والبراعة والإبداع في تصميم أماكن اختباء وطرق فرار. فقد كانت التربة الفوقية في آيوا شديدة العمق إذ يمكن بناء عدد أكبر من الأنفاق وأكثر ضخامة، مما في أماكن أخرى مثل «نيو إنجلند»[2]. كما أنه في هذه النواحي من الولاية تتمتع التربة بخاصية رملية جداً.

والآن، كان هؤلاء بشراً حسّاسين وحسني النية. لكنهم باتوا مهووسين ببناء هذا النفق إلى درجة أنهم أغفلوا بعض الاعتبارات العملية. فقد صبّوا فيه الكثير من الحماسة حتى أصبح نوعاً من النصب المدني السري. وقد علّق أحد كبار السّن قائلاً إن الشيء الوحيد الذي

(1) Dry Goods: في الاستعمال القديم لهذا التعبير فإنه يعني الأقمشة والملابس الجاهزة، وهو لا يبيع الأدوات المنزلية أو البقالة، لكن الاستعمالات الأحدث قد تتضمن هذا المعنى فحسب، وقد تمتد إلى المتجر بالمعنى العام للكلمة الذي يبيع معظم المواد الضرورية.

(2) New England منطقة في الشمال الشرقي من الولايات المتحدة تشمل ولايات ماين ونيوهامشير وفيرمونت وماساشيوتس ورود أيلند وكونتيكيت.

كان ينقص هذا النفق هو تعليق ثريا في السقف. فقد كان بالغ الضخامة، وشديد القرب من سطح الأرض، ولم يتمكنوا من وضع دعامات له، لأن خشب الأشجار كان قليلاً في المروج في تلك الأيام؛ كانت الأخشاب اللازمة لبناء مثل هذه المباني تجلب من منيسوتا. حتى أولئك الحكماء يفتقرون أحياناً إلى الأحكام الصائبة.

ما أن انتهوا من الحفر، حتى جاء غريب إلى البلدة على صهوة جواد أسود. وقف في البقعة الخطأ تماماً لكي يستفسر عن اسم هذا المكان، فغاصت التربة بحصانه ووقع في النفق. وبعد ركود الغبار وجلاء المشهد، كان الجواد يقف حتى كتفيه في الحفرة. ترجّل عنه راكبه وراح يمشي حوله بنوع من العجب، غير قادر – مهما حاول– على فهم ما جرى. وحين خرجوا لكي يتأملوا تلك المصيبة، ويروا حيرته، فكروا أنه يستحسن أن يغرقوا هم أيضاً في الحيرة. فوقفوا هناك فحسب، شابكين أذرعهم على صدورهم قائلين: «أوليس هذا بالأمر العجيب» أو كلمات من هذا القبيل، وتناقشوا في المخاطر التي تتأتى من اقتناء حصان كبير كهذا. بدأ الجواد يسعى إلى الخروج بالطبع، فجاء أحدهم بدلو من الشوفان سكب فوقه زجاجتين من الويسكي، وأكلها الجواد وسرعان ما غاب عن الوعي. ثم صار مزاج الغريب كئيباً بائساً، لأن الحصان لم يكن عالقاً في الحفرة فحسب، بل بات غائباً عن الوعي أيضاً. وهذا الأمر ما كان ليؤثّر فيه إلى هذا الحدّ لو لم يكن ممتنعاً هو نفسه عن الشراب. وعلى هذا النحو كان ذلك الحصان الذي يشخر ورأسه ملقى هناك في الحفرة، مشهداً كئيباً بالنسبة إليه ولم يفلح في إيجاد الكلمات

لوصف مشاعره تجاهه.

ولأنّ المستوطنات من مثل هذا النوع كانت من عمل أناس ذوي مبادئ دينية رفيعة، وهم ما كانوا ليستمتعوا البتة بمشاهدة هذا الغريب المسالم وهو ينتف لحيته ويرمي قبعته أرضاً. حسناً، بالتأكيد، استمتعوا قليلاً بهذا المشهد. لكن بدا لهم أنه من الأفضل أن يخرجوه من البلدة في أسرع وقت ممكن حتى يمكنهم التعامل بأنفسهم مع هذا الجواد، بما أن أي «بوشواكر»[1] آت من ميزوري أو أي صائد عبيد[2] مار من هناك قد يميل إلى تفسير المشهد على ضوء شكوكه وأحقاده الخاصة. فاقترح أحدهم على الغريب مبادلته جواده بالجواد العالق في الحفرة. وقد تحسب أن الغريب وجد هذه الصفقة لصالحه، لكنه في حقيقة الأمر جلس على شرفة متجر البضائع العمومية وتفكّر في الأمر لبعض الوقت. كان الجواد الذي قدّم له فرساً، وكانت صغيرة، مما جعل الغريب يسلّم بأن هذا ميزة تحسب لها. لكنه حاول فحص أنيابها وراح يلعن الحظ الذي جاء به إلى تلك البلدة، ثم طلب استعارة معول لكي يتمكن من إخراج حصانه. فقال له الكاهن بكلّ جدية إنهم خسروا جميع

(1) Bushwhackers مجموعة من العصابات أو قطاع الطرق أو قراصنة البر الذين كانوا ينصبون الكمائن بغية النهب والقتل وترويع السكان، ولم تنحز هذه المجموعات التي كثرت في ميزوري إلى أيٍّ من جيشي الجنوبيين أو الشماليين.

(2) بعد صدور مرسوم تحرير العبيد، الذي يعدّ السبب الرئيسي في نشوب الحرب الأهلية في أمريكا وانفصال عدد من ولايات الجنوب عن الولايات المتحدة لهذا السبب، نشأت ظاهرة فرار العبيد من ولايات الجنوب إلى ولايات الشمال حيث يمكنهم العيش بحرية في ما سلف ذكره من مستوطنات مؤيدة لإلغاء العبودية، ونشأت مع ذلك ظاهرة صائدي العبيد الذين كانوا يسعون إلى إعادة الزنوج الفارين إلى «أصحابهم» لقاء مكافأة مالية.

معاولهم في حريق رهيب. «لدينا الأنصال ونرحّب باستعمالك إياها لو شئت، لكن المقابض هي ما نفتقر إليه». وكانت هذه كذبة بالطبع، لكنهم أجبروا عليها في ظلّ الوضع الطارئ.

أخيراً وافق الغريب على مبادلة حصانه بالفرس مع سرجها ولجامها وبعض النثريات التي كان المقصود منها أن يستعيد الرجل بعض الثقة بالعدالة الكونية، والتي قبلها كتعويض عن متاعبه.

ما أن تخلصوا منه حتى بدأ أهل المستوطنة يفكرون بمشكلة الجواد. فنزل بعض الرجال إلى النفق من الجهتين لكي يتبيّنوا حالة قوائمه، بما أنه إذا كانت قد كسرت إحداها فسيتعيّن عليهم قتل الحيوان، ثم تقطيعه بالطريقة المناسبة وإخراجه وردم الحفرة. لكن قوائمه كانت سليمة.

فكّروا في أن يحفروا حول الجواد، لكن هذا من شأنه توسيع النفق، وفي النهاية قرروا أنه ليس أمامهم خيار آخر سوى أن يحفروا حفرة واسعة كفاية تسمح لهم بإخراج الجواد من هناك. في الأثناء كان الجواد قد بدأ يستعيد وعيه ويهزّ رأسه وذيله. فقرروا أن يحملوا سقيفة من مكان ما ويضعوها فوق الجواد هناك في وسط الطريق. كانت سقيفة صغيرة، فيجب وضعها في خطّ قطري فوق الجواد، الذي شكّل حجمه في الواقع وتر الزاويتين القائمتين.

كلّ هذا يبدو منافياً للعقل. لكن في الحقيقة زلة واحدة سرعان ما تؤدي سريعاً إلى وضع لا تعود ممكنة معه إلا الخيارات الحمقاء. لاحظ أحدهم أن ذيل الجواد بارز على الأرض خارج السقيفة فكان عليهم إقحام طفل من النافذة لكي يدخل الذيل .

بينما يحدث هذا كان ثمة شاب زنجي يعيش في المستوطنة في ذلك الوقت، وهو أول زنجي ملاحق يصل إلى هناك. وهذا زاد الناس جدية وتصميماً، كما زاد من حرجهم حول مسألة الجواد. الشاب الذي اعتاد البقاء في المتجر العمومي، إلا في حال استدعى انتباهه شيء ما في الخارج، رأى وسمع كل شيء. وكانت جليّة شدّة رغبته في الضحك، بل إنه عانى أشدّ العناء لكي يكظم ضحكته. وقد تجنّب عيونهم، وظلّ يعض على شفتيه حابساً ضحكته. وحين جيء بالسقيفة إلى الشارع، وفي أثناء وضعه بالعرض فوق الحصان، انفجرت من المتجر ضحكة مدوية مجلجلة.

وعند هذه اللحظة انتبهوا أنه ربما يكون الشاب قد بدأ يساوره بعض القلق المبرّر في ما يخصّ مدى حصافتهم. وبالتأكيد كانت تلك هي الليلة نفسها التي فرّ فيها، واتجه شمالاً، وقد استنتج مصيباً أنه قد حدث الكثير مما يدفع السكان إلى الاعتقاد أنه من المستحسن له الابتعاد عن البلدة.

حين لاحظوا ما حدث، لحقه اثنان على جواديهما الجيدين اللذين لم يتمّ تبادلهما مع الحصان في الحفرة (أرادوا الحرص على أن يبتعد الغريب قدر الإمكان حتى لا يتجشم عناء العودة، ولذلك منحوه أفضل حصان لديهم). في أيّ حال على أي حال أملوا في الإمساك بالهارب لكي يقدموا له بعض الملابس والثياب ويوجهوه إلى المستعمرة التالية المناهضة للعبودية، لكنه راوغهم طوال يومين. ثم وهما مضطجعان للاستراحة ليلاً، خرج من الظلمة وقال: «أشكركما على لطفكما لكنني

أفضل القيام بهذا على عاتقي». أعطياه الصرة التي جلباها له وعاد إلى الظلمة وقال «هل أخرجتما ذلك الجواد؟»، وقهقه قليلاً، وكان هذا آخر ما سمعاه من أخباره.

وقد حفروا بالفعل خندقاً مائلاً يمكنهم من إخراج الحصان عبره، ومضى الأمر بصورة حسنة كفاية. لكن عندئذ كان عليهم التعامل مع صعوبة التخلص من النفق. فقد عانوا أشدّ المعاناة لحفره، لكي ينثروا التراب الذي أزالوه على أوسع مسافة ممكنة، ولكي يخفوا الحفر، ولم يكن من طريقة للقيام بهذا العمل بطريقة معكوسة. وبينما أنشأوا هذا النفق بسرية وعلى مهل، فقد باتوا مجبرين على إزالته بعجلة وبعلانية. خاصة أن حواف الحفرة ظلّت تتداعى، كاشفة المزيد من النفق يومياً (كانوا قد أزالوا السقيفة بحذر، إذ أن سقيفة في حفرة في وسط الطريق ليس بأمر يسهل تبريره أكثر من وجود جواد). وكان الحلّ الأسرع الذي خرجوا به أن يهدوا النفق كلياً ويملأوه من الأعلى، ولكن عندئذ فالممر الذي يشكّله من المتجر إلى الاصطبل سيصبح مرئياً فوراً. فاختاروا هضبة صغيرة وبدأوا باستخراج تربتها وردم النفق بها، وقد عملوا ليل نهار ووضعوا مراقباً فوق المتجر لكي ينذرهم في حال اقتراب غريب ما. وإذا ما سئلوا فسيجيبون أنهم يعمّرون مصاطب، على نحو ما رأوا في كتاب يملكه القس وفيه رسوم توضيحية حول عادات الشرق في البناء. أظنّ أن هذا أفضل ما أمكنهم فعله في ظلّ تلك الظروف.

كانوا أناساً كادحين، لكن ببساطة ليس من طريقة لتزيل تربة من الأرض ثم تعيدها بالصلابة نفسها التي تضافرت عناصر المطر والثلج

والحرارة منذ بدء الخليقة على صنعها. أي أنه على الرغم من كلّ العناء الذي تكبّدوه، فمع أول مطر خسفت الأرض من أول النفق إلى آخره. ثم بدأوا بردمه ثانية، إذ ليس من خيار آخر أمامهم، ولا ما يخسرونه. ومع ذلك ظلت الأرض تنخسف كلما اشتدّ المطر.

فحين حلّ الشتاء أخيراً وكان هناك جليد قاس وثلج، رفعوا الأبنية القليلة التي لديهم ووضعوها على ألواح ربطوها بجيادهم ونقلوا البلدة، كما هي، مسافة نصف ميل من موقعها القديم. وكان عليهم انتزاع شواهد القبور لكي يخفوا الموقع القديم، وكان هذا شيئاً محزناً، مع أنه لم يكن هنالك أكثر من ثلاثة أو أربعة شواهد. أصبح النفق نوعاً من الغدير أو القناة المائية تحتشد ضفته بالعشب والزهور التي جيء بها من الحدائق القديمة. وأولئك الذين لا يعرفون بالأمر كانوا يتنزهون على تلك الضفة، فارشين ملاءاتهم وسلالهم فوق تلك القبور المنحوسة المنسية، الأمر الذي كان، في نهاية المطاف، أمراً جميلاً.

أنت وطوبياس تقفزان في المِرشَّة. إنها اختراع رائع لأنها تعرض قطرات المطر لشعاع الشمس. وهذا يحدث في الطبيعة إنما نادراً. حين كنت في معهد اللاهوت اعتدت مشاهدة المعمدانيين عند النهر. كان مشهداً جميلاً رؤية الكاهن وهو يرفع الشخص المعمّد من المياه، والمياه تقطر من ثيابه ومن شعره. بدا الأمر ولادة أو انبعاثاً. بالنسبة إلينا[1]

(1) يفترض أن الراوي ينتمي إلى الكنيسة التجمعية Congregational Church وهي فرع =

فإن المياه تمنح الطاقة ليد الراعي على الجبهة الرقيقة، شيئاً مثل الاتصال الكهربائي. لطالما أحببت العمادة، وإن كنت أرغب أحياناً في أن يكون هنالك المزيد من الطرطشة والمياه في طريقة ممارستنا لها. حسناً، لكن ها أنتما تطوفان راقصين في قوس قزح المائي هذا، زاعقين قافزين مثلما يجدر بالعاقلين فعله حين يصادفون شيئاً مذهلاً كالمياه.

خلال تلك الأيام التي تلت عودة إدوارد من ألمانيا، كان يشغل تفكيري كثيراً بحيث ظللت أذهب إليه متسللاً إلى الفندق لكي أطمئن على أحواله. ذات يوم أخذت كرة البايسبول وقفازي وقفاز والدي وذهبت وإياه إلى أحد الأزقة ولعبنا لبعض الوقت. في البداية كان يلعب بحذر لكي لا يوسّخ ثيابه، وقال لي إنه لم ير كرة بايسبول منذ سنوات. لكن حين حمي قليلاً، صار متحمساً للعب. رمى كرة قوية لسعت يدي، وحين صحت متألماً ضحك مغتبطاً، لأن هذا يعني أنه استعاد قوة ذراعه ودربتها في اللعب. ولم تكن الكرة لتلسعني بيد أنني لم أتوقعها بمثل تلك القوة، فلم أكن مستعداً لها. وعندئذ بدأنا فعلاً باللعب. رميت الكرة عالياً وقفز للإمساك بها، وكانت لقطة موفقة. عندئذ كان بدأ يلعب دون سترته، وقد حلّ ياقته وتدلّت علاقتا قميصه إلى جانبيه. وقف بعض الناس لمشاهدتنا

= من المذهب البروتستانتي، لا يؤمن أتباعه بإعادة العمادة، أو العمادة مرتين مثل المعمدانيين، لأن هذه الإعادة تعني أن العمادة الأولى لم تكن صحيحة.

نلعب. كان زقاقاً صغيراً مغبراً وكان يوماً قائظاً ورحنا نرمي الكرات العالية والمنخفضة. وطلب إدوارد من إحدى الفتيات كوباً من الماء. فجلبت واحداً لكلّ منا. أنا شربت كوبي، أما هو فسكب كوبه فوق رأسه، وسالت المياه على شاربه الضخم مثلما تسيل مياه المطر عن سطح منزل.

حسبت بعد ذلك اليوم أننا سنكون قادرين على التواصل معاً من وقت لآخر. ولكن لم يحدث الأمر كذلك. بيد أنني بعد ذلك اليوم شعرت بالطمأنينة على حال روحه. وإن كنت لست أهلاً للحكم بطبيعة الحال.

إليك ما قاله، واقفاً هناك وقد التصق شعره برأسه والمياه تقطر من رأسه وشاربه.

هوذا ما أحسن وما أجمل
أن يسكن الإخوة معاً
مثل الدهن الطيب على الرأس النازل
على اللحية لحية هرون
النازل إلى طرف ثيابه
مثل ندى حرمون
النازل على جبل صهيون.

كان هذا من المزمور المئة والثالث والثلاثين. وقد عنى أنه يعرف كلّ ما أعرفه، كل كلمة فيه. ربما كان يريد أن يقول لي إنه يعرف كل ما أعرفه

وليس مقتنعاً به. ومع ذلك، غالباً ما فكرت كم كان رائعاً منه فعل ذلك. تمنيت لو كان والدي هناك لأنني عرفت أن هذا كان سيضحكه. لقد احتفظ بقوة ذراعه في اللعب بالنسبة إلى رجل في سنه. أنا، وقد كنت يافعاً جداً حينذاك، ظننت أنهما لن يتصالحا وفوجئت بتعامل إدوارد مع الموقف بتلك الطريقة الهادئة. قلت له إنني بدأت بقراءة فيورباخ، فرفع حاجبيه وقال: «لا تدع والدتك تراك فاعلاً هذا!».

حين أقول ربما كانت سمعتي في التقوى والاستقامة منطوية على بعض المبالغة، فلا أريدك أن تعتقد أنني تعاملت مع دوري بخفّة. فقد كان كلّ حياتي. حتى أنني حافظت على لغتي العبرية واللاتينية. وكنت أنا وبوتون نقرأ النصوص التي سنعظ بها، كلمة فكلمة. كان يأتي إلى هنا، إلى منزلي، لأن بيته مليء بالأطفال. وكان يأتي بوجبة طعام شهية في سلة أعدتها زوجته وبناته. ولم أكن أحبّذ الذهاب إلى منزله لأنه كان يشعرني بمدى خواء منزلي. وكان يعرف ذلك.

كان لديه أربعة فتيان وأربع بنات؛ همجيون صغار أقوياء، كل واحد منهم، كما كان يصفهم. لكن الحظ الحسن ليس حظاً حسناً فحسب، وعلى مرّ السنين حدثت أمور في تلك العائلة تسببت بأسى رهيب. ومع ذلك، لسنوات بدا كلّ شيء رائعاً. وكان كذلك فعلاً.

أمضينا أمسيات رائعة هنا في مطبخي. بوتون خوريّ راسخ – كأنما هناك نوع آخر. فكنا نختلف في بعض المسائل، لكنها لم تكن عميقة

كفاية بحيث تتسبّب بأي ضرر لعلاقتنا.

لا أظن أنه الامتعاض، ما شعرت به وقتذاك، بل نوع من الولاء لحياتي أنا، كأنني أردت أن أقول، انا أيضاً لديّ زوجة وطفل. كأن ثمن الحصول عليهما كان خسارتهما، ولم أكن أحتمل الإيحاء بأنه حتى الثمن يمكن أن يكون باهظاً جداً. يقال إن الطفل لا يكون قادراً على الإبصار بعد وهو في السن التي كانت فيها أختك، لكنها فتحت عينيها ونظرت إلي. وكم كانت كائناً صغيراً رائعاً. لكن بينما أحملها فتحت عينيها. أعرف أنها لم تمعن (تنعم) النظر في وجهي. فالذاكرة يمكن أن تضخّم الشيء أكثر من حجمه الحقيقي. لكنني واثق من أنها نظرت مباشرة في عينيّ. وهذا شيء رائع تملأني الغبطة لأنني عرفته وقتذاك، لأنه الآن – في وضعي الحالي – وقد أوشكت على مفارقة هذا العالم، أدرك أنه ليس ثمة ما هو أروع من الوجه البشري. وقد تكلمت وبوتون بهذا الشأن أيضاً. له علاقة ما بالحلول. تشعر بالتزامك تجاه طفل حين تراه وتحمله. كلّ وجه بشري هو استحقاق عليك، لأنه لا يسعك سوى فهم فردية ذلك، الشجاعة والوحدة الكامنين فيه. لكن هذا يصحّ أكثر ما يصحّ على وجه طفل. وأعتبر هذا كنوع من الرؤيا، لا يقل إلغازاً عن أيّ رؤيا أخرى. وبوتون يوافقني الرأي.

كنتُ أخاف كثيراً الاقتراب منك عندما كنتَ طفلاً حديث الولادة غضاً طرياً. كنت أجلس على الكرسيّ الهزاز وتضعك والدتك بين

ذراعي وأهزك وأصلي حتى تنهي ما تفعله. وكنت أرتّل أيضاً «اذهب إلى جشيماني المظلمة»[1]، حتى طلبت مني والدتك أن أرتّل شيئاً أكثر بهجة. لم أكن منتبهاً حتى لما أرتّله.

حاولت – صبيحة هذا اليوم– أن أفكّر بالجنة، لكنني لم أوفّق كثيراً في ذلك. لا أدري لماذا أتوقع أن تكون لديّ أدنى فكرة عن الجنة. فأنا ما كنت لأتخيل هذا العالم لو لم أعش فيه ثمانية عقود من الزمن. يتكلم الناس عن مدى الروعة التي يرى بها الأطفال العالم، وهذا صحيح كفاية. لكن الأطفال يحسبون أنهم سيكبرون فيه ويفهمونه، وأنا أعرف جيداً أنني لن أفعل، وما كنت لأفعل لو عشت عشرات الحيوات. وهذا يصير أكثر جلاء بالنسبة إلي يوماً بعد يوم. إنني أشبه آدم وهو يصحو في جنة عدن، مذهولاً من حذق يديه ومن الألق الذي يتدفق إلى رأسه عبر عينيه – يدان هرمتان، عينان هرمتان، عقل هرم، آدم آخذ في التلاشي بصورة عامة، ومع ذلك يظلّ هذا كله رائعاً. ماذا سيبقى مني لي؟ حسناً، هذا الجسد الهرم كان رفيقاً ممتازاً لي، مثل حمارة بلعام[2]، لقد رأى الملاك

(1) GO TO DARK GETHSEMANE: ترتيلة من القرن التاسع وضع كلماتها جايمس مونتغومري ولحنها ريتشارد ردهيد، و«جشيماني» موضع يرد ذكره في الإنجيل، «حينئذ جاء معهم يسوع إلى ضيعة يقال لها جشيماني، فقال للتلاميذ اجلسوا ههنا حتى أمضي وأصلي هناك (إنجيل متى، 26: 36)، وقد جاء ذلك في الليلة التي جرى فيها القبض عليه، وبالتالي فالإيحاء بكآبة المناسبة جليّ هنا.

(2) هو بلعام بن باعوراء (أو بحسب التوراة بلعام بن بعور): أحد علماء بني إسرائيل (هو بحسب التوراة نبي) في زمن النبي موسى، تمكن فرعون من أن يغرّر به ويؤلبه ضد =

الذي لم أره بعد، وهو راقد هناك في الدرب.

ويجب أن أقول أيضاً إن عقلي، على الرغم من كل عيوبه، قد أبقاني بالتأكيد حاضر الذهن. ثمة فيه شعر حفظته عليّ مرّ السنين، والكثير من المفردات التي لم أستعمل معظمها. والكتاب المقدّس. لم أحفظه يوماً على نحو ما حفظه والدي، أو والده. لكنني أعرفه جيداً. وبالتأكيد يجدر بي ذلك. حين كنت أصغر سناً منك، كان والدي يعطيني فلساً كلّ مرة أحفظ فيها خمس آيات وأرددها دون خطأ. ثم يلعب معي لعبة أن يقول آية وعليّ أن أكمل الآية التالية. وكنا نمضي في ذلك حتى نصل إلى تسلسل كامل، أو نسأم فحسب. وأحياناً كنا نؤدّي أدواراً: فيكون هو موسى وأنا فرعون، أو يكون الفريسيين وأكون الرب. هكذا نشأ هو أيضاً، وكان ذلك عوناً كبيراً لي حين انتسبت إلى معهد اللاهوت، وظلّ كذلك خلال حياتي كلها.

أنت تحفظ «الصلاة الربيّة» والمزمور الثالث والعشرين والمزمور المئة. وقد سمعت والدتك تحفّظك «التطوبيات»[1] ليلة البارحة. أشعر

= النبي موسى، فركب حمارته أو أتانه لكي يذهب إلى الجبل ويدعو عليه، لكن الحمارة أبت المشي وأنطقها الله إثر ضربه الشديد لها، حتى قتلها بلعام. وقد ذكرت قصته في القرآن الكريم وفي التوراة. والمقصود هنا طبعاً الرواية التوراتية حيث رأت الحمارة «ملاك الرب» فأبت المشي، فضربها بلعام ثلاث مرات فنطقت الحمارة وعاتبته: «ألست أنا أتانك التي ركبت عليها منذ وجودك حتى اليوم؟»، وهنا الصلة المذكورة بالجسد.

(1) الطوبى: أي الحسنى والخير، وطوبى لفلان تعني: يا لسعادته وغبطته. وهي المذكورة في الإصحاح الخامس من إنجيل متى، والإصحاح السادس من إنجيل لوقا. وهي التي ألقاها السيد المسيح بحسب الإنجيل في «عظة الجبل» (في متّى) وفي «عظة السهل» (في لوقا) والتي تبدأ: «طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السماوات» (متّى).

أنها تريدني أن أعرف أنها ستربّيك على الايمان، وهذا جهد رائع من قبلها، لأنه بصراحة لم أعرف بحياتي شخصاً أقل معرفة منها بالدين حين تعرفت إليها أولاً. امرأة ممتازة، لكنها لم تتعلم الكتاب المقدس، ولا أي شيء آخر تقريباً، بحسب ما تقول هي عن نفسها، وقد يكون هذا صحيحاً. أقول هذا بكلّ احترام.

ولكنها لطالما تمتّعت بتلك الجدية الرائعة. حين جاءت للمرة الأولى إلى الكنيسة جلست في الزاوية خلف صحن الكنيسة، وظللت أشعر مع ذلك كأنها الوحيدة التي تصغي حقاً. رأيت حلماً ذات مرة أنني كنت أعظ أمام يسوع نفسه، مردداً أي كلام أحمق يمكنني التفكير فيه، وكان جالساً هناك بردائه الأبيض وقد بدا عليه الحزن والصبر والذهول. هكذا كنت أشعر تجاهها. وبعدئذ فكّرت أن هذا قد أنهى الأمر وأنها لن تعود ثانية. فإذا بها تأتي يوم الأحد التالي. ومرة أخرى تحوّلت الموعظة التي أمضيت أسبوعاً في التحضير لها، رماداً في فمي. وقد حصل ذلك حتى قبل أن أعرف اسمها.

خضت نقاشاً شيقاً صبيحة اليوم مع السيد شميدت، والد طوبياس. يبدو أنه سمع صدفة بعض الكلام النابي يصدر منك ومن ولده. وقد سمعته أنا أيضاً في حقيقة الأمر، بما أنه كان مزحتكما المفضلة طوال الأسبوع الفائت. أعترف أنني لم أجد حاجة للاعتراض. فقد قلنا الكلام نفسه في طفولتنا ونشأنا دون ضرر يذكر على ما أظنّ. يسأل أحدكما بصوت

تنغيمي ساذج: «آيه بي سي دي غولد فيش؟»، فيجيبه الآخر بأعمق صوت ممكن، صوت مليء بالازدراء: «أل أم أن أو، غولدفيش!»[1] ثم يلي ذلك انفجار من الضحك (من المؤكد أن حرف «أل» هو الذي أقلق السيد شميدت). كان ذلك الشاب شديد القلق بحيث أنني عانيت أشدّ المعاناة لكي أمنع نفسي من الضحك. قلت له بجدية أنه وفقاً لتجربتي، من الأفضل عدم منع الأطفل بحزم لأن هذا المنع يفقد قوته إذا كثر استعماله. أخيراً أذعن أمام موقعي وشعري الشائب، وإن سألني مرتين ما إذا كنت توحيدياً[2].

أخبرت بوتون بهذا، وقال «لطالما رغبت بألا يكون هذا الحرف في الأبجدية». ثم ضحك مغتبطاً بنفسه[3]. لقد كانت معنوياته عالية منذ سمع بخبر عودة جاك. قال: «سيعود قريباً إلى البيت!». وحين سألته من أين سيأتي، أجابني: «حسناً، بحسب الختم البريدي على رسالته فهو في سانت لويس».

لن أخبر والدتك بأمر حديثي مع السيد شميدت. فهي ترغبُ كثيراً في أن تحتفظ بصداقتك لابنه، وقد عانت حين لم يكن لديك صديق. إنها تحمل همّك أكثر مما يجدر بها، وتتخيل دائماً أن الخطأ خطؤها،

(1) الأولى ?ABCD Goldfish حين تلفظ الأحرف الأربعة بسرعة فإنها تشكّل عبارة ,Abbey see the goldfish: أما الثانية: LMNO, Goldfish فعلى النحو نفسه تشكّل الأحرف عبارة: Hell, them are no goldfish، بالتالي اعتراض الأب على حرف L لأنه اختصار لكلمة بذيئة Hell التي تعني سحقاً أو تباً أو اللعنة.

(2) Unitarian: اتجاه في المسيحية يؤمن بوحدانية الخالق ويرفض الثالوث المقدّس.

(3) النكتة التي تصعب ترجمتها هي أن بوتون قال عبارته هذه حاذفاً حرف L منها: I have [L]ong fe[L]t that [L]etter ought to be exc[L]uded from the a[L]phabet

حتى حين يبدو لي أنه ليس من خطأ على الإطلاق.

أخبرتني قبل أيام أنها تريد قراءة تلك العظات القديمة المكومة فوق في العلية، وأظنّ أنها ستفعل ذلك، أظنّ ذلك حقاً. ليس جميعها طبعاً؛ فهذا سيستغرقها سنوات. ربما يمكنني إنزال صندوق منها وانتخاب بعض العظات. فمن المريح لي أن أشعر أنني سأرحل تاركاً عندها انطباعاً حسناً. غالباً ما عرفت، هناك على المنبر، حتى وأنا أقول عظتي، كم هي بعيدة عما رجوته منها. وكانت هذه العظات عمل حياتي الأكبر، من وجهة نظر معينة. يجب أن أتساءل كيف استطعت العيش مع هذا الإحساس.

كان اليوم «القربان المقدّس»[1]، وقد وعظت من إنجيل مرقس 14:22، «وفيما هم يأكلون أخذ يسوع خبزاً وبارك وكسر وأعطاهم وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي». عادة لا أعظ بكلام الكتاب المقدّس نفسه حين يكون القربان المقدّس التنوير الأروع الذي يمكن عيشه. لكنني كنت أفكر كثيراً بالجسد خلال الأسابيع الأخيرة. مبارك ومكسور.

(1) Lord's Supper أو Eucharist: سرّ الإفخارستيا أو سرّ التناول أو القربان المقدّس وهو أحد الأسرار السبعة في الكنيسة المسيحية، وهو تذكير للعشاء الأخير الذي تناوله السيد المسيح مع تلامذته عشية آلامه. ويكون الاحتفال بمثابة تناول قطعة صغيرة من الخبز التي تمثّل جسد المسيح، وأحياناً تغميس هذه القطعة ببعض النبيذ، أو بعصير العنب لدى الكنائس التي تحرّم الخمر.

اقتبست من سفر التكوين: 32: 23–32[1] حيث يصارع يعقوب الملاك. أردت الكلام على النعمة ذات الخصوصية الجسدية وكيف أن المباركة والسرّ المقدّس يتمّان عبر ذلك. كنت أفكر مؤخراً كم أحببت حياتي الجسدية.

على أي حال، ربما ما زلت تتذكر هذا؛ بعد مغادرة الجميع والأدوات ما زالت على المائدة والشموع تشتعل، جاءت بك والدتك عبر الممرّ إلي وقالت «يجدر بك أن تعطيه شيئاً من هذا». أنت صغير جداً بالطبع، لكنها كانت مصيبة تماماً. جسد المسيح، مكسوراً من أجلك. دم المسيح، مسفوكاً من أجلك. ارتفع وجهك الطفولي الرائع الساكن لكي يأخذ من يدي هذه الأسرار. وهما السران الأروع، الجسد والدم.

كنت سأفتقد هذه التجربة لو لم أخضها. وأخشى الآن أنه لن يتسنى لي الوقت الكامل للاستمتاع بفكرتها.

كان النور في الغرفة رائعاً هذا الصباح، كما هو غالباً. إنها كنيسة عادية قديمة ويمكن أن تفيد من طلاء جديد. لكن في الأوقات الصعبة اعتدت الذهاب راجلاً قبل الشروق فقط لكي أجلس هناك وأتأمل الضوء وهو يعبر الغرفة. لا أعرف كم سيبدو رائعاً لسواي. لكنني لطالما شعرت بالسلام الداخلي يملأني في تلك الصباحات، وأنا أصلي أحياناً في ظلّ حدث رهيب؛ الكساد الاقتصادي[2]، أو الحروب. تجارب تسبّبت بالكثير من المعاناة للناس هنا، عقود من المعاناة. لكنّ الصلاة

(1) «فبقي يعقوب وحده فصارعه إنسان حتى طلوع الفجر» (الإنسان هنا تجسيد فيزيائي للملاك).

(2) المعروف Great Depression، الكساد العظيم في أمريكا، 1929.

تجلب السلام، كلّي ثقة بأنك تعرف ذلك.

كنت في تلك الأيام – كما سبق وذكرت لك – أمضي سواد الليل قارئاً. ثم إذا استيقظت ووجدت أنني ما زلت على مقعدي، وإذا كانت الساعة تشير إلى الرابعة أو الخامسة، فكنت أفكّر كم من المبهج أن أعبر تلك الشوارع في الظلمة وأدخل إلى الكنيسة وأشاهد الفجر وهو يتسرَّب إلى صحن الكنيسة. كنت أحبّ صوت رفع المزلاج على باب الكنيسة. ويكون المبنى ملتفاً على نفسه بحيث يمكنك سماع وطأة وزنك على الممر. وهو صوت أكثر إبهاجاً من الصدى، صوت رقيق لطيف. يجب أن تكون وحيداً هناك كي تسمعه. ربما لا يحسّ المكان بوزن طفل. لكن إذا كانت الكنيسة ما زالت قائمة حين تقرأ هذا، وإذا لم تكن على بعد نصف العالم من هنا، فأنصحك بالذهاب إلى هناك أحياناً، بمفردك، لكي ترى فحسب ما الذي أعنيه. بعد مدة بدأت أتساءل فعلاً إذا ما أحببت الكنيسة أكثر حين لا يكون ثمة أناس فيها.

أعرف أنهم ينوون هدمها. وهم ينتظرون رحيلي، وهذا لطف منهم.

دائماً يكون الناس صاحين ليلاً، ربما بسبب أطفالهم المغوصين أو المرضى، أو لأنهم يتشاجرون أو يساورهم القلق أو الإحساس بالذنب، إضافة بالطبع إلى موزّعي الحليب وكل الذين يعملون نوبات عمل مبكرة أو متأخرة. أحياناً حين أمرّ ببيت أحد عائلات رعيتي وأرى

الضوء مناراً، يخطر لي أن أتوقّف لكي أطمأن إلى أنه ليس ثمة مشكلة ما أستطيع المساعدة على حلها، ثم أقرر أن هذا قد يعتبر تطفلاً فأتابع طريقي. كما أمر بمنزل بوتون. مرت سنوات قبل أن أعرف ما الذي يؤرق أهل هذا البيت، على الرغم من صلتنا الوثيقة الدائمة ببعضنا. كنت – في الليالي التي لا أنام فيها البتة ولا أشعر برغبة في القراءة – أجوب البلدة عند الواحدة أو الثانية بعد منتصف الليل. وقد اعتدت في الأيام الخوالي على أن أجوب جميع الشوارع، وأن أمرّ بكلّ بيت، في غضون ساعة واحدة تقريباً، محاولاً أن أتذكر من يعيش في كلّ بيت، وما أعرفه عنهم، والذي عادة ما يكون كثيراً، بما أن كثراً ممن لم يكونوا من أبناء رعيتي كانوا من رعية بوتون. وكنت أصلي لهم جميعاً. وأتخيل السلام الذي ما كانوا يتخيلونه وما كانوا يحسبونه سيهبط على مرضهم أو شجارهم أو كوابيسهم. ثم أمضي إلى الكنيسة وأصلي المزيد وأنتظر طلوع الضوء. كنت غالباً ما أحزن لرؤية انتهاء الليل، وإن كنت أحبّ مشاهدة الشروق.

الأشجار تبدو مختلفة في الليل، وتبدو رائحتها مختلفة أيضاً.

إذا كنت تتذكر شيئاً مني، فقد يشرح لك ما أقوله شيئاً عني. إذا تمكنت من رؤيتي لا كطفل إنما كرجل بالغ، فمن المؤكّد أنك ستلاحظ شيئاً من الغسق فيّ. بينما تقرأ هذه الرسالة، آمل أن تفهم ما أقصده حين أتكلم عن الليالي الطويلة التي سبقت أيام سعادتي تلك. لا أتذكر الحزن والوحدة بقدر ما أتذكر السلام والراحة؛ الحزن لكن ليس البتة دون راحة، والوحدة، لكن ليس دون سلام. تقريباً البتة.

ذات مرة، بعد أن أمضيت وبوتون أمسية نقرأ فيها نصوصنا معاً وانتهينا من نقاشها، رافقته إلى الشرفة الخارجية، وكان هناك الآلاف من اليراع[1]، أكثر مما رأيت في حياتي كلها، وكانت تندفع ببساطة من العشب، وتختفي في الهواء. جلسنا طويلاً على السلم في العتمة والصمت، نتفرّج عليها. أخيراً قال بوتون: «يولد الإنسان للمتاعب مثلما يرتفع الشرر إلى الأعلى»[2]. وفي تلك الليلة كأنما كانت الأرض تشتعل حقاً. حسناً، لطالما كانت وستبقى كذلك. فالنار القديمة تشكّل قشرة سوداء حول نفسها وتلتف على لبّها، كما هي حال كوكبنا هذا. أظن أن بوسع هذه الاستعارة أن تصف أو أن تنطبق على الفرد ... ربما جلعاد. ربما الحضارة. انخس قليلاً وسيرتفع الشرر. لا أعرف ما إذا هذا القول[3] يبارك الحشرات أم العكس، أم كلاهما يباركان المتاعب، لكنني منذ ذلك الوقت أحب كلاهما معاً.

(1) Firefly: نوع من الحشرات يسمّى أيضاً حباحب الليل أو سراج الليل أو الخنافس المضيئة، وهي تتميز بظاهرة الإضاءة ومن هنا تسميتها بسراج الليل.

(2) في قول بوتون هذا إشارة إلى سفر أيوب في الإصحاح الخامس، الآية السابعة: «وَلَكِنَّ الإِنْسَانَ مَوْلُودٌ لِلْمَشَقَّةِ كَمَا أَنَّ الْجَوَارِحِ لارْتِفَاعِ الْجَنَاحِ»، ثمة تلاعب لغوي يخصُّ لفظة الجوارح وأجنحتها والشرر.

(3) إشارة إلى الاقتباس السابق من سفر أيوب.

جاء اتصال هاتفي من جاك بوتون، أي جون آيمز بوتون، سميي. ما زال في سانت لويس، وما زال ينوي العودة إلى البيت. جاءت غلوري لتخبرني بالأمر، متحمسة وقلقة أيضاً. قالت «اغتبط والدي كثيراً بسماع صوته». أظن أنه سيأتي آجلاً أم عاجلاً. لا أعرف كيف يمكن أن يتسبّب ولد واحد بهذا القدر كله من خيبة الأمل دون أن يمنح أحداً أي أساس للرجاء. بالأحرى يجب أن أسميه رجلاً، بما أنه أصبح في ثلاثينياته. لا، لابدّ من أنه بلغ الأربعين الآن. ليس هو الأكبر ولا الأصغر ولا الأفضل ولا الأكثر شجاعة، لكنه أكثر المحبوبين. أحسب أنني سأخبرك قصة عنه أيضاً أو سأخبرك منها القدر الذي ينبغي لي أن أخبرك به. ولكن في وقت لاحق. يجب عليّ أن أتفكّر ملياً فيها أولاً. ربما أكتشف – حين أحظى بفرصة صغيرة للكلام إليه – أن المتاعب كلها قد نسيت، وقد آتي على ذكرها.

بوتون العجوز متشوق جداً لرؤيتي. ربما كان قلقاً بقدر ما هو متشوّق. لديه أولاد رائعون، لكن لطالما شعرت أن قلبه يتبع هذا الولد. الحمل الضائع، الدرهم الضائع، الابن الضالّ[1]، دون التشديد كثيراً على ذلك. لقد كررت على الأقلّ مرة كلّ أسبوع خلال حياتي كإنسان بالغ أنه أنَّ هناك انفصالاً تاماً بين حبّ أبينا لنا وبين استحقاقنا لهذا الحبّ.

(1) الأمثال الثلاثة واردة في العهد الجديد، إنجيل لوقا، الإصحاح الخامس عشر. الخروف الضائع: «أيّ إنسان منكم له مئة خروف أضاع واحداً منها ألا يترك التسعة وتسعين في البرّية ويذهب لأجل الضال حتى يجده»، والدرهم الضائع: «أو أيّ امرأة لها عشرة دراهم إن أضاعت درهماً واحداً ألا توقد سراجاً وتكنس البيت وتفتّش باجتهاد حتى تجده»، والابن الضال: «لأن ابني هذا كان ميتاً فعاش وكان ضالاً فوجد فابتدأوا يفرحون...».

ومع ذلك حين أرى هذا الانفصال نفسه بين الأهل وأبنائهم، يزعجني دائماً بعض الشيء (أعرف وآمل أنْ تكونَ رجلاً ممتازاً وسأحبك حباً مطلقاً لو لم تكن كذلك).

أقدمت هذا الصباح على ارتكاب حماقة. أفقت في الظلمة وهذا جعلني أرغب في الذهاب إلى الكنيسة على نحو ما اعتدت فعله. وقد تركت ملحوظة بذلك لوالدتك، فأحسب أن الأمر لم يكن بالسوء الذي ربما بدا عليه (أعترف أن فكرة ترك الملحوظة جاءت متأخرة). فقد ظنّت أني ذهبت وحدي لكي ألفظ أنفاسي الأخيرة. وهو ما كان ليكون فكرة سيئة، وفقاً لطريقة تفكيري، فقد قلقت بعض الشيء حيال تلك الساعات الأخيرة من حياتي، وهذا أمر آخر تعرفه وأنا لا؛ أعني كيف سينتهي هذا. كيف ستبدو نهاية حياتي لك. وهذا مصدر قلق كبير لوالدتك، مثلما هو بالطبع لي. لكنني أعاني صعوبة في تذكّر أنني لا أستطيع الوثوق في ألا يخذلني جسدي فجأة. لا أشعر بالوهن معظم الوقت. والأوجاع متباعدة كفاية بحيث أنسى من حين لآخر.
أخبرني الطبيب أنني يجب أن أكون حذراً حين أنهض عن الكرسي. كما حذرني من صعود السلالم، مما يعني التخلي عن حجرة المكتب، وهو أمر ما زلت غير قادر على فعله. وقد نصحني أيضاً بتناول جرعة من البراندي يومياً، وهو ما أفعله، في الصباح، واقفاً في حجرة المؤونة والستائر مسدلة لكي لا ترى أنت. والدتك تظنّ أن هذا مضحك جداً.

تقول: «سيفيدك أكثر بكثير لو استمتعت به قليلاً»، لكن هكذا كانت والدتي تحتسي شرابها، وأنا تقليدي من هذه الناحية. المرة الأخيرة التي أخذَتْك فيها إلى الطبيب، قال إنك قد تكون أفضل صحة إذا استأصلنا لك اللوزتين. فعادت إلى البيت وقد ألمّ بها المرض من فكرة أنه وجد فيك عيباً ما، بحيث أعطيتها جرعة من البراندي العلاجي الخاص بي.

تريد أن تنقل بعض كتبي إلى الردهة السفلية وتجعلني أستقرّ هناك، قد أوافق على ذلك، فقط لكي أوفّر عليها القلق. قلت لها إنني لن أستطيع إضافة لحظة واحدة إلى عمري المقدّر، فقالت «حسناً، لكنني لا أريدك أن تحذف منه أيضاً». قبل عام ما كانت لتقول «أيضاً»، بل «ولا حتى». لطالما أحببت طريقة كلامها، لكنها تظنّ أنها يجب أن تطوّر نفسها من أجلك أنت.

ذهبت إلى الكنيسة في العتمة، كما أسلفت. كان القمر وضاء جداً. من الغريب كيف لا يعتاد المرء العالم ليلاً. لقد رأيت شعاع قمر قوي كفاية بحيث يلقي عدداً لا ينتهي من الظلال. والريح هي الريح نفسها، تحدث الحفيف نفسها في أوراق الشجر نفسها، نهاراً أو ليلاً. اعتدت في صباي النهوض من النوم قبل الفجر لكي أجلب المياه والحطب. كانت الحياة مختلفة جداً حينذاك. أتذكر خروجي إلى الظلمة وشعوري بأنها بحر بارد عظيم ترسو جميع البيوت والسقائف والأشجار على سطحه، وقد أوشكت على رفع مراسيها. لطالما شعرت حينذاك أنني

أشبه بالدخيل، وما زلت أشعر كذلك، وكأن الظلمة لها الحقّ في كلّ شيء، وهو حقّ أخترقه بمجرد اجتيازي عتبة البيت. هذا الصباح بدا العالم تحت سنا القمر رفيقاً لطالما رغبت في بمصادقته منذ زمن سحيق. إذا كان ثمة فرصة ما فقد انقضت. ومن الغريب القول إنني أشعر بعضاً من هذا حيال نفسي.

على كُلِّ حال، شعرت بضرورة أن أمضي قدما في الطريق إلى الكنيسة وأن أدخل إليها وأجلس هناك في الظلمة منتظراً الفجر إلى درجة أنني نسيت كل القلق الذي ربما تسبّبت به لوالدتك. في الحقيقة من الصعب عليّ أن أتنكّر كم أنني فان هذه الأيام. هناك أوجاع، كما قلت، لكنها ليست بالمتواترة ولا الحادة إلى درجة أشعر عندها بالقلق مثلما يجدر بي.

يجب أن أحاول أن أكون متيقظاً لحالتي. بدأت أحملك منذ أيام، كما كنت أفعل حين لم تكن كبيراً هكذا ولم أكن طاعناً في السنّ إلى هذا الحدّ. ثم رأيت والدتك تراقبني بتفهم تام وأدركت أنه من الحماقة مني أن أفعل ذلك. لكنني لطالما أحببت الإحساس بك متشبثاً بي، كأنك قرد على شجرة. نحافة الولد وقوة الولد.

لكنني سرحت بعض الشيء عن الموضوع، أعني موضوع سلالتك. وما زال هناك الكثير لأخبرك به. كان جدي في الجيش الاتحادي، كما أظن أنني ذكرت قبلاً. فكر بالانضمام إلى القوات النظامية، لكنهم قالوا

له إنه أكبر سناً من أن يقوم بذلك، ودلّوه على كتيبة في آيوا يستطيع الانضمام إليها وهي للمسنين الذين لا يشاركون في المعارك ولكنهم يشاركون في حراسة الإمدادات وخطوط السكك الحديدية وما إلى ذلك من مهام. ولم ترضه هذه الفكرة على الإطلاق. فأقنعهم أخيراً بأن يقبلوه قسيساً. ولم يكن قد أحضر معه أي أوراق ثبوتية كهنوتية، لكنّ والدي قال إنه أراهم فحسب كتاب العهد القديم باللاتينية وكان هذا كاف. وما زال هذا الكتاب – أو ما تبقى منه – لديّ في مكان ما. فقد سقط مرة في النهر كما قيل لي ولم يجفّ بطريقة مناسبة حتى فسد إلى حدّ كبير. تفيد القصة، كما أتذكرها، بأن جدي اعتقل خلال انسحاب فوضوي، بعد هزيمة نكراء، في واقع الأمر. وكان هذا الكتاب نفسه الذي أرسل لوالدي من كنساس، قبل أن ننطلق بحثاً عن قبر العجوز.

ولد والدي في كنساس، على غراري، لأن العجوز (الهرم) جاء إلى هناك من ولاية «ماين» لكي يساعد «الفري سويلرز» على الحصول على حقّ التصويت، لأنه كان سيجري التصويت على الدستور ما إذا ستنضم «كنساس» إلى تحرير العبيد أم استعبادهم. وقد ذهب كثيرون إلى هناك في ذلك الحين لهذا الغرض. وبالطبع هكذا فعل أناس من «ميزوري» ممن أرادوا أن تنضم «كنساس» إلى الجنوب، فخرجت الأمور كلياً عن السيطرة لفترة من الزمن. وقد دأب أبي على القول إنه يستحسن نسيان هذا كله. لم يكن يحب الإتيان على ذكر تلك الأيام،

وقد تسبّب هذا ببعض المشاعر المريرة بينه وبين والده. وقد قرأت الكثير عن تلك الأحداث، وأدركت أن والدي كان محقاً. وعلى أيّ حال فقد نسيها الناس حقاً. استمرت أحداث جسيمة طبعاً، لكن شهد العالم الكثير من المتاعب بحيث لم يعدّ من وقت لتذكّر «كنساس».

سكنا هذا البيت منذ صغري. وقد عشنا لسنوات بلا كهرباء، وكنا نستعمل قنديل الكاز فقط. ولم يكن لدينا مذياع. كنت أتذكر كم كانت والدتي تحبّ مطبخها. بالطبع كانت الأوضاع مختلفة وقتذاك بوجود ثلاجة بدائية ومغسلة ذات مضخّة وخزانة معجنات مهواة[1] وموقد يعمل على الحطب. أما تلك الطاولة القديمة فما زالت على حالها وكذلك حجرة المؤونة. وكانت والدتي تجلس أمام الموقد على كرسيها الهزاز لكي تتمكن من فتح بابه دون أن تضطر إلى الوقوف. وقالت إن الهدف من هذا ألا يحترق الطهي، لأنه لا يمكننا تحمّل الهدر، وهذا كان صحيحاً. لكنها كانت كثيراً ما تحرق الطهي على الرغم من ذلك، وصارت تفعل ذلك أكثر مع مرور السنوات، وكنا نتناوله على كل

(1) الثلاجة البدائية Icebox: نوع من الصندوق الخشبي الذي كان سائداً قبل الثلاجة الكهربائية المعروفة، ويتضمن في داخله مادة عازلة كالفلين، وفسحة مخصصة لوضع الجليد بهدف حفظ الأطعمة. أما المغسلة ذات المضخة Pump Sink، فاسمها يدلّ عليها في ظلّ انعدام المياه الجارية من الصنابير كما هو الحال اليوم. أما خزانة المعجنات المهوّاة Pie Safe: فهي كناية عن خزانة تتضمن ألواح تهوئة مستترة وكانت تستعمل لحفظ المعجنات وغيرها من الأطعمة.

حال، حتى لا يكون هناك هدر على الأقلّ. كانت تحبّ دفء الموقد لكنه كان يصيبها بالنعاس، لاسيما وهي تقوم بالغسيل أو بتوضيب المعلّبات. بارك الرب قلبها، كانت مريضة بألم عصبي بالظهر وبالروماتيزم أيضاً، وقد دأبت على تناول جرعة من الويسكي لكي تخفّف آلامها. ولم تكن تنام جيداً خلال الليل. وأظنّ انني ورثت ذلك عنها. وقد اعتادت على القول إنها تصحو على سعال القطة، لكنها كانت تغفو طوال وقت قربان يوم الأحد. وكان هذا يجري السبت لأن عائلتي كانت صارمة في أن يوم الأحد[1] هو يوم راحة. فكنا نعلم قبل يوم كامل ما الذي ينتظرنا؛ فاصولياء محترقة وهريس التفاح الشائط على وجه الخصوص.

أجفلت والدتك حين أخبرتها للمرة الأولى أنها لا ينبغي أن تقوم بالغسيل مساء الأحد[2]. لكنه كان من الصعب جداً عليها ألا تعمل بحيث لا أعرف ما الذي أنجزته بالحديث إليها عن يوم الراحة. لكنها ترغب في معرفة القواعد وتحترمها، يعرف الرب هذا. وكان مريحاً لها أن تعرف أن الدراسة لا تحتسب ضمن العمل ولم أحسب أنها تحتسبها كذلك على أيّ حال. فإذن، صارت تجلس إلى مائدة العشاء وتقوم بنسخ قصائد وعبارات تعجبها، ومعلومات من هذا النوع أو ذاك. وهي تفعل هذا خاصة من أجلك. فبما أنني سأرحل ستضطر إلى تكون

(1) يمارس اليهود «السبت» الذي يمنع عليه فيهم القيام بالكثير من الأنشطة لأنه وقت راحة، يوم السبت، أما بعض المذاهب المسيحية فتعتبر أن هذا اليوم هو يوم الأحد.
(2) كما يبدأ السبت اليهودي مساء الجمعة، فإن السبت المسيحي يبدأ مساء السبت.

المثال بالنسبة إليك. قالت: «يستحسن أن تعرّفني أي كتب يجب أن أقرأ». فأحضرت لها «جون دان»[1] القديم، الذي في الحقيقة عنى الكثير لي طوال هذه السنوات. «غفوة قصيرة ثم إلى الأبد نصحو/ ولن يعود موت/ ستموت أيها الموت». هناك عبارات رائعة عند «دان». آمل أن تقرأه ما لم تكن قد فعلت بعد. والدتك تحاول أن تحبه. لكنني آمل أن أتمكن من اقتناء كتب جديدة. معظم الكتب التي لديّ لاهوتية، إضافة إلى بعض كتب الرحلة القديمة من مرحلة ما قبل الحرب. وأنا واثق من أن الكثير من الكنوز والأنصاب التي أرغب في القراءة عنها من وقت لآخر ما عادت موجودة.

والدتك ترتاد المكتبة العامة، التي ليست أفضل حالاً من معظم الأشياء هنا. وآخر مرة أحضرت معها «درب الصنوبرة الوحيدة»[2] الذي كان ممزقاً، وقد ألصق غلافه بالشريط اللاصق. وقد انغمست فيه كلياً على الرغم من ذلك، بل إنها ذابت فيه. وقمت بإعداد شطائر البيض المقلي والجبنة بالتوست للعشاء لكي لا تضطر إلى قطع قراءتها. أما عن نفسي فقد قرأت هذا الكتاب قبل سنوات، حين فعل الجميع، ولا أذكر أنني استمتعت به بصورة خاصة.

سمعت في صباي عن جريمة قتل وقعت في الريف، وقيل إن سلاح

(1) John Donne (1572– 1631): واعظ وشاعر يعد من أبرز الشعراء الميتافيزيقيين.
(2) Trail of the Lonesome Pine: رواية وسترن للكاتب الأمريكي جون فوكس جونيور نشرت عام 1908، وحولت فيلماً سينمائياً شهيراً عام 1936.

الجريمة وهو خنجر رمي في النهر. وكان جميع الأولاد يتحدثون عن هذه الجريمة . فقد انقض أحدهم على مزارع متقدِّم في السِّن من الخلف عندما كان في حظيرته يحلب بقرته. وكان المشتبه به الرئيسي معروفاً بامتلاكه خنجراً، لأنه كان فخوراً به ويستعرضه باستمرار أمام الجميع. وكاد الرجل يصل لى حبل المشنقة لأنه لم يستطع إبراز خنجره، ولا عثر عليه أحد. فاعتقدوا أنه رماه حكماً في النهر. لكن محاميه أشار إلى أنّ شخصاً آخر، قد يكون غريباً، يمكن أن يكون سرق منه الخنجر وارتكب به الجريمة ثم رماه في النهر، او ربما فرّ به فحسب. وبدا هذا منطقياً كفاية. إضافة إلى ذلك فهو بالتأكيد لم يكن الشخص الوحيد في العالم الذي يمتلك مثل ذلك الخنجر. وبالتالي لم يتمكّن أحد من إيجاد دافع يربطه بالجريمة. فأخلوا سراحه أخيراً.

ثم لم يعد أحد يعرف ممن يخاف، وكان ذلك رهيباً. فصاحب الخنجر رحل بعيداً. وظلت الشائعات تتردّد من وقت لآخر أنه موجود في المنطقة، وربما كان هذا صحيحاً، لأن المسكين كانت له أخت هناك هي كل من تبقّى له في العالم. وكانت الشائعات تكثر عادة في فترة أعياد الميلاد.

وقد أقلقتني كثيراً تلك القصة، لأنه ذات مرة اصطحبني والدي معه لكي نرمي مسدساً في النهر. كان لدى جدي مسدس حصل عليه في كنساس قبل الحرب. وحين رحل غرباً، ترك بطانية عسكرية قديمة في

منزل والدي؛ صرة ملفوفة بخيط من القنّب. وحين علمنا بموته فككنا الصرّة، فوجدنا فيها بعض القمصان التي بهت بياضها السابق وبضع عشرات من العظات وأوراق أخرى ملفوفة بخيوط القنّب، والمسدس. وكان الأخير بطبيعة الحال أكثر ما أثار اهتمامي، وإن كنت أكبر سناً بكثير منك اليوم. أما والدي فقد اشمئز من الأمر برمته. فتلك الأشياء التي خلّفها جدي كانت بمثابة إهانة له. فعمد إلى دفنها.

لابدّ من أن الحفرة التي حفرها بلغت الأربعة أقدام عمقاً. وقد أعجبت بالجهد الذي بذله. ثم رمى الصرة فيها وهمّ يردمها ثانية. فسألته لماذا يدفن العظات أيضاً؛ كنت أحسب في ذلك الوقت بالطبع أي ورقة تتضمن كتابة هي عظة، واتضح أن الأمر كذلك. وكان هناك أيضاً حفنة من الرسائل. علمت ذلك لأنه بعد أقلّ من ساعة على دفنه الصرة ذهب والدي وحفرها من جديد واستخرج القمصان والأوراق وعاود دفن المسدس. ثم بعد نحو شهر عاود حفر الحفرة وأخرج المسدس ورماه في النهر. لو أنه تركه في الأرض لكان موقعه الآن وراء السياج الخلفي مباشرة، ربما على بعد قدم واحدة منه.

لم يخبرني شيئاً. لكنه قال «دعك من الأمر» حين رمى المسدس القديم الكبير في الحفرة ثانية. ثم ناولني العظات عندما كان يقوم بنفض تلك القمصان وطيّها. وقال لي أن آخذها إلى البيت، وهذا ما فعلته، وعاود هو ردم الحفرة ثم راح يسوّيها بقدميه مراراً. ثم بعد نحو شهر أخرج المسدس منها وثبّته على جذل شجرة وحطّمه قدر ما يستطيع بمدقّة كان قد استعارها ثم لفّه بقطعة من الخيش وذهبنا معاً إلى النهر

بعيداً من البقعة التي اعتاد الصيد عندها. وشعرت أنه يتمنى لو لم يوجد هذا المسدس إطلاقاً وأنه غير راض عن رميه في النهر، وأنه سيبادر إلى استعادته من أي عمق كان لو تمكن من الوصول طريقة تجعله يختفي كلياً. كان مسدساً قديماً ضخماً كما ذكرت آنفاً، وثمة زخارف على المقبض مثل تلك التي تراها على مشعاع حديدي. أشعر أنني أتذكر برودته وثقله ورائحة الحديد – أو النيكل – التي علقت بيديّ. لكنني أعرف أن والدي ما كان ليسمح لي بلمسه. وقد ظننت بصراحة أنه لابدّ من أن هناك جريمة رهيبة متعلقة بالأمر، لأن والدي لم يخبرني بجوهر الخصام بينه وبين جدي.

قام بشطف ذينك القميصين القديمين بواسطة المضخة وعلقهما على حبل غسيل والدتي، استعداداً لإحراقهما. كنت متأكّداً من ذلك. كانا ملطّخين وقد ضربتهما الصفرة، وكان منظرهما رهيباً وهما يتأرجحان على حبل الغسيل. بدوا مضروبين ومهانين، وقد علقا بالمقلوب على نحو ما يعلق الغزال لكي يعدّ للسلخ. خرجت والدتي ونزعتهما عن الحبل. ففي تلك الأيام كان هنالك الكثير من الكبرياء في ما يخص منظر غسيل امرأة ما، ولاسيما البياضات. كان الغسيل عملاً شاقاً. ما كانت والدتي لتحلم بالحصول على عصّارة كهربائية أو خضّاضة. فكانت تفرك الغسيل على لوح غسيل فيصير بين يديها شديد البياض. كان الأمر مذهلاً حقاً. وجميع النسوة كنّ يفعلن ذلك كل يوم اثنين. وحين وصلت الكهرباء كن يشغّلن الكهرباء قبل الفجر ووقت العشاء للمساعدة في الأعمال المنزلية، وبضع ساعات إضافية أيام الاثنين

للمساعدة في الغسيل.

حسناً، لم تستطع والدتي تحمّل حال هذين القميصين الرثّين، ولم يكن السبب فحسب هو إحساسها الجارف بأن السكان عموماً يحكمون على شخصيتها من خلال ما يظهر على حبل غسيلها – وهو ما لا أستطيع الجزم بخطأه – لكن كان في فكرها ما هو أكثر من ذلك. كان لدى والدي قول أثير من الكتاب المقدَّس «لأن كل سلاح المتسلّح في الوغى وكلّ رداء مدحرج في الدماء يكون في الحريق مأكلاً للنار» وكان هذا من سفر إشعياء 9: 5. لابدّ من أن والدتي استشعرت مقصده وأحسّت أنه ينطوي على قلة احترام. على كل حال، أخذت القميصين وفركتهما ونقعتهما طوال الليل وعرّضتهما للشمس ثم نقعتهما بمسحوق مبيّض حتى بدوا مقبولين ما عدا لطخات قلية سوداء قالت إنها لطخات من الحبر الهندي، وبعض بقع الدم البنية. ثم نشرتهما تحت العريشة لكي لا يراهما أحد. ثم أدخلتهما إلى البيت وكوتهما بعناية فائقة، مرتّلة وهي تفعل ذلك، وحين انتهت بدوا مقبولين بقدر ما تسمح بذلك اللطخ المتبقية عليهما. ثم طوتهما – كانا شديدي البياض بحيث بدوا مثل تمثالين من رخام – ووضعتهما داخل كيس طحين، ثم دفنتهما قرب السياج، تحت الأزهار. لم يكن والدايّ متفقين في الرأي على الدوام.

ينبغي أن أقوم ببعض الحفر لأرى ما إذا كان قد بقي شيء من هذين القميصين. سيكون محزناً أن يكونا تركا كالقمامة بعد كل الجهد الذي بذلته. أظن شخصياً أنه كان يستحسن حرقهما.

استجمعت شجاعتي لكي أسأل والدي ما إذا كان جدي قد ارتكب خطأ ما وقال لي: «الرب الكريم سيحكم على ما فعله»، الأمر الذي تركني معتقداً أن ثمة جريمة ما متعلقة بالأمر. هناك صورة فوتوغرافية لجدي في مكان ما من البيت، وقد التقطت له في شيخوخته، وقد تساعدك على أن تفهم لماذا فكّرت كذلك. إنها تمثّل شبهاً جيداً به. تظهر هرماً هزيلاً أشعث الشعر ذا عين واحدة ولحية معقوفة، مثل فرشاة طلاء تركت تجفّ مغمّسة بالورنيش، يحدّق بالكاميرا كأنها اتهمته بفعل شيء رهيب فجأة، وما زال يفكّر كيف يردّ تاركاً السؤال معلقاً بشراسة نظرته المحض. بالطبع هناك ذنب كاف في أفضل الحيوات تفسّر نظرة كهذه النظرة.

فكنت ميالاً إلى الظنّ أن جدي ارتكب شيئاً فظيعاً وأن والدي كان يخفي الدليل، وكنت شريكاً في السرّ أيضا، متورطاً دون أن أعرف بماذا؟ حسناً هذا هو الشرط الإنساني على ما أظن. أظن أنني كنت متورطاً، وأنا متورّط، وكنت سأكون كذلك ولو لم أر المسدس قط. فقد علمتني التجربة أن الذنب يمكن أن يخترق أصغر شقّ ويغطي الأرض كلها، ويلبث في بركه وظلمته، كما الماء تماماً. أظن أن والدي كان يغطّي جريمة قايين بطريقة أو أخرى. وما حدث في كنساس يقف وراء الأمر برمته، مثلما كنت أعلم منذ البداية.

بعد مقتل المزارع، بات جميع الصبية الذين أعرفهم يخشون حلب الأبقار. فإذا فعلوا ذلك فعبر وضع البقرة بينهم وبين الباب، في حال

أذعنت لهم البقرة، لكن الأبقار نيّقة في مثل هذه الأمور وغالباً لم تكن تستجيب لهم. فكان الإخوة الصغار والكلاب يقفون خارج باب الحظيرة في العتمة لكي يراقبوا مجيء الغرباء. واستمرّ هذا طوال سنوات، والقصة تنقل إلى الإخوة الأصغر، حتى بات أياً كان من ارتكب الجريمة شخصاً طاعناً في السن. وقد اضطر والدي إلى تولي أمر حلب البقرة لأن أخي كان يستعجل في ذلك حتى باتت البقرة أقلّ مدراراً من قبل. ثم شاعت قصة أن أحدهم يختبئ في قنّ الدجاج، فبات جميع الأولاد يخشون الإتيان بالبيض، فكانوا إما يحطمونها وإما لا يرونها في حال دخلوا إلى القنّ وهذا بسبب استعجالهم الخروج. ثم شوهد أحدهم مختبئاً في سقيفة حطب وقبو الخضار والعلية. كان مذهلاً التغيير الذي طرأ على المكان، وكيف استمر بين الأولاد لاسيما الصغار منهم، ممن لا يذكرون زمن ما قبل الجريمة ويعتقدون أن كلّ هذا الخوف أمر طبيعي فحسب. كانت الأعمال المنزلية مهمة حقاً في تلك الأيام، وإذا ما خسرت كل مزرعة في ثلاث أو أربع مقاطعات نصف ليتر من الحليب وبعض البيض كل يوم أو اثنين طوال عشرين عاماً، فلكان الرقم كبيراً. لا أعرف إذا كان الأطفال ما زالوا يسمعون نسخاً جديدة من تلك القصة القديمة، وما زالوا يخشون القيام بواجباتهم، وفي تجفيف الخيرات المحلية.

ليس منا من لم يولي الأدبار مذعوراً من حظيرة أو سقيفة، حين تراءى له ظلّ ما يتحرك أو سمع خبطة ما، فكان دائماً هناك المزيد من القصص التي تروى. أتذكر ذات مرة أن لويزا قالت إنه يجدر بنا أن نصلي لكي

يهتدي القاتل إلى جادة الصواب. كانت فكرتها أنه يستحسن الذهاب إلى أصل المشكلة بدلاً من الصلاة لكي يحصل تدخّل إلهي لصالح كل واحد منا عند كلّ خطر محتمل. وقالت إن هذا من شأنه أيضاً حماية الناس الذين لم يسمعوا به قطّ ولم يفكروا بالصلاة قبل الذهاب إلى حلب الأبقار. وقد صدمنا كلامها كأمر حكيم يشبه أقوال أهلنا وصلينا للقاتل سراً، ووحده الرب يعرف مدى تأثير صلواتنا. لكن إذا سمعت أنت أو طوبياس هذه القصة، أعدكما أن الشرير قد بلغ المئة في هذا الوقت، ولم يعد يشكّل خطراً على أحد.

تناهى إلى علمي القليل عن القميصين والمسدس بسبب شجار شهدته مرة بين والدي وجدي. وقف جدي – الذي كان بالطبع يرافقنا إلى الكنيسة – وخرج بعد خمس دقائق من بدء والدي بعظته. كان النص على ما أذكر «تأمّلوا الزنابق كيف تنمو»[1]. أرسلتني والدتي لكي أبحث عن جدي. ورأيته يمشي في الطريق فتبعته، لكنه حجدني بعينه تلك وأمرني «عد إلى حيث تنتمي!». فانصعت لأمره.

عاد إلى البيت بعد الغداء. دخل إلى المطبخ حيث كنت ووالدتي نرتّب الأشياء وقطع لنفسه قطعة من الخبز وكان موشكاً على الخروج ثانية دون أن يخاطبنا بكلمة. لكنّ والدي صعد درجات الشرفة عندئذ

(1) إنجيل لوقا، 12: 27، «تأملوا الزنابق كيف تنمو: لا تتعب ولا تغزل، ولكن أقول لكم: ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها».

ووقف هناك عند الباب شاخصاً نحوه.

قال جدي حين رآه: «أيها الموقّر».

فقال والدي: «أيها الموقّر».

قالت والدتي: «إنه يوم الأحد. إنه يوم الربّ. إنه يوم الراحة».

قال والدي: «ندرك جميعاً ذلك». لكنه لم يبتعد عن الباب. فقالت لجدي «اجلس وسأعدّ لك طبقاً. لن تقيتك كسرة خبز».

وجلس فعلاً. فدخل والدي وجلس قبالته. وظلا صامتين لبعض الوقت.

ثم قال والدي: «هل أهانتك عظتي بصورة من الصور؟ تلك الكلمات القليلة التي سمعتها منها؟».

هزّ جدي كتفيه: «ليس فيها ما يهين. لكنني أردت سماع بعض الوعظ فحسب. فذهبت إلى كنيسة الزنوج».

بعد دقيقة سأله والدي: «حسناً، أسمعت بعض الوعظ؟».

هزّ جدي كتفيه: «كان المقطع هو: أَحِبُّوا أعداءَكم[1]».

قال والدي: «يبدو لي نصاً ممتازاً في ظلّ الظروف». كان هذا مباشرة بعد أن قام أحدهم بمحاولة حرق كنيسة السود التي ذكرتها آنفاً.

قال الرجل الهرم: «إنه مسيحي جداً».

قال والدي: «يبدو أنك تشعر بخيبة الأمل أيها الموقّر».

وضع جدي رأسه بين يديه وقال: «أيها الموقّر، ليس من كلمات يمكنها أن تكون قاسية كفاية، ولا يوم يمكن أن يكون طويلاً كفاية.

(1) «أَحِبُّوا أعداءَكم وصَلُّوا مِن أَجلِ مُضطَهِديكُم»، متى 5:44.

لا نهاية للأمر فحسب. خيبة الأمل. أنا آكلها وأشربها. أصحو وأنام عليها».

كانت شفتا والدي شاحبتين. قال «حسناً أيها الموقّر، أعرف أنك وضعت آمالاً عريضة على تلك الحرب. لكنّ آمالي تكمن في السلام، ولا أشعر بخيبة الأمل. لأن السلام هو جائزته الخاصة. والسلام هو تبريره الخاص».

قال جدّي: «وهذا بالضبط ما يوجع قلبي أيها الموقّر. أن الرب لم يأت إليك يوماً. وأن الملاك لم يلامس شفتيك بجمرة...»[1].

نهض والدي عن كرسيه. قال «أتذكّر حين اعتليت المنبر بذلك القميص الرهيب الملطّخ بالدماء، واضعاً ذلك المسدس في حزامك. وقد راودتني فكرة توازي أي رؤيا من حيث القوة وهي أن هذا لا علاقة له البتة بالمسيح. البتة. البتة. وقد كنت وما زلت واثقاً من هذا تمام الثقة كما يثق أي شخص بما يسمّى رؤيا. ولن أذعن أمام أحد في قناعتي هذه. لا أمامك ولا أمام بطرس ولا الرسل ولا يوحنا المقدّس أيها الموقّر».

قال والدي: «ما يسمى رؤيا! الرب يقف بجانبي، وهو حقيقي أكثر مئة مرة منك وأنت شاخص أمامي!».

بعد دقيقة قال والدي «لا احد يشك بهذا أيها الموقّر».

وكان هذا الحديث بمثابة هوّة حقيقية بينهما. ولم يمرّ وقت طويل

(1) «فطار اليّ واحد من السرافيم وبيده جمرة قد أخذها بملقط من على المذبح، ومسّ بها فمي وقال إن هذه قد مسّت شفتيك فانتزع إثمك وكفّر عن خطيتك»، إشعياء، 6: 6.

حتى رحل جدي. وترك ملحوظة على طاولة المطبخ تقول:

لا الخير أتى ولا الشرّ انتهى.

هذه نتيجة السلام الذي تتحدّث عنه.

بلا رؤيا يبيد الناس.

فليحفظك الرب ويرعاك».

ما زالت هذه الملحوظة لدي. حفظتها بين طيّات كتاب مقدّس.

لكنني كنت أشاهد والدي يعظ عن دم قابيل وهو يصرخ من الأرض، وأتساءل كيف يأتيَ على ذكر الأمر على ذاك النحو. وعلى الرغم من أنني أجلّ أبي إجلالاً عظيماً فقد كنت مقتنعاً بأنه يجدر به أن يخفي ذنب والده، مثلما يجدر بي أيضاً أن أخفي ذنب والدي. أحببته بأشدّ العواطف بؤساً وغرابة حين وقف هناك يعظ كيف أن الربّ يكره الشرّ وكيف أن كل شيء، في نهاية المطاف، سينكشف أمام نور الحقيقة الساطع.

مع مرور الزمن علمت أن جدي كان متورطاً أشدّ التورّط في العنف الذي شهدته كنساس قبل الحرب. وكما قلت كانت الحرب مصدر نزاع بين الاثنين، إلى حدّ أنهما اتفقا على عدم الإتيان على ذكر كنساس على الإطلاق. فأظنّ أن والدي اشمئز لاكتشافه أن تلك التذكارات، إذا

جاز القول، قد تركت في منزله. كان هذا قبل انتقالنا إلى كنساس لكي نعثر على قبر العجوز (الهرم). أظن أن ذلك الغضب العنيف من والده هو من الأمور التي شعر والدي بحاجة شديدة للتوبة عنها.

لكن والدي كان يكره الحرب فعلاً. كاد يموت في العام 1914 بسبب فقر الدم، وقال الأطباء إن ذلك بلا ريب بفعل الغضب والانفعال. فقد عمّت الاحتفالات أوروبا قاطبة في بداية الحرب، وكأن أروع شيء يوشك على الحدوث. وكان هناك احتفالات كبيرة هنا أيضاً عندما تورّطنا في الحرب. مسيرات وفرق احتفالية. على الرغم من علمنا المسبق أنه لمن المزري أن نرسل الجنود إلى الحرب. لم أقرأ الصحيفة طوال أربع سنوات دون أن أشعر بالشفقة على والدي. فقد شهد المواجهات في كنساس، ثم انخرط والده في الجيش. وفعل ذلك أخيراً قبل انتهائها. كان لديه أربعة شقيقات وشقيق واحد أصغر منه، ولم تكن أمه بصحة جيدة. وماتت باكراً، في بداية الأربعينيات، وتركت كل هؤلاء الأطفال لكي يعتنوا بأنفسهم ولكي يعتني بهم والدهم ووالدي والجيران والأرواح اللطيفة في الرعية، أو ما تبقّى منها. شقيقه، عمي إدوارد، ولى الأدبار، أو هذا ما أملوه. على الأقل اختفى ولم يجدوه البتة في خضم الفوضى التي كانت قائمة. وقد سمّي تيمناً بعالم اللاهوت جوناثان إدواردز، الذي كان موقّراً جداً في جيل جدي. وسمّي شقيقي إدوارد تيمناً بعمي، مع إضافة حرف الزاي في نهاية اسمه، لكن شقيقي لم يحب هذا الحرف أبداً فأسقطه من اسمه حين ذهب إلى الكلية.

جاءت غلوري لكي تخبرني أن جاك بوتون وصل إلى البيت، وأنه يتناول العشاء في منزل والده هذه الليلة. وسوف يمرّ لزيارتي خلال اليوم أو اليومين المقبلين. أشعر بالشكر لهذا على هذا الإنذار. وسوف أستفيد من الوقت لكيّ أجهّز نفسي. وقد أسماه بوتون تيمناً بي لأنه ظنّ أنني لن أرزق بابن آخر على الإطلاق. كان ذلك بالغ اللطف منه. كما حصل، بعد أربعة عشر شهراً أنعم الله عليه ولداً آخر. ثيودور دوايت ويلد بوتون، الذي حصل على شهادة في الطب ودكتوراه في اللاهوت، ويدير مشفى للمعوزين في مكان ما من مسيسيبي. وهو رصيد عظيم للعائلة. قال جاك مرة إنه مسرور لأنه ليس الوحيد الذي نشر اسمه في الصحيفة. وكانت تلك مزحة مريرة لوالديه، أخذاً في الاعتبار صعوبة الإحراج الذي عرضهما له. وكان الأمر أكثر صعوبة عليهما بسبب تلك الطريقة التي لديهم بطباعة الاسم كاملاً. دائماً كان جون آيمز بوتون.

في أثناء ترحالي ووالدي في كنساس، أخبرني الكثير من الأمور، جزئياً على سبيل تمرير الوقت، على ما أظن، وجزئياً لكي يفسّر قدر ما يستطيع لماذا يظنّ أن والده عاد إلى هنا، وجزئياً أيضاً لماذا نحن بحاجة إلى العثور عليه، بالأحرى على قبره. قال والدي إنه في الأيام التي تلت عودته من

الحرب، اعتاد أن يذهب ويخالط «الكوايكرز»[1] في «السبت». قال إن كنيسة والده كانت نصف فارغة، ومعظم الناس هناك كنّ من الأرامل والأيتام والأمهات الثكالى. بعض الرجال جلبوا معهم الأمراض من المعسكرات، «حمى المعسكرات»، كما كانت تسمّى، وعانت عائلاتهم منها. بعض الجنود كانوا في «أندرسونفيل»[2] وعادوا تقريباً دونما أمل بالإنقاذ. قال إن معظم القبور في باحة الكنيسة كانت جديدة. وكان هنالك والده، يعظ كلّ أحد عن الحق الإلهي الذي ينعكس في كلّ ما يجري. وكان هذا يدفع العجائز من النساء إلى النحيب، ثم يشترك معهن الأطفال. لم يكن قادراً على تحمّل ذلك.

الآن، حاولت أن أتخيّل نفسي في مكان جدي. لا أعرف أي شيء آخر كان يمكنه قوله، أي شيء آخر كان سيعتبره الحقيقة. وقد وعظ بالفعل مشجعاً أولئك الشبان على الانخراط في الحرب. وتلك الكنيسة تعرّضت لضربات قاسية. وقد اشتركوا في الحرب منذ البداية وظلوا حتى النهاية، فتمكّن الكونفدراليون من إصابة كثر منهم. وقد انضم إليهم هو الآخر على الرغم من أنه كان في أربعينياته. وفقد تلك العين،

(1) Quakers: في الأصل «رابطة الأصدقاء االدينية» وتعرف باسم «كوايكرز» و«الأصدقاء»، وقد تأسست هذه المجموعة أو الطائفة في إنجلترا في القرن السابع عشر على يد جورج فوكس، ويعتقد أتباعها بأن المؤمن لا يحتاج إلى أيّ وساطة في علاقته بالرب كالقساوسة والكهنة وما شابه. كما يقفون موقفاً مناهضاً للحرب.

(2) Andersonville: مدينة في مقاطعة سومتر بولاية فرجينيا. لا يزيد عدد سكانها اليوم عن 331 نسمة، لكنها تتخذ أهميتها في التاريخ الأمريكي لكونها كانت موقع معسكر اعتقال أسرى الحرب في خلال الحرب الأهلية الأمريكية والذي أصبح اليوم «المتحف الوطني التاريخي».

وحين عاد كان قد بات معتاداً على فقدانها إلى درجة أنه نسي إعلام أسرته بذلك. لكن كان من الشائع أن تحصل على جرح أو ندبة بعد تلك الحرب. وكان هناك الكثير من الأطراف المبتورة. ولطالما رأيت في صباي متقدمين في السن بلا أذرع أو أرجل. على الأقل بدوا عجائز متقدمين في السن في نظري وقتذاك.

كان عملاً مشرفاً من قبل جدي أن يعود إلى رعيته ويبقى معها لكي يعتني بأولئك الأرامل والأيتام. وقد بدأ الميتوديون[1] آنذاك بإنشاء كنيسة واشتروا قطعة من الأرض في نهاية الشارع، وعليه، فلم تكن رعيته بحاجة إلى البقاء معه، وقد ترك بعضهم كنيستَه فعلاً، بحسب ما تفيد إحدى العظات التي دفنها والدي واستخرجها ثانية، وفيها يناقش الجاذبية الكبيرة التي ينطوي عليها الوعظ الميتودي وعلى فتوة القسّ الجديد الذي خدم لفترة وجيزة وإنما مشرفة قضية الاتحاد. وقد قرأت هذه العظة مرات عدة. أما بقية العظات فقد غطاها الحبر السائل، وباتت تصعب قراءتها.

كان السكان الجدد والشباب ينضمون إلى الميتوديين الذين صاروا ينظّمون لقاءات عند ضفة النهر، فتجد المئات منهم من كل الريف

(1) Methodism: كنيسة بروتستانتية نشأت عام 1729، بين شبان في جامعة أوكسفورد على أثر نهضة قامت في كنيسة إنجلترا، بمبادرة من الأخوين جون وشارل ويسلي، على نهج التقويّة الألمانية. تبنّت هذه الحركة المبدأ الأرميني رافضة مبدأ الاختيار المسبق ومقترحة على أتباعها «نظاماً» من التقوى والتأمّل العميق كرد فعل على التديّن الظاهري الذي كان يعمّ الكنيسة الإنجليكانية وقتذاك، ولهذا دعيت بالميتودية (Method= نظام). ترفض الميتودية أن تكون لها عقيدة خاصة، وهي تقوم أولاً وأخيراً على الخبرة الروحية التي يشعر بها الفرد شخصياً في عملية الاهتداء، وبذلك تتشارك في بعضٍ من سمات الصوفية.

محتشدين هناك، يصطادون السمك ويطبخون ويغسلون ملابسهم ويتزاورون حتى المساء. ثم تضاء الشعل ويبدأ الوعظ وإنشاد التراتيل حتى وقت متقدّم من المساء. وفي أيام الأحد كان جدي يفتح الأبواب والنوافذ لكي تسمع رعيته التراتيل الآتية من النهر. كان يحترم الميتوديين لأنهم تحمّلوا جزءاً كبيراً من أعباء الحرب. لم يكن يعتقد أنهم من النوع الذي سيعبأ بسلطة الأساقفة طويلاً.

أظنّ أنه عرف أنه لا يستطيع أن يبثّ بعظاته الحياة في كنيسة خسرت الكثير كما هي الحال مع كنيسته. وكان يؤجّر نفسه كرجل يقوم بأنواع الأعمال كافة، من ترميم السقوف والشرفات إلى تعليم الأطفال إلى ذبح الخنازير؛ كل ما يخطر لك على بال، لأن من تبقوا من رعيته ما كانوا قادرين على سداد أجرته بأكثر من دجاجة أو بعض حبات البطاطا لقاء خدماته تلك. وقد عمل معظم الأوقات بسبب الحاجة الماسّة إلى من يقوم بالعمل. فتجده يقطّع الحطب في أحد المنازل ويجزّ العشب في آخر، و«يعين الأيتام والأرامل» كما قال والدي (المزمور 146). وقد دأب على مراسلة وزارة الدفاع مطالباً بالتعويضات والمكافآت لهؤلاء النسوة، وهي إما لم تكن تأتي البتة وإما كانت تصل ببطء شديد. وينطوي هذا كله على مفارقة، لأنه هو وشقيقاته كانوا عملياً بلا أب، وكان مما يزيد الأمر صعوبة مرض أمهم وأنها لن تعيش طويلاً.

كان رجلاً بالغاً حينذاك، في مطلع عشرينياته، وقد بلغت اثنتان من شقيقاته سناً كافية من النضج، مما يمكنهم من تدبّر أمورهم جيداً لولا صحة أمهم الواهنة وآلامها الشديدة. أظنّ أنها كانت مصابة بالسرطان

أو ما شابه. وقد كان لديهم طبيب في البلدة لكنه التحق بالجيش ولم يره أحد بعد ذلك، وهناك من يقول إنه أصيب بشظية في رأسه لم يتعاف منها بعد ذلك. وعلى أي حال فالأطباء في تلك الأيام ما كانوا مفيدين في الكثير من الأمراض، وكل ما كانوا يداوون به هو الضمادات وزيت الأسماك ولصاقة الخردل والجبائر وغزر الجروح، أو البراندي.

وكانت الجارات تداوي أمه بالشاي بشاي البرسيم الأحمر الذي لا يلحق بها على الأرجح أي ضرر، كما قال والدي. كما قصصن لها شعرها لأنهن اعتقدن أنه يجفّف لها قوتها. وحين أرينها إياه مقصوصاً بكت أشدّ البكاء لأنها قالت إنه كان مصدر الفخر الوحيد في حياتها. ففي تلك الأيام، وحتى في طفولتي، كانت النسوة يبقين شعورهن طويلة لأنهن يشعرن أن الكتاب المقدّس يحثهنّ على ذلك ذلك (كورنثوس 11: 15)[1]. لكن الشعر كان يقص إذا مرضت إحداهن وكان هذا أمراً محزناً، نوعاً من الخزي الذي يلحق بالمرأة، ناهيك عن الأمور الشاقة الأخرى التي عليها عيشها. فكان الأمر قاسياً على أمه. وحين تكلّم والدي إلى والده عن مدى انخفاض روحها المعنوية قال له العجوز (الهرم) «أنت عدت من الحرب وكذلك أنا وكلانا ما زالت أطرافنا سليمة». وقد فسّر والدي ذلك على أنه يقصد أنه بما أن حزن أمه لم يكن فائضاً عن معدّل الأسى في المنطقة، فلا يسعه تخصيص أيّ وقت خاص له.

أظن أن أخطاء الموقّر العجوز كانت نتيجة نوع من الاجتهاد في

(1) رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس، الإصحاح الحادي عشر: «أم ليست الطبيعة نفسها تعلمكم أن الرجل إن كان يرخي شعره فهو عيب له؟ واما المرأة إن كانت ترخي شعرها فهو مجد لها، لأن الشعر قد أعطي لها عوض برقع».

المسائل الأخلاقية التي ينبغي تبنّيها أخيراً. فقد راودته الرؤى على مرّ السنين، وكانت جميعها تفرض عليها تطلبات شديدة، فكان أقلّ ميلاً من الآخرين للتراخي. فقد كتابه المقدس اليوناني خلال ذلك الانسحاب الجنوني عبر النهر، كما أسلفت، ولطالما شعرت باستعارة ما كامنة في هذا الأمر. فالمياه لم تنشق يوماً من أجله، ولا مرة في حياته، على قدر ما أعلم. لم يكن من نهاية للمشقات، ولا تخفيف من حدّتها أيضاً. بيد أنه كان بدوره يسعى إليها.

وقد أرسل إليه الكتاب المقدس بالبريد من ألاباما. لابدّ من أن أحد الجنود الكونفدراليين بذل جهداً لكي يسترده من النهر ثم استفسر عن اسم الكتيبة التي كانوا يلاحقونها ثم عن اسم القسّ الذي عمل على خدمتها. ربما كان هناك قدر ما من السخرية في هذه البادرة، لكن جرى تقديرها على أي حال. كان الكتاب خرباً تماماً. آمل أنه ما زال لديك. فهو من الأشياء التي تبدو من ظاهرها بلا أيّ قيمة على الإطلاق.

أظن أن الهرم كان ضيق الأفق في مسألة الرؤى. لعله، على سبيل المجاز، تعرّض لنور تجربته القوي بحيث فاته أن يدرك أن الشمس الساطعة تشرق على جميع البشر. ربما هذا الشيء الذي أودّ قوله لك. أحياناً الجانب الرؤيوي من أي يوم مخصوص يأتي إليك في ذكراه، أو يتفتّح لك مع مرور الزمن. على سبيل المثال، كلما حملت طفلاً لكي أعمّده، أفهم التجربة بعمق أكبر، وقد رأيت الكثير من الحياة، وبتّ أعرف على

نحو أفضل ما الذي يعنيه تثبيت قداسة الكائن البشري. يبدو أن هنالك رؤى تأتي إلينا في الذاكرة فحسب، كنوع من الاستعادة. هذا كلام الواعظ هنا، لكنه حقيقي.

زارني اليوم جون آيمز بوتون. كنتُ جالساً على الشرفة أقرأ الصحيفة عندما كانت والدتك تعتني بالزهور، ودخل من البوابة وصعد السلالم ماداً يده وراسماً ابتسامة على وجهه. قال: «كيف حالك يا بابا؟» – وهو ما كان يناديني به في طفولته بتشجيع من والديه على ما أظن. كنت أفضّل لي أن أظن ذلك. كان لديه سحر مبكّر، إذا كانت هذه الكلمة الصحيحة، وليس مستبعداً أن يكون استعمل هذا النداء من تلقاء نفسه. لكنني لم أشعر قطّ أنه يكنّ لي الإعجاب.
يصدمني فعلاً مدى شبهه بوالده، على الرغم من أنه في كلّ شيء جوهري آخر يفترق عنه كما يفترق الليل عن النهار. حين قدّم نفسه لوالدتك باسم جون آيمز بوتون، بدت متفاجئة بوضوح، وضحك هو. التفت نحوي وقال «أفترض أن الأيام الغابرة ليست بغابرة بعد، أيها الموقّر!». يا له من كلام يقوله! بيد أنني سهوت عن إخبارها بوجود كائن كهذا، أي سميي، ابني بالمعمودية، إلى هذا الحدّ أو ذاك. أنت كنت بين الأجمات تبحث عن «سوبي»، التي تختفي مدة طويلة وتمضي إلى موضع مجهول فتسبّب لك ولوالدتك الكثير من القلق. وحدث أنك اقتربت من المنزل عندئذ، حاملاً تلك القطة العجوز تحت إبطك. كانت

أذناها منبسطتين إلى الخلف وعيناها وحشيتين على أناة وذيلها يرتعش. وبدا جلياً أنها ستجري سريعاً ما أن تضعها أرضاً، وقد فعلت ذلك فعلاً ولم تلاحظ فرارها لأنك كنت تصافح جون آيمز بوتون، «يسرّني التعرف إليك أيها الأخ الصغير»، قال لك، واغتبطت كثيراً بهذا.

لم يخطر لي البتة أنك ووالدتك ستذهلان لكونه يحمل اسمي. وإلا كنت أنذرتكما من هذا الأمر.

ارتقى درج الشرفة، حاملاً قبعته بيده، مبتسماً كأننا نتشارك في دعابة قديمة، وقال: «تبدو رائعاً يا بابا!»، وفكّرت أن الكلمات الأولى التي ستخرج من فمه - بعد كلّ هذه السنوات - ستكون مراوغة، لكنني كنت أكابد نوعاً ما للنهوض عن أرجوحة الشرفة، وهو أمر ما كان ليشكّل مشكلة لولا أنه ليس في الأرجوحة ما يمكن التشبّث به، والقيام يفرض جهداً كبيراً على قلبي كما يقول الأطباء وكما اختبرت بنفسي. فكرت أنه من الأفضل ألا أموت هناك أمام أنظاركما أنتما الاثنان، تاركاً الهرم المسكين بوتون يتأمل حتمية الأمر برمته. إذن ها هو جاك بوتون يقف أمامي وقد ارتسمت على وجهه تلك النظرة، ويمسكني من مرفقي ليساعدني على الوقوف. وأقسم أن الأمر كان أشبه بالخطو مباشرة إلى حفرة، فقد كان أطول مما كنت عليه يوماً. بالطبع كنت أعرف أنني أفقد بعض الطول، لكن هذا كان أمراً بالغ السخف.

إنه أمر غريب جداً. في لحظة أنا مواطن محترم يستعرض آراء إيست

كيفوفر[1]، في حين كانت تشذِّب زوجته الرائعة نباتات «الزينية»[2] في الضوء الصباحي المعتدل وولده الفتيّ يأتي حاملاً بصورة خاطئة تلك القطة الشاردة «سوبي»، وقد عادت مرة أخرى من الهلاك مؤقتاً، لما كان سيكون احتفالاً عارماً بها. ومع أن الذباب كان يتسبب ببعض الإزعاج، لكن الضوء كان صافياً وكان هناك الكثير من الأمور المثيرة للاهتمام في الصحيفة. وكنت بخفي المنزلي بسبب آلام المفاصل. كان تقريباً صباحاً كاملاً. ثم يأتي جاك بوتون الذي هو نسخة طبق الأصل عن والده لناحية الشبه الجسدي، مع الشعر الأسود نفسه واللون الفاتح نفسه. إنه في مثل عمر والدتك. أتذكّر حين رفعت وجهها الحبيب نحوي لكي أعمّدها - رفعته إلى ضوء الصباح الخريفي، ضوء الثلج الجديد - وفكّرت إنها ليست مسنة ولا شابة، وكنت مذهولاً بها، وبالكاد تمكنت من رفع المياه إلى جبينها لأنها بدت أكثر من رائعة. كان الحزن جزءاً كبيراً من جمالها. وقد كبرت مع السنين، بعد إنجابك. لكنني لم أرها يوماً أكثر شباباً مما بدت عليه صبيحة اليوم.

حسناً، كان الضوء بهياً، وكانت في حديقتها، وأنت تجوس المكان على قدميك الحافيتين وبلا قميص والنمش يملأ كتفيك. وقد ربطت والدتك بخيط قطعة من «الهوت دوغ» تستعين بها في العثور استدراج

(1) Carey Estes Kefauver (1903–1963): سياسي أمريكي من الحزب الديمقراطي عرف بمناهضته للاقتصاد المركزي وسيطرة النخب السياسية على السلطة، وكان مؤيداً للمساواة العرقية.

(2) Zinnia: نوع من النبات جميل الزهر، سمي كذلك تيمناً بعالم لنباتات الألماني جوناثان غوتفريد زين.

«سوبي». وقد أسمت هذا الشيء «قصبة صيدك القططية»، وهو من الأمور السخيفة التي تحبها، فأمضيت الصباح باحثاً في الأجمات وحول المنزل في حين رحت أقرأ عن الحملة الانتخابية. أحد مسرّات هذه الأيام هو أنني ألاحظها جميعاً، دقيقة بدقيقة، وقد كان هذا يوماً جميلاً، حتى وجدت نفسي أرفع على قدميّ من قبل المدعو جاك بوتون هذا. ثم لمحت نظرة على وجه والدتك، وعلى وجهك أيضاً، عرفت أنه ليس سببها التباين بيننا. فأنتما لم تنتظرا حتى صبيحة اليوم حتى تدركا أنني هرم. لا أعرف ما كان هذا الذي رأيته، ولن أشغل بالي به كثيراً. فهو لم يرقني على الإطلاق.

لم يستطع البقاء لتناول القهوة. مضت الأمور على خير ما يرام. ثم مضى.

إذا ما امتدّ بي العمر حتى الانتخابات فسأصوّت لآيزنهاور[1].

كم أتمنى لو أنك عرفتني في أيام قوّتي.

كنت أتكلم على الرؤى. أتذكر ذات مرة حين كنت طفلاً ساعد والدي على هدم كنيسة احترقت. ضربت صاعقة قبة الكنيسة ثم وقع البرج على المبنى. وقد أمطرت يوم جئنا لكي نهدمها. بقي المنبر سليماً، واقفاً هناك في المطر لكنّ المقاعد الخشبية تحوّلت بأغلبها جمراً. وشكر الناس

(1) دوايت آيزنهاور (1890–1969): الرئيس الرابع والثلاثون للولايات المتحدة الأمريكية (1953–1961).

الربّ كثيراً لأن الحريق نشب في منتصف الليل في يوم ثلاثاء. انهمر المطر دافئاً كالطقس، ولم يكن هناك من وابل حقيقي، فتجاهله الناس، إلى هذا الحدّ أو ذاك. جاء شتى الأشخاص للمساعدة. كان الأمر أشبه بتخييم ونزهة. حلوا الجياد من العربات، ونحن صغار الأولاد قعدنا فوق حرام قديم تحت العربة، بعيداً من الدرب، وتحادثنا ولعبنا الكلة، وشاهدنا الفتية الأكبر والرجال يخوضون بجهد بين الركام، باحثين عن نسخ من الكتاب المقدَّس وكتب التراتيل، مرتّلين جميعاً «يسوع المبارك» و«الصليب القديم القاسي»[1] والريح تقذف المطر في هبات ويصل إلينا رذاذ أبرد من المطر. أما المطر الساقط على العربة فبدا ينهمر على طنف عليّة. ما عادت تمطر البتة، اكنني أذكر ذلك اليوم. وحين جمعوا الكتب التالفة حفروا حفرتين ووضعوا نسخ الكتاب المقدَّس في حفرة وكتب التراتيل في الثانية، ثم تلا الكاهن الذي كان معمدانياً على ما أذكر، الصلاة فوق الكتب. لطالما ذهلت، وأنا أشاهد البالغين، كيف يبدون عارفين بما ينبغي فعله في أيّ وضع من الأوضاع.

وضعت النسوة الفطائر والكعك التي جلبنها معهن والكتب التي ما زال ممكناً استعمالها في عربتنا ثم غطينها بالألواح الخشبية والأسمال. كان الطعام مبللاً. ويبدو أن أحداً لم يفكّر أنها ستمطر. وكان الحصاد وشيكاً، فكانوا سينشغلون كثيراً إلى درجة تصعب عندها عودتهم في يوم آخر. وضعوا المنبر تحت شجرة وغطوه ببطانية جواد، وأنقذوا ما يمكن إنقاذه من الألواح الخشبية والمسامير ثم هدموا كل ما بقي واقفاً،

(1) ترتيلتان قديمتان.

لكي يوقدوا نيراناً حين يجفّ كلّ شيء. تحوّل الرماد سائلاً في المطر وصار الرجال الذين يعملون بين الخرائب سوداً ومزري الأشكال، حتى بات يصعب تمييز أحدهم عن الآخر. أحضر لي والدي بعض البسكويت الذي تبقّع ببعض السخام من يديه وقال لي «لا عليك، ليس هنالك أنظف من الرماد». لكنه أفسد طعم البسكويت، الذي حسبته سيكون شبيهاً بطعم «خبز المحن»[1] الذي غالباً ما كان يؤتى على ذكره في تلك الأيام، وإن طواه النسيان اليوم.

«غريبة هي فوائد المحن»[2]. هذا صحيح. حين أكون هنا في حجرة مكتبتي والمذياع يعمل وبين يديّ كتاب قديم ما ويكون ليل وتهبّ الريح ويصدر المنزل صوت صرير، أنسى مكاني، وكأنني لدقيقة أو اثنتين أعود إلى تلك الأيام الشاقة، وثمة عذوبة لا أفهمها في هذه التجربة، لكنها تعزّز قيمتها فحسب. ما أقصد قوله هو أنك لا تعرف حقاً الطبيعة الفعلية حتى لتجربتك الخاصة. أو ربما ليس لها طبيعة ثابتة ونهائية. أتذكّر والدي جاثياً على ركبتيه في المطر، والمياه تقطر من قبعته، ويطعمني البسكويت من يده المليئة بالسخام، وخلفه تلك الكنيسة الخربة المتفحّمة والبخار يصعد حيث يسقط المطر على الجمرات، المطر يهطل في هبّات والنسوة يرتلن «الصليب القديم الخشن» وهنّ يهتممن بالأمور، ويتحركن بعذوبة شديدة، كأنهن يرقصن مع الترتيلة. في تلك

(1) الكتاب المقدس، سفر الملوك الأول (22: 27): «وقل هكذا قال الملك: ضعوا هذا في السجن، وأطعموه خبز الضيق وماء الضيق حتى آتي بسلام».

(2) اقتباس غير دقيق، لكن ربما مقصود من الكاتبة، إذ العبارة بالأصل «عذبة هي فوائد المحن» من مسرحية «كما تهوى» لشكسبير، والكاتبة تأتي بعد قليل على ذكر كلمة العذوبة.

الأيام لم يكن من امرأة بالغة تسمح بأن يراها أحد وشعرها محلول، ولكن في ذلك اليوم حتى النسوة العجائز تركن شعورهن تنسدل على ظهورهن كالتلميذات. كان هذا مبهجاً وحزيناً في آن. أذكره ثانية لأنني أشعر أن الكثير من حياتي قد انطوت عليه تلك اللحظة. ولطالما أعادني الأسى إلى صبيحة ذلك اليوم، حين تناولت القربان المقدس من يد والدي. أتذكره قرباناً مُقدَّساً، وأحسبه كان كذلك.

لا أستطيع أن أخبرك ما الذي عناه لي ذلك اليوم في المطر. ولا أن أخبر نفسي بمعناه عندي. لكنني أعرف كيف أن الأشياء، في لك اليوم، تآلفت معاً بما لا يدع مجالاً للشك، بالنسبة لي.
الآن جميع النسوة العجائز يقصّرن شعورهن ويصبغنها باللون الأزرق، ولا بأس بهذا على ما أظن.

كلما حملت نسخة من الكتاب المقدَّس تذكرت يوم دفنوا تلك الكتب المحترقة تحت الشجرة في المطر، وأشعر أن الكتاب المقدَّس الذي أحمله تمنحه تلك اللحظة قداسته. وأتذكّر الموقّر الهرم نفسه وهو يعظ بين خرائب كنيسته، وقد شرعت جميع النوافذ لكي يسمع القلة الذين كانوا هناك ترتيلة «الصليب القديم الخشن» المنبعثة من اجتماع الميتوديين. وكنيستي نفسها تطهّرت بقصة رويت لي. أتذكر قول والدي حين

عادا إلى الديار، أنهما وجدا سقف الكنيسة متضرراً إلى حدّ أنه وضعت طسوت ودلاء في الممر وعلى المقاعد. وقال إن النسوة ينوين زرع نباتات متسلِّقة على جدارن البناء وعلى طول السياج، بحيث يبدو أجمل مما كان عليه يوماً. لقد عادت الخضرة إلى الحقول والبساتين وبدأت زهور عباد الشمس تنبت على الطرقات بين الحفر. ودأبت النسوة على لقاءات الصلوات ودراسة الكتاب المقدّس على الرغم من أن الكنيسة كانت تتداعى حولهن. أفكّر في ذلك، فأمتلئ غبطة. أعتقد حقاً أنه من الإسراف والجحود ألا نكرم أموراً كهذه بوصفها رؤى، سواء أرأيناها رأي العين أم لم نرها.

يذكّرني هذا بالطريقة التي كنا حريصين فيها بعض الشيء على أن نقترب من الرجل الهرم من الجهة اليمنى دائماً، فقد كانت عينه اليمنى التي لا يبصر فيها، وكان لدينا انطباع أن الرؤى تأتيه من تلك الناحية. لم يحدّثنا عن عينيه كثيراً، اعتقاداً منه بخطأ موقفنا من الأمر برمته. ومع ذلك فقد حاولنا أن نتصرّف باحترام حيال الأمر. فكانت والدتي أحياناً، لدى عودتي إلى البيت من المدرسة، توافيني على الشرفة الخلفية وتخبرني هامسة: «الرب على الشرفة الأمامية». فأخلع الحذاء وأدخل منسلاً إلى البيت وأختلس النظر من باب الرواق فأجد الرجل الهرم جالساً هناك على الطرف الأيسر من الكنبة، ويبدو عليه اللطف وحسّ المجاملة والرضى العميق، ويتناهى إلى سمعي من حين لحين صوته وهو يقول:

«أفهم وجهة نظرك»، أو «طالما شعرت هكذا أنا أيضاً». ولبضعة أيام بعد ذلك يكون الرجل الهرم مشعاً ومصمماً وأكثر علانية في سرقاته.
ذات مرة أخبرنا على العشاء «عصر اليوم التقيت الرب عند النهر، وبدأنا نتحادث، كما تعلمون، واقترح فكرة وجدتها مثيرة للاهتمام. قال: يا جون، لِمَ لا تعود إلى البيت وتشيخ فحسب؟ لكن كان عليّ أن أقول له أنني لست واثقاً من أنني مستعد لهذه الرحلة».

فقالت والدتي: «لكنك في البيت يا أبتاه. لعله قصد أن تخفّف الأمور عن كاهلك بعض الشيء».

فأجاب الرجل الهرم: «حسناً، حسناً...». واستغرق من جديد في توهّجه وفي أفكاره، اياً تكن تلك الأفكار.

وقال والدي بعد ذلك إذا كان الرجل الهرم مقتنعاً بأن الرب يريده أن يعود إلى كنساس فليس ثمة ما يمكننا فعله لكي نجعله يعدل عن قراره. كان مهماً بالنسبة إليه أن يصدق ذلك، وإن كنت لا أظن أنه صدقه يوماً.

ذات يوم في طريقي إلى المدرسة رأيت بعض الأولاد يضايقون جدّي، كأنه مجرد رجل هرم أعجف يقطف التوت البري ويضعها في قبعته، مومئاً برأسه قليلاً ومتكلماً قليلاً بينما (وهو) يفعل ذلك. كانوا يقتربون منه من تلك الناحية اليمنى ويلمسون ذراعه، ويجذبون طرف معطفه. وحين يفعلون ذلك يجعله هذا يومئ ويتكلم، فيضعون أيديهم على

أفواههم ويولون الأدبار.

وقد ذهلت لرؤيتي هذا. أدرك الآن كم أنني كنت أعتقد، بمعنى من المعاني، أنه ثمة نوع من القداسة في جانبه الأيمن، وقد صدمني فعلاً أن أولئك الأطفال اخترقوا هذه القداسة بفعلهم هذا. وقد وقفت هناك، مراقباً المشهد، محاولاً أن أقرر ماذا أفعل، حين التفت العجوز وصوّب نظرته نحوي. ولم أفهم البتة كيف علم بوجودي هناك، وبأنني خنته بموقفي الحيادي ذاك. شعرت بعدم الإنصاف تجاهي وفتذاك، لكنني لم أتمكن من صرف النظر عما جرى. لم أستطع أن أقول لنفسي إنه مجرّد خطأ، وإنه لا ينطوي على شيء.

حسناً، سأعترف بأنني كنت أشعر ببعض الحرج منه. وربما يكون حتى شعوراً بالخزي. ولم تكن المرة الأولى التي شعرت بها بذلك أيضاً. لكنني كنت مجرد طفل، ويبدو لي أنه قد سمح بذلك إلى حدّ ما. أولئك الناس الذين يمكنهم النظر من خلالك لا ينصفونك البتة، لأنهم لا يمنحونك الفضل على الجهد الذي تبذله لكي تكون أفضل مما أنت عليه في الواقع، وهو أمر صعب وحسن النية ويستحق بعض التقدير.

أستطيع أن أقول أيضاً أنه كان أمراً مؤذياً لنا جميعاً رحيله على نحو ما فعل. أدركنا أن سلكوه هذا انطوى على إدانة ما، ومهما قلنا دفاعاً عن أنفسنا وبيّنا حسن نوايانا، فكنا نعرف أنها أسباب تافهة بنظره، وهذا جعلها تافهة قليلاً بنظرنا نحن أيضاً. أخذ الكثير معه حين رحل.

قال والدي إن أول ما رآه حين دخل إلى كنيسة والده بعد عودته من الجيش هو مطرّزة معلقة على الجدار فوق نضد المناولة. كانت رائعة التصميم، تتضمن زهوراً وشعلاً تحيط بكلمات «الرب ربنا هو نار مطهّرة». أظن أنه لهذا السبب لطالما فكّرت أن كنيسة جدي هي التي ضربتها الصاعقة. وفي واقع الأمر هذا ما حدث.

وقال والدي إن هذه الراية هي التي دفعته للانضمام إلى «الكوايكرز». قال إن الكلمة الأخيرة – بعد أن تأملها كفاية – تنطبق على الحرب، وقد أرعبه احتمال أن تصدّق تلك النسوة أن العالم أصبح أكثر نقاء بأي حال من الأحوال بعد خسارتهن أبناءهن وأزواجهن. وقف هناك ينظر إليها باستياء جليّ، لأن إحدى النسوة قالت له «إنها مجرد آية من الكتاب المقدّس».

قال لها: «أستمحيك عذراً يا سيدتي. لا، هذا ليس الكتاب المقدّس».

قالت: «حسناً، فإذن بالتأكيد يجب أن تكون كذلك».

وبالطبع كان يفوق احتماله أنها فكرت مثل هذه الفكرة. ومع ذلك إن لم تكن هذه الكلمات موجودة بهذه الدقة في الكتاب المقدّس، فهناك فقرات يمكن أن يقال إنها تلخّص جيداً هذه الفكرة. قد يكون هذا كلّ ما قصدت قوله.

لطالما تمنيت لو أنني رأيت هذه الراية، إذا كان اسمها كذلك. قال إنه كان هناك تصاوير لملاكين على جانبيها، وأجنحتهما مندفعة إلى الأمام كما في التصاوير القديمة، وحيث ينبغي أن يكون تابوت العهد كانت

تلك الكلمات الحارقة وشعلات من النار تحيط بها الزهور. أتساءل كيف وجدت النسوة المواد لتطريزها، كم قصوا من أقمشتهن القليلة لكي يصنعوا شيئاً كهذا. ولطالما تساءلت عما حدث لها. الأشياء المادية شديدة العرضة لإذلال التحلّل، ولكن هناك بعض الأشياء التي أتمنى فعلاً لو لا تزول.

واحدة بعد الأخرى، حين علمت تلك النسوة أنهن ترمّلن، عدن إلى عائلاتهن في الشرق. ليس جميعهن، لكن الكثير منهن. . بعضهن دفنّ أزواجهن وأطفالهن قرب الكنيسة، فشعرن أنهن غير قادرات على المغادرة. وبعض من غادرن عدن ثانية، ولو بعد سنوات. ومع ذلك تناقصت الرعية في نهاية الأمر، واشترى «الميتوديون» الأرض وأحرقوا المبنى القديم وهدموه لأنه لم يكن ممكناً ترميمه.

تكلم والدي مرة في إحدى عظاته عن ندمه على الأوقات التي تلت الحرب التي ذهب فيها لمخالطة «الكوايكرز» في حين يكابد والده لمؤاساة البقية المتبقية من رعيته. قال في تلك الأيام إن والده فتح جميع النوافذ التي ظلّت قابلة للفتح، لكي يسمعوا التراتيل المنبعثة من النهر، وإن بعض النسوة كن يشاركن في الترتيل إذا كانت الترتيلة «الصليب القديم الخشن» أو «صخرة الأزمنة» ولو جاء ذلك في وسط العظة، فيتوقف عن الوعظ ويصغي إليهن. وقال إن رائحة الريح بدت مثل تربة مقلوبة بسبب القبور الجديدة، ومع ذلك فقد تذكر الناس بعد ذلك

صباحات الأحد تلك وأصائل الأربعاء على أنها شيء بهيج. وكانت ثمة مسحة من الرقة في أصواتهم حين يأتون على ذكرها. قال والدي إنه ندم وتاب على كل حياته منذ ذلك الوقت لكن ليس بما فيه الكفاية، لأنه في البداية الابتعاد بدا فعلاً مبدئياً تقريباً. وقد خطب أبوه في الناس مشجعاً إياهم على الحرب، قائلاً إنه طالما هناك عبودية فلن يكون سلام، بل حرب يشنّها المسلحون والأقوياء ضدّ العزل الضعفاء. وقال إن السلام سيحلّ فقط حين تنتهي تلك الحرب، لأن رب السلام يدعونا لإنهائها. قال هذا كله والمسدس في حزامه. وردّ جميع الحاضرين آمين، بمن فيهم الأطفال والأولاد.

عدت إلى البيت للغداء اليوم ووجدتك تلعب بالكرة في الشارع مع جاك بوتون. كنت تضع قفازه، وهو قفاز جديد جيد يكاد يصل إلى مرفقك، وكان هو يضع قفاز إدوارد القديم الذي أحتفظ به في مكتبي. وهو لا يحتوي على شريط لعقده. إنه سهو مني أنني لم أشتر لك قفازاً يخصك. سأتدبَّر الأمر.

كان بوتون الشاب يعلمك التقاط الكرات المنخفضة، ربما لأنه لم يكن في وسعك التقاط الكرات العالية بأيّ حال. كنتَ متحمساً حيال الأمر برمته، تركض هنا وهناك بذينك الساقين الرشيقتين، وكان يقول «هيا، هيا»، ضارباً على قفازه، ثم قال محاكياً صوت معلق رياضي «إنه يركض الدورة الثانية أيها السادة، فهل سيتمكن من الرمي في الوقت

المناسب؟»». وحين تفقد الطابة يقول «هذا مدهش أيها الرفاق. يبدو أن الراكض تعثّر بشريط حذائه! لقد سقط أرضاً! وها هو يضيع الوقت بالتقاط أنفاسه! وها قد نهض، وعاود العدو». أو يقول «إنه يجر قدمه اليسرى يا رفاق، إنه يجري على قدم واحدة!». وأنت تغرق بالضحك، ومع ذلك أوصلت الكرة إليه أخيراً، وقال «حسناً أيها الرفاق العدّاء أصبح في الخارج». كان رائعاً مشاهدتكما معاً في الظلّ المتقطّع.

أذكر مشاهدة لويزا تقفز على الحبل في ذلك الشارع بمعطفها الأحمر الزاهي في حين تتقافز خصلتا شعرها في البرد. كان أول الربيع، ولم تثر أي غبار يذكر. كانت وريقات الأشجار بدأت تبرعم، محتفظة بذلك المظهر المتألق الحيوي الذي للأشجار الصغيرة. لا أعرف فكرة من كانت زرع كل أشجار الدردار هذه في أرجاء البلدة، لكن أياً كان من فعل ذلك فقد أسدى إلينا خيراً عميماً. كنت وبوتون العجوز نلعب الكرة تحت الأشجار نفسها حتى بدأت ركبتاه تؤلمانه، وكان هذا كان قبل أن يبلغ الأربعين. وجاك بوتون هذا، حين ينظر المرء إليه، لا يرى إلا صورة والده.

أحاول الاستفادة قدر الإمكان من رسالتي هذه، فأخبرك بأشياء ما كنت لأخبرك إياها لو تمكنت من تربيتك بنفسي، كأب وابن، بالطريقة الاعتيادية المعروفة. حين تأخذ الأمور مسارها الاعتيادي، يصبح من الصعب تذكّر التفاصيل المهمة. هناك تفاصيل كثيرة لا تفكر البتة بأن

تخبرها لأحد. وأعتقد أنها ربما تكون أهم التفاصيل بالنسبة إليك، والتي يجدر بك أن تطلع ولدك عليها حتى يعرفك جيداً. أتذكر ذلك اليوم في طفولتي حين تمدّدت تحت العربة مع الأطفال الآخرين، وشاهدناهم وهم يهدّون خرائب الكنيسة المعمدانية، وجلب لي والدي قطعة من البسكويت على الغداء، وزحفت من تحت العربة وركعت معه هناك تحت المطر. أتذكر الأمر كأنه كسر كسرة من الخبز ووضعها في فمي، مع أنني أعرف أنه لم يفعل ذلك. كانت يداه ووجه سوداء بفعل السخام؛ بدا متفحماً كأحد الشهداء القدامى، وقد ركع هناك تحت المطر وأخرج من داخل قميصه قطعة بسكويت وكسرها، هذا صحيح، وأعطاني نصفها وتناول نصفها الآخر. وكان حقاً «خبز الضيق» لأن الجميع كان فقيراً حينذاك. كان جفاف منذ سنوات وكانت الأوقات صعبة. وإن لم نلاحظ ذلك كثيراً لأن الوضع لم يوفّر أحداً من الناس. وأظن أنه لهذا السبب لم يكترث أحد لهطول المطر، وإن لم يكن مدراراً. شيء واحد لا أنساه هو حين حلت النساء شعورهن وتركنها تنساب على ظهورهن وتنانيرهن التي تبللت أهدابها بالوحل، بمن فيهن العجائز، كأن شيئاً من هذا ما عاد يهمّ على الإطلاق. والتراتيل، التي كانت رائعة كما أذكر، وإن كنت واثقاً من أنه يستحيل أن تكون كذلك. وقد ارتفعت التراتيل على وقع المطر، «تحت صليب يسوع»، وكل تلك النغمات الحزينة القديمة. على مرّ السنين اختلف عندي معنى كسرة البسكويت تلك مرات عدة، وقد تسنت لي مناسبات عدة للتكلم عنها.

ليس مفاجئاً أنني أتذكّر ذلك اليوم وكأن والدي ناولني القربان المقدّس، مخرجاً الخبز من قميصه وكاسراً إياه من أجلي بيديه المليئتين بالسخام. لكن من الغريب أنني أتذكر تلقيها على نحو ما تلقيتها، لأنها لم تكن عادتنا أن يضع الكاهن الخبز في فم متلقيه، مثلما يفعلون في بعض الكنائس. أفكر في هذا لأنه، صبيحة المناولة حين جاءت بك والدتك إلي وقالت «يجدر بك أن تعطيه بعضاً من هذا»، كسرت الخبز وأطعمتك كسرة منه بيدي، مثلما لم يفعل والدي سوى في ذاكرتي. وكنت أعلم أن ما أريده في تلك اللحظة أن أمنحك نسخة ما عن الذكرى نفسها، العزيزة جداً على قلبي، على الرغم من أنني الآن فقط أدرك كم كانت موجودة في فكري.

الزمن، كتيار لا يتوقف،
يحمل كل أبنائه بعيداً؛
يمضون منسيين كحلم
يذوي عند مطلع النهار.

هذا من شعر إسحاق واتس الرائع. كثيراً ما فكرت بهذه الأشعار، ولطالما تساءلت أيّ علاقة يحملها هذا الواقع الراهن بالواقع المطلق.

لا ريب في صحة ذلك. فحلمنا بالحياة سينتهي مثلما تنتهي الأحلام، فجأة وكلياً، عندما تشرق الشمس، عندما يبزغ الضوء. وسنعرف عندئذ أن كل ذلك الخوف والأسى كانا بغير داع. لكن هذا لا يعقل. لا أستطيع أن أصدّق أننا سننسى جميع آلامنا. فهذا سيعني أن ننسى أننا عشنا، أعني كبشر. أحسب الآلام جزءاً عظيماً من جوهر الحياة الإنسانية. على سبيل المثال مع قولي هذا بالتحديد أشعر بنوع من الحزن الرقيق تجاهك وأنت تقرأ هذا الكلام، لأنني لا أعرفك، ولأنك كبرت يتيم الأب، أيها الطفل المسكين، المضطجع في هذه الهنهات في الشمس في حين تغفو «سوبي» على ظهرك الصغير. إنك ترسم تلك الصور الصغيرة الرهيبة التي ستريني إياها لكي أبدي إعجابي بها وأفعل ذلك لأنني لا أجرؤ على قول كلمة واحدة قد تتذكرها ضدّي.

سأخبرك المزيد من القصص القديمة. يرجع الكثير مما أعرفه عن تلك الأيام الخوالي إلى تلك الفترة التي أمضيتها تائهاً ووالدي في كنساس. لا أعرف ما إذا كنت قد بكيت فعلاً، لكنني أعرف أنني كابدت كثيراً كيلا أبكي. فقد بلي نعلا حذائي وبدأ الحصى يتسرّب إلى الداخل حتى أبلى

جوربي وبدأ يحفّ بقدميّ مباشرة. آه يا لألم تلك الجروح! الوقت يثقل على الأطفال. فهم يعانون من مجرد الذهاب إلى الكنيسة كما تعلم. وها أنا هناك، أجرّ قدميّ في الخلاء نفسه، يوماً بعد يوم، راغباً دائماً في الإبطاء في بالجلوس، في الاستلقاء، ووالدي يتقدّمني، شاعراً بلا ريب ببعض اليأس، مثلما كان يحقّ له طبعاً. مرة أو اثنتين جلست فعلاً. جلست هناك في القيظ على العشب الضاري والجنادب تطير حول رأسي ورأيته يبتعد، وظلّ يمشي حتى كاد يغيب عن نظري، وهي مسافة طويلة في كنساس. ثم ركضت لكي أتبعه. وقال «ستتسبب لنفسك بالظمأ». حسناً، يبدو لي أنني كنت ظمئاً نصف حياتي.

لكن الأمر السارّ أنني في الأوقات التي كنت أجاريه فيها في المشي كان يخبرني أموراً رائعة أنا واثق أنه ما كان ليخبرني بها في وضع آخر. لو كنا على العشاء لأخبر قصصاً ذات طابع احتفالي وإذا لم يكن عشاء كان يخبرنا القصص التي تعوّض عن الافتقار إليه. ذات مرة أيقظنا بعض البوم بجلبة نعيبه، وأخبرني قصة عن استيقاظه ليلاً بسبب جلبة ما وخروجه من البيت ورؤيته بغل جون براون وهو يخرج من باب كنيسة والده، وقد ظللته العتمة وهو يهبط على تلك الأدراج الخشبية. ولعل البغل كان حروناً وتوقف فجأة عن السير، وأخذ براون يتملقه بصوت عميق حزين: «جيد، جيد، هيا!». ثم ظهرت فجأة أربعة جياد مسرجة جميعاً. وامتطى رجلان كلّ من الجوادين جارين خلفهما الجوادين الآخرين، وكان أحد الرجال مصاباً فتوجّب حمله؛ وهكذ مضوا مبتعدين بصمت. ثم، بعد بضع دقائق، سمع باب الحظيرة يفتح

وسمع جواد والده ينخر ويقفز ووالده يكلمه، ثم امتطى والده الجواد مبتعداً هو الآخر.

أخبرني أنه ذهب إلى الكنيسة وجلس في الظلمة متسائلاً عما يجدر به فعله. لم يكن قد بلغ العاشرة في ذلك الوقت. قال إن رائحة الكنيسة كانت مليئة بالجياد والبارود الذي له رائحة شبيهة بالعرق (لم يكن لديهم في تلك الأيام رصاص كالذي لدينا، فكانوا يستغرقون وقتاً طويلاً في حشو أسلحتهم بالبارود قبل أن يطلقوا النار). كانوا قد أرجعوا المقاعد وحتى نضد المناولة إلى الجدار لكي يفسحوا في المجال للحيوانات. لا ريب في أن الرجال ناموا على المقاعد. بالتأكيد الرجل المصاب فعل ذلك لأنه كان هناك الكثير من الدماء على أحد المقاعد وعلى الأرض قربه. قال والدي «كان هذا أول ما رأيته حين بدأ النور بالبزوغ».

فجرّ ذلك المقعد إلى الخارج من الباب الخلفي وأوقفه على أحد طرفيه بحيث يسقط جانبياً في العشب العميق محدثاً أقلّ اضطراب ممكن على سطح العشب. ثم حمل رفشاً ومكنسة ونظّف قذارة الجياد قدر الإمكان. ثم جاء بدلو من الماء وقطعة صابون لكي ينظّف بقع الدم، لكن هذا جعلها أكبر فحسب. فانتهى به الأمر إلى دلق الماء على الأرضية كلها بحيث تبدو البقعة أقلّ إثارة للريبة. كانت فكرته أنه إذا كان الرجال الذين كانوا في الكنيسة مطارَدين، فإن مطارديهم قد يأتون إلى الكنيسة في أي لحظة ويبحثون عن أشياء من قبيل براز بغل أو بقع دم على المقاعد. وبالطبع هذه أشياء يمكن تمييزها في أي وقت من الأوقات، وخاصة أنه يوم سبت.

لكن هؤلاء المطاردين أنفسهم سيثير حفيظتهم أن يجدوه ينظف أرضية الكنيسة قبل شروق الشمس. ثم تبادر إليه كم ليس من شيم والده أن يغادر في مثل هذا الوقت، دون أن يقوم بأي ترتيبات لتصويب الأمور، ودون أن يترك أيّ تعليمات عما يجب أن يفعلوه هم، تاركاً إياه ينهض من سريره لمواجهة هذا الوضع السخيف الذي لا يبدو أنه ثمة أمر صائب يمكن فعله حياله. أخذ يفكّر بهذه الأمور وهو يحمل دلو ماء إلى الكنيسة، وإذا به يرى رجلاً يرتدي بزة الجيش الأمريكي جالساً هناك في الغسق على مقعد بجانب الجدار، حاملاً قبعته بين يديه، وبندقيته على المقعد بجانبه.

قال له الجندي: «لقد جعلت الأمر يبدو لطيفاً هنا». ثم أشار إلى مزق عند ركبة بنطاله، وقال «لقد فرّ مني جوادي اللعين، أجفله صياح بومة أو ما شابه، ففر مبتعداً. أليس لديكم جواد يمكنني استعارته ليوم أو اثنين».

«عليك أن تسأل والدي بهذا الشأن».

وقال الجندي «والدك ليس هنا. أظن أنه مضى مبتعداً على صهوة الجواد نفسه الذي كنت آمل باستعارته». ثم أضاف «أسمعت عن أوساواتومي[1] جون براون؟ بالطبع سمعت به. فالجميع قد سمع به. أرى أنك فتى جيد. لا تقلق. لن أجبرك على سرد الأكاذيب هنا في الكنيسة أيها الأخ الصغير. أنت تعرف الأمور التي قام بها جون

(1) اسم بلدة في كنساس عاش فيها جون براون مدة وحصلت فيها مواجهات بينه وبين بعض قوات المعارضين لإلغاء العبودية.

براون».

أجابه والدي بأنه سمع قصصاً

هزّ الجندي رأسه «هناك أناس نزهاء هنا سيساعدونه متى واتتهم الفرصة. كهنة الكتاب المقدّس. سيسمحون له بإدخال بغله الهرم إلى قلب الكنيسة لو طلب منهم ذلك. سيعتبرونه شرفاً. وأجد هذا مذهلاً. أولئك الفارون يأتون مع أسلحتهم وإصاباتهم وأحذيتهم القذرة، يأتون نازفين على الأرض، ويكون هذا مقبولاً. ثم يأتي جندي من حكومة الولايات المتحدة الأمريكية بحثاً عنهم، وهو ما يدفع له لكي يفعله، ولا أحد يقدّم له حتى فنجاناً من القهوة».

قال والدي «لدينا قهوة، إنني واثق من ذلك».

نهض الجندي. قال «لقد تركتني كتيبتي على بعد نحو ميلين من هنا وانطلقت شرقاً. وهم يعرفون الوجهة التالية لهؤلاء ما أن يغيب القمر. لا حاجة لهم للعثور على براز الخيول التي تركتها في الخارج على السلم الأمامي لكي تتكون لديهم صورة عامة عن الوضع. فإذا كان والدك قد ذهب معهم فإنه يواجه الآن على الأرجح عالماً من المتاعب... فكرت بأن أخبرك بهذا قبل أن أحتسي قهوتك».

قال والدي إن شفتيه تجمّدتا إلى حدّ أنه لم يستطع فتحهما للكلام. قال الجندي «سأحضر لنفسي شربة ماء من بئركم». وخرج من الكنيسة وشرب الماء وصعد الطريق عارجاً بعض الشيء. كره والدي أن يصدّق أنه كان الرجل الذي أصابه جدي، لكنه اعتقد كذلك فعلاً. لا أقصد الإيحاء بأنه قتله بصورة مباشرة، لكن في تلك الأيام في ذلك المكان

يمكن أن يموت رجل من أمور أخرى كثيرة فضلاً عن الرصاص.

مضى الجندي إلى المزرعة التالية وصادر جوادهم ومضى في الاتجاه الذي يحسب أن كتيبته قد سلكته، ولكن، إذا كان الرجل نفسه، فقد حاد قليلاً عن الطريق نحو الجنوب. فقد التفّ براون والآخرون عائدين ثم مضوا جنوباً، عارفين أنهم سيكونون مطاردين فاتجهوا نحو التلال. وكان جدي يسير الهوينى باتجاه الديار وذلك المسدس الضخم يتدلى من حزامه والقميصين المدميين تحت إبطه، الأمر الذي كان بالغ الحماقة من طرفه. وكان عاري الصدر تحت معطفه، بما أنه بادل قميصه بالقميصين اللذين أحضرهما معه. لكنه كفّ عن أن يكون رجلاً عملياً بعد ذلك اليوم كما قال والدي. لم أكن لأعرف مصدر غياب الحسّ العملي لديه، لكنني أشهد عليه بالتأكيد. وفي أي حال، اقترب منه بالفعل جندي بمفرده واستوقفه وكان يركب بالفعل فرساً كستنائية يمكن أن تكون ملك جاره. بدأ الجندي يستجوبه، وألقى القبض عليه بالتأكيد، لكنّ جدي كان يحمل مسدساً، وكان الأخير محشواً.

قال جدّي: «حسناً، لقد أطلقت الرصاص عليه، ثم جفلت الفرس وفرّت، وسقط الرجل أرضاً». وتركه ملقى هناك على الأرض. وقال: «سألني براون ما إذا كنت مستعداً لتغطية انسحابهم إذا استدعت الحاجة ذلك. فأجبته أنني سأفعل، وفعلت. ما كان يمكن أن أفعله بهذا الجندي، أجلبه معي إلى هنا؟». ما كان يرمي إليه هو أن الرعية بذلت الكثير من الجهد والتفكير في تفريغ الجدران والأقبية الخفية في أكواخهم ومبانيهم الخارجية وأنشأوا أنفاقاً تمتد من تحت صناديق البطاطا وصولاً

إلى أكوام القش على بعد مئات الياردات. وكان هناك تابوت مفتوح القاع يحتفظون به في الكنيسة، وقبر مفتوح مغطى بالخيش فوق لوحين من الخشب يعلوهما التراب، ينفتح على نفق في سقيفة الحطب. كان الهدف من كل ذلك الجهد تحرير الأسرى، وبالتالي تتوجّب حمايتها من أجلهم. لم يكن الجندي إلا لينتبه إلى مدى تعاون جدي الوثيق مع جون براون، وانتباه من هذا النوع من شأنه تدمير كلّ شيء.

أخبر العجوز والدي بما جرى فقط لأن الأخير أخبره بأنه رأى الجندي في الكنيسة «تقول إنه شاب أسمر؟ صوته أجشّ بعض الشيء؟». وقال لوالدي إن الأمر بالغ الخطورة، مسألة حياة أو موت. وإنه لا يجدر به ذكره أمام أحد، وأن يكون مستعداً للكذب في حال جاء أحدهم للاستعلام عما جرى. إذن، نائماً ومستيقظاً كان يفكر في ذلك الجندي وحيداً هناك في السهول، وحاول أن يتخيل نفسه وهو يرد على أسئلة افتراضية عنه قائلاً لم ير هذا الرجل ولا كلمه.

حسناً، لم تأت السلطات للسؤال عن الجندي، فحسبه والدي قد قضى هناك. قال «كانت الراحة التي عانيتها يومياً جراء عدم مجيئهم، رهيبة». بالطبع المفارقات عالية جداً بحيث يوم موت أحدهم هو أسوأ يوم في حياته، لكن والدي قال: «حين أخبرني أن فرسه فرت غاص قلبي». إذن كنا هناك، مضطجعين في حظيرة هجرها أحدهم، نسمع جلبة البوم والفئران والخفافيش والريح، دون أدنى فكرة متى سيبزغ الفجر. قال والدي: «لم أسامح نفسي البتة لعدم ذهابي والبحث عنه». وشعرت بحقيقة ذلك كما لم أشعر بأي حقيقة دنيوية أخرى. قال

«كان في يوم الأحد التالي أن الشيطان الهرم وعظ مرتدياً أحد ذينك القميصين، متمنطقاً بالمسدس في حزامه. ولن تصدق كيف تجاوب الناس معه، ومدى العويل والصياح». وبعد ذلك، قال، كان والده يرحل أحياناً لأيام. وكان ثمة آحاد يصل فيها إلى الكنيسة على صهوة فرسه عند بدء المراسم ويطلق نار مسدسه في الهواء لكي يعلم الناس أنه عاد. ثم يرونه على المنبر بعينيه الحمراوين ووجهه الشاحب والغبار الذي يملأ لحيته، جاهزاً للوعظ حول الألوهة ويوم القيامة. قال والدي «لم أجرؤ يوماً على سؤاله عما كان يفعله. لم أستطع المجازفة بأن أعرف أموراً تفوق ظنوني سوءاً».

استلقيت هناك بجانب والدي ملقياً رأسي بين ذراعيه، سامعاً صوت الريح وشاعراً بشفقة عميقة إلى درجة أنها تتجاوز أن تكون شفقة على شيء محدّد. أشفقت على والدتي، التي يمكن أن تضطر إلى المجيء بحثاً عنا، وعلى الخفافيش والجرذان. أشفقت على الأرض والقمر. أشفقت على الرب.

وفي اليوم التالي وصلنا إلى مزرعة تلك السيدة من «ماين».

أمضيت صبيحة اليوم في اجتماع مع لجنة أمناء الكنيسة. وكان اجتماعاً مبهجاً تجاهلوا فيه باحترام بعض المقترحات التي تقدّمت بها بشأن القيام ببعض الترميمات. وأنا واثق من أنهم سيبنون كنيسة جديدة بعد رحيلي. لا أعني هذا بطريقة غير لطيفة؛ فهم لا يريدون التسبب لي

بالأسى، ولذلك يتريثون في تنفيذ ذلك، وهذا لطف منهم. سيهدمون الكنيسة القديمة وينشئون أخرى أكبر وأكثر صلابة. أسمع الناس يبدون إعجابهم بالكنيسة التي بناها اللوثريون، وهي من القرميد الأحمر ولها رواق خارجي ذو أعمدة بيضاء وباب كبير وبرج جميل. كما أنها رائعة جداً من الداخل، كما قيل لي. وقد دعيت إلى حفل تدشين الكنيسة، وسأذهب، إذا كنت ما زلت حياً وقادراً على فعل مثل هذه الأمور. بإذن الله، بكلمات أخرى. أحب رؤية كنيستنا الجديدة، لكنهم محقّون، سأكره رؤية القديمة تتعرض للهدم. أظنّ أن رؤية ذلك قد تقتلني، الأمر الذي لن يكون رهيباً بالنسبة إلى رجل في مثل ظروفي. طعنة من الحزن كضربة قاضية؛ هناك شاعرية ما في ذلك.

أأنا فاقد الصبر؟ أيصحّ ذلك؟ لم أشعر اليوم بألم في جسدي، وخاصة في قلبي. النبض في صدري يستمر ويستمر مثل بقرة عجوز تجترّ طعامها، ذلك الرضى البليد واللانهائي. أنهض ليلاً وأسمع صوته. مجدداً، يقول. مجدداً، مجدداً، مجدداً. «لأن الاستمرارية خلق، وأكثر، إنها خلق مستمر، وفي كل لحظة». هذا جورج هربرت[1]، الذي آمل أن تكون قرأته. مجدداً، هذه الكلمة الوحيدة التي يكررها كل قلب، ولحظة تقال تتلشى، فلا تتضمن حتى أيّ نوع من الوعد.

لأن كلّ جزء

من قلبي الصلب

(1) George Herbert (1593–1633): شاعر وخطيب وكاهن من ويلز، يعدّ من أبرز الشعراء الميتافيزيقيين على غرار جون دان.

يلتقي ههنا
لكي يمجّد اسمك:
وإذا ما قدّر لي إيفاء عهدي
فهذه العظام التي لن تتوقف يوماً عن التسبيح باسمك.

وإن لهنيهة فحسب.

حسناً، إذا كان هربرت مصيباً، فهذا الجسد القديم أشبه بالخلق الجديد كما أنت نفسك. أعني كما أنت الآن، تلعب تحت النافذة على الأرجوحة التي نصبها لك دان بوتون. لابدّ من أنك تتذكرها. فقد ربط خيط صيد بسهم ورماه فوق الغصن ثم استعمل الخيط لكي يمرّر الحبل، وهكذا دواليك. استغرقه الأمر اليوم بطوله. لكنه أنجزه. إنه شاب ذكي طيب القلب. وقد كان مصدر عزاء كبير لوالديه. وقد علمت أنه يمارس التعليم الآن في إحدى مدارس «متشيغن». لم يختر الرهبنة، وإن كان متوقعاً منه ذلك منذ زمن طويل.

إنك تقف على مقعد أرجوحتك وترتفع أعلى مما ينبغي، واقفاً بجرأة مثل بحار مقدام في خضم الموج الهادر. الحبال طويلة وأنت خفيف الوزن والحبال تنثني مثل شباك العنكبوت، بكسل وتباطؤ. قميصك أحمر اللون - وهو المفضل عندك - وأنت تحلق نحو نور الشمس وتقف هناك ببهاء لثانية ثم تعاود الهبوط إلى الظّل ثانية. تبدو في غاية السعادة. أتذكر تلك التجارب الأولى في أمور أساسية، الجاذبية والضوء، وأي متعة مطلقة عرفتها فيها. وها هي والدتك تحذرك: «لا

ترتفع إلى هذا الحدّ». وسوف تطيعها. فأنت فتى طيب.

لم أقصد انتقاد لجنة الأمناء. فأنا أفهم فعلاً التردد في القيام باستثمار أساسي بمبنى الكنيسة في هذه المرحلة. لكن أؤكد لك أنني لو كنت أصغر سناً لرمّمت ذلك السقف بنفسي. كنت دققت بعض المسامير على درجات السلم الأمامي. إذ لا أفهم أن يترك المكان القديم متهلهلاً هكذا في عامه الأخير تقريباً. إنه بسيط جداً، لكنّ مقاييسه جيدة، ويكفي طلاؤه بطلاء جديد، فهذا كل ما تحتاج إليه أيّ كنيسة من حيث المظهر. أما عدا ذلك فأدرك أنها لم تعد مناسبة.

وقد تذكرت أن أذكرهم بأن «الدوّارة»[1] في أعلى برج الكنيسة جلبها جدي من «ماين» وارتفعت فوق هذه الكنيسة منذ سنوات طويلة. وقد أعطاها لوالدي يوم رسامته كاهناً. كان أهل «ماين» يضعون تلك الديكة الشامخة على أبراجهم، كما أخبرني، لكي يذكروا أنفسهم بخيانة بطرس[2]، ولكي يساعدهم ذلك على التوبة. ما كانوا يستعملون الصلبان البتة في تلك الأيام. لكن ما أن ذكرتهم بأن هناك ديكاً على البرج – وهو ما يلاحظه معظمهم من قبل – حتى استاءوا من عدم وجود صليب. أظنّ أنهم سيضعون واحداً، بما أنهم انتبهوا إلى الأمر الآن. هذا الأمر الذي استوعبوه. قالوا إنهم سيضعون «الدوّارة» على

(1) Weather Vane: أداة تدل على اتجاه الريح توضع أعلى المباني.

(2) « فقال: أقول لك يا بطرس لا يصيح الديك اليوم قبل أن تنكر ثلاث مرات أنك تعرفني» (إنجيل لوقا، 22: 34).

جدار ما، في البهو على الأرجح حيث يمكن أن يراها الناس. لا يهمني ماذا سيفعلون. فقط ذكرت الأمر لأنني لم أرده أن يهمل مع كلّ شيء آخر. فهي دوّارة قديمة جداً. هكذا على الأقل يمكنك أن تراها جيداً.

هناك ثقب رصاصة أسفل الذيل. وكان هناك الكثير من القصص عن سبب هذا الثقب. وقد قيل لي مرة إنه بما أنه لم يكن لدى جدي جرس أو أي وسيلة أخرى لائقة يدعو بها إلى الاجتماع، ومعظم الناس لم تكن لديهم ساعات، فقد كان يطلق رصاص بندقيته في الهواء، وذات مرة لم ينتبه إلى أين وجّه هذه البندقية. وهناك قصة أخرى أيضاً تفيد بأن رجلاً من «ميزوري» كان ماراً بالبلدة مع احتشاد الناس أطلق رصاصة واحدة في الهواء أصابت «الديك» وجعلته يدور، لكي يخيفهم قليلاً، بما أنه كان يعرف أنهم من «الفري سويلرز». وهناك قصة ثالثة تفيد أن الكنيسة استلمت دفعة من بنادق «شاربس» وأراد أحدهم أن يتثبّت من مدى دقّتها مثلما هو شائع عنها.

صحيح أن بندقية «شاربس» دقيقة، لكنني أظن أن القصة الأولى هي الأقرب إلى الصحة لأنه من تجربتي فإن هذه الدرجة من الدقة لا تحدث إلا بالمصادفة. قد يكون جدي شعر بالحرج من الأمر فترك الناس يخمّنون السبب ويخترعون القصص. وقد رويت للجنة الأمناء قصة الرجل من «ميزوري» لأن فيها خاصية مسيحية ما؛ فإصابة الدوّارة كان يمكن أن يكون فعلاً من أفعال ضبط النفس لأن النفوس كانت شديدة التوتر في ذلك الحين. وهذه القصة هي الأكثر إثارة من الناحية التاريخية على ما أظن ويمكن أن تكون صحيحة، على الرغم من عدم اعتقادي بذلك.

ويصعب جعل الناس يكترثون لأمر أشياء قديمة، ففكرت أنه يجب عليّ أن أفعل كلّ ما في مقدروي للإبقاء على الديك المسكين.

غالباً ما كان يكفي أن يكون لكنائس المستوطنات تلك سقف يقيها من المطر بانتظار أن تتوافر الموارد والوقت لبناء شيء أفضل. ولذلك لا تتمتع هذه الأبنية بقيمة تقادم الزمن. وهي تصير رثة فحسب. ولم يكن المقصود منها يوماً أن تكون موقّرة. أتذكّر تلك الكنيسة المعمدانية القديمة التي ساعد والدي على هدمها؛ متفحّمة تحت المطر، بدت عشرة أضعاف أكثر فخامة مما كانت عليه قبل الصاعقة. ولطالما كانت هذه جزءاً كبيراً من فكرتي عن الكنيسة. وقد اعتقدت في طفولتي أن الهدف من البرج هو اجتذاب الصواعق، وأن المقصود بذلك حماية البيوت والمنشآت الأخرى، وبدا هذا نبيلاً بالنسبة إلي. ثم قرأت بعض كتب التاريخ، وأدركت بعد مدة أنه ليس كل الكنائس تقع على الطرف الرثّ من السهول العظيمة، وأنه ليس كل منبر فيه والدي. تاريخ الكنيسة شديد التعقيد والتشابك. أريدك أن تعرف كم أدرك هذه الحقيقة. في تلك الأيام كان كثر يعتبرون أن الولاء للدين هو من قبيل الجهل، إن لم يكن أسوأ من الجهل. أدرك ذلك، وأدرك مدى قوة التهم التي يمكن سوقها ضدّ الكنائس. وأعرف أيضاً، أن تجربتي الخاصة مع الكنيسة كانت بمعان عدة آمنة ومتواضعة. بل بكل المعاني، إلا إذا كانت حقاً حياة كونية متسامية، ما لم يكن الخبز خبزاً والكوب كوباً في كل مكان، وفي كل الظروف، وهو وقت مع رب الجثمانية الذي يأتي للجميع، كما أعتقد بعمق. تلك البسكويتة المرمدة من يد والدي المتسخة. تعني

أكثر بكثير مما يمكنني قوله لك. فليس عليك أن تحكم على ما أعرفه بما أجد من الكلمات للتعبير عنه. فقط لو كان بإمكاني منحك ما منحني إياه والدي. لا، ما وهبني إياه الرب، ويجب أن يهبك إياه أيضاً. لكنني آمل أنك ستضع نفسك على درب الهبات. ولا أتكلم هنا عن أن تصبح رجل دين أو ما شابه، كما سبق وذكرت لك.

أقدمتُ على فعل شيء غريب هذا الصباح. كان هناك موسيقى «فالس» في المذياع، وشعرت بالرغبة في الرقص. لا أعني ذلك المعنى الاعتيادي للكلمة. فلدي فكرة عامة عن رقص «الفالس» ولكنني لا أعرف الخطوات وما إلى ذلك. فكان رقصي مجرد تلويح بالذراعين قليلاً والدوران قليلاً، وبحذر شديد. حين أتذكر شبابي أدرك أنني لم أشبع منه، فقد انتهى قبل أن أستنفده. كلما تذكرت إدوارد، أفكر بلعب البايسبول في شارع قائظ وبذلك التعب الرائع في اليدين. أفكر في القفز وراء رمية عالية وذلك التكافل الرائع بين أعضاء الجسد وذلك اليقين والدهشة حين تعرف أن القفاز موجود حيث ينبغي أن يكون. آه، كم سأفتقد هذا العالم!

فارتأيت أن بعض الرقص سيكون مفيداً، وكان كذلك. أزمع القيام بكل رقصي «الفالس» هنا في حجرة المكتبة. فكرت أنه قد يكون هناك كتاب أتشبّث به في حال بدأت أشعر بألم غير اعتيادي، بحيث يكون ثمة توصية خاصة بهذا الكتاب في حال عُثر عليّ ميتاً والكتاب بين

يدي. بدا هذا مسرحياً، وقد يكون له الطابع المنحرف بإثقال كتاب بارتباط غير سار. وكانت الكتب التي فكرت بها للمناسبة هي كتب «دان» و«هربرت» و«رسالة إلى الرومان» لـ «بارت»[1] والمجلد الثاني من كتاب «كالفن» التعاليم. الذي لا يقارن بالمجلد الأول الهزيل.

هناك لغز في فكرة إعادة خلق رجل هرم كرجل هرم، مع كل العيوب والجروح التي أحدثتها فيه ما تسمى الحياة المديدة، وإيفاء الحقوق المترتبة على هذه العيوب والجروح ونزوعاتها أيضاً، مثل التقدم الثابت لألم المفاصل في ركبتي اليسرى. فكرت أحياناً أن الرب لابدّ يحتفظ بكل حيواتنا في ذاكرته، مجازاً بالطبع. وهو بالطبع يفعل، وإن لم تكن «الذاكرة»، بكل تأكيد، هي الكلمة الصحيحة. لكن ذلك الإبهام الذي كسرته وأنا أقفز إلى القاعدة الثانية[2] حين كنت في الثانية والعشرين أصبح ملتوياً أكثر من أيّ وقت مضى، وأستطيع أن أفسر ذلك على أنه نوع من لفت النظر الحميم، أخذاً بوجهة نظر هربرت[3].

---

(1) Karl Barth (1886–1968): أحد أهم المفكّرين اللاهوتيين في القرن العشرين. ويعتبر كتابه المذكور الذي يناقش فيه رسالة بولس إلى أهل روما أبرز أعماله.

(2) في البايسبول.

(3) ربما كانت إشارة إلى ما سبق واقتبسه من قصيدة لهربرت «وهذه العظام لن تتوقف يوماً عن التسبيح باسمك».

ذهبت صبيحة اليوم إلى منزل بوتون. فوجدته يأخذ قيلول على الشرفة ذات الباب الشبكي خلف العريشة. كان وزوجته فخورين بهذه العريشة لأنها تجذب إليها الطيور الطنانة. وقد باتت شاسعة الامتداد إلى درجة يبدو المنزل عندها مجثماً ضخماً لاجتذاب البطّ[1]. وقد صحح لي بوتون عندما أخبرته بذلك، قائلاً: «بل لاجتذاب الطيور الطنانة، أحياناً رمي طائر صغير يتسبب بسقوط الآلاف من رفاقه». لكنه أضاف بما أن المتوافر منها حالياً غير كاف لتمليح كوب حساء، فسوف ينتظر بصبر. تحوّلت جميع أشجاره بهذا القدر أو ذاك إلى أجمات، لكن بينما أقترب من المنزل رأيت بوتون الشاب وغلوري ينظفان مساكب السوسن. بوتون يمتلك منزله. وكنت أحسب أن هذا أمراً يحسد عليه، لكن لم يكن ثمة سواه ليعتني به، وقد خرجت الأمور قليلاً عن السيطرة خلال الأعوام الأخيرة.

بدت معنوياته ممتازة. قال «الولدان يصحّحان الأمور لي».

تكلمنا قليلاً عن موسم البايسبول وعن الانتخابات، لكنني شعرت بجلاء أن جلّ اهتمامه منصب في المقام الأول على أصوات ولديه، التي بدت بالفعل سعيدة متناغمة. أتذكر حين كانوا يلعبون بين تلك الأشجار مع قططهم وطائراتهم الورقية وفقاعاتهم. كان منظراً جميلاً حقاً. وقد كانت والدتهم امرأة جميلة ومرحة الروح أيضاً! بوتون يقول: «أفتقدها أشدّ الافتقاد». كانت تعرف لويزا في صغرهما. وأذكر

(1) Duck Blind: نوع من المجثم الخشبي الذي يستخدمه الصيادون في أماكن تواجد البط، ويكون مغطى بالحشائش أو النباتات بحيث لا يظهر للبط الصياد الجاثم فيها، ويعمل هذا المجثم على اجتذاب البط إليه بسبب هيئته المخادعة.

أنه ذات مرة وضعتا بيضاً مسلوقاً تحت دجاجة إحدى الجارات. ولا أعرف الهدف من وراء ذلك، لكنني أذكرهما تضحكان بشدة حتى أنهما ارتمتا على العشب وأخذت الدموع تجري على شعريهما. وذات مرة أخذت وبوتون وبعض الآخرين عربة قشّ مفككة وأعدنا تجميعها على سطح مبنى المحكمة. لا أعرف ماذا قصدنا من ذلك أيضاً، لكننا استمتعنا كثيراً بوقتنا، ونحن نعمل في جنح الظلام وما شابه. لم أكن قد رسمت كاهناً بعد، لكنني كنت طالب لاهوت. لا أعرف ماذا حسبنا أنفسنا فاعلين. لكن، كل ذلك الضحك. أتمنى لو أسمعه ثانية. سألت بوتون ما إذا كان يتذكر تلك الحادثة، فقال: «كيف أنسى ذلك؟»، وضحك مسايرة لي، لكن ما كان يريده حقاً هو أن يجلس هناك واضعاً خده على عكازه مصغياً إلى أصوات ولديه. فعدت إلى منزلي.

وجدتك ووالدتك تعدان الشطائر مع زبدة الفستق والتفاح على الخبز بالزبيب. أعتبر شطيرة كهذه من ألذ الأطعمة، كما من الجليّ أنكما تعرفان، لأنكما جعلتماني أنتظر على الشرفة حتى يجهز كلّ شيء، ويسكب الحليب وهلمجرا. يبدو أن الأطفال يعتقدون أن كل الأشياء المبهجة ينبغي أن تكون مفاجأة.

كانت والدتك مستاءة بعض الشيء لأنها لم تعرف إلى أين ذهبت. لم أخبرها بنيتي الذهاب إلى منزل بوتون. وهي تخشى أن أسقط ميتاً في مكان ما، وهذا منطقي كفاية. يبدو لي أن أموراً أسوأ يمكن أن تحدث في حقيقة الأمر، لكن هذه نظرتها هي إلى الأمور. معظم الوقت أشعر أنني أفضل بكثير مما دفعني الطبيب إلى الإحساس به، فقد بتّ ميالاً إلى

الاستمتاع بوقتي قدر الإمكان. وهذا يساعدني على النوم.

كنت أفكر في والدي بوتون العجوز، كيف كان شكلهما وهما طفلان. كانا نكدين إلى حدّ ما، حتى في شبابهما. ليسا مثله على الإطلاق. كانت أمه تتناول لُقيمات من طعامها وتبتلعها وكأنها تبتلع الجمر مما كان يفاقم عسر الهضم لديها. ووالده، على الرغم من أنه موقّر محترم، فقد كان فيه شيء ينمّ عن الحقد. لطالما أحببت عبارة «يرعى حقداً»[1]، لأن كثيرين من الناس متسامحين مع ضغائنهم وكأنها الأعز على قلوبهم. حسناً، من يعلم أيّ تعليل قدّمه هذان الحاجّان عن نفسيهما الآن. لطالما تخيلت الرحمة الإلهية تعيد إلينا أنفسنا وتجعلنا نضحك مما آلت إليه أحوالنا، من أقنعتنا السخيفة؛ أقنعة التمسكن والعبوس والتجهم التي نضعها جميعاً. أعزّي النفس بأمل أننا حين نلتقي يوماً لن أكون مغترباً عنك بسبب الغرابة التي نحتتها الحياة فيّ. حين أنظر إلى بوتون أرى رجلاً مرحاً وكريماً ومفعماً بالقوة. يمشي الآن على عكازين، ويقول إنه لو استطاع إنبات ذراع ثالثة لأحضر عكازاً ثالثاً. وهو لم يقف على منبر الوعظ منذ عشر سنوات. مما يجعلني أستخلص أنه أنجز مهمته، وأنا لم أنجز مهمتي بعد. آمل أنني لا أجترئ على صبر الرب.

---

(1) Nurse a grudge: بالأحرى يرعى (انسجاماً مع تتمة العبارة) حقداً أو ضغينة، تعبير يعود إلى القرن السابع عشر، وهي بمعنى أن يضمر أحدهم ضغينة تجاه أحدهم لزمن طويل.

بدأت بقراءة «درب الصنوبرة الوحيدة». ذهبت إلى المكتبة وجئت بنسخة أخرى، بما أن والدتك تأبى مفارقة نسختها. وأظن أنها تعاود قراءتها. وقد نسيتها كلياً، إذا كنت قد قرأتها في المقام الأول. هناك صبية تقع في غرام رجل يكبرها سناً. تقول له «سأذهب معك أينما تشاء». وقد أضحكني ذلك. أظن أنه كتاب جيد. ليس الرجل بعجوز مثلي، لكن والدتك أيضاً ليست بصبية مثل حبيبته.

أزمع هذا الأسبوع أن أعظ من سفر التكوين (14:21–21) وهو قصة هاجر واسماعيل. لو كانت هذه أوقاتاً اعتيادية – لو كنت أصغر بعشرين سنة – لكنت عرجت على الأناجيل وأعمال الرسل قبل أن أعود إلى سفر التكوين. كانت تلك عادتي، ولطالما شعرت أنها مفيدة في التعليم، وهو الغرض من الأمر برمته. لكنني حالياً أتكلم بكل ما يخطر ببالي؛ هاجر واسماعيل في الوقت الراهن.
خطرت ببالي قصة هاجر وإسماعيل عندما كنت أصلي صبيحة اليوم، ووجدت فيها عزاء كبيراً. مغزى القصة أنه ليس والد الطفل فحسب هو من يهتم بحياته ويوفّر الحماية لوالدته، وأنه حتى لو لم تستطع الأم وسيلة لتأمين قوته، أو قوتها، فالربّ يعطي. وهذا بالضبط مصدر العزاء في هذه القصة. هكذا هي الحياة؛ نرسل أولادنا إلى البراري، بعضهم يوم يولدون على ما يبدو، هذه كل المساعدة التي نستطيع تقديمها لهم.

لكن لابدّ من وجود ملائكة في هذه الحياة أيضاً، وآبار ماء. حتى تلك البراري، موطن الثعالب، هي ملك الرب. يجدر بي ألا أنسى هذا.

جاء بوتون الشاب لكي يرى إذا كنتَ راغباً في لعب البايسبول معه[1]. وأبديتَ رغبتك بالفعل. علت وجهه مسحة من السمرة جراء العمل في الحديقة. وقد منحه ذلك مظهراً صحياً معتدلاً. وها هو يعلمك الرمي عالياً. قال إنه لا يستطيع البقاء لتناول العشاء معنا، فخاب أملك، وأظنّ أن والدتك أيضاً خاب أملها.

يلوح القمر رائعاً في هذا الضوء المسائي الدافئ، تماماً كشعلة شمعة في نور الصباح. نور على نور. يبدو هذا استعارة عن شيء ما. ثمة الكثير مما يبدو كذلك. ورالف والدو إمرسون ممتاز في هذه الناحية[2].

أجد في «نور على نور» استعارة عن الروح البشرية؛ الضوء المفرد

(1) البايسبول هي لعبة جماعية بطبيعة الحال وتحتاج إلى ملعب مخطّط بطريقة محدّدة، وبالتالي حين يؤتى على ذكرها في النص على هذا النحو فالإشارة إلى لعبة Catch أي الرمي والالتقاط فحسب، وهي جزء من لعبة البايسبول.

(2) «نحن أطفال النور» يقول رالف والدو إمرسون (1803–1882) في كتابه «الطبيعة»، والضوء هو ثيمة تتكرّر كثيراً في كتابات إمرسون الفلسفية والتأملية، تلك الكتابات التي جعلته بمثابة مؤسس «الحركة المتسامية» في القرن التاسع عشر، وهي كناية عن مجموعة من المثقفين والأدباء ورجال الدين ممن طرحوا أفكاراً جديدة في هذا المجال. وإمرسون نفسه كان قساً لبعض الوقت قبل أن يشك بإيمانه عقب وفاة زوجته ويتخلى عن الحياة الدينية.

ضمن ضوء الوجود العظيم، أو شعراً ضمن اللغة، أو حكمة ضمن الخبرة، أو زواجاً ضمن الصداقة والحب. سأحاول أن أتذكّر استعمال هذا. أعتقد أنني أرى له مكاناً ضمن خواطري عن هاجر وإسماعيل. فالوقت الذي عاشاه في البريّة يبدو لحظة محددة من «العناية الإلهية» ضمن نظام الخلق الخاضع كله لهذه العناية.

زارنا جاك قبيل قبيل موعد العشاء من ليل أمس. جلس على درج الشرفة الخارجية وأخذ يتكلم في البايسبول والسياسة؛ هو يفضّل فريق «اليانكيز»، وله كلّ الحقّ في ذلك، حتى فرضت رائحة المعركونة بالجبن نفسها فتوجب عليّ دعوته للدخول. أنت ووالدتك ما زلتما تعتبران جون آيمز هذا مفاجأة رائعة، بصوته الهادئ وسلوكه الوعظي، الذي بالمناسبة، لم يفعل شيئاً ليكتسبه أو ليستحقه، على قدر ما أعرف وفي أفضل الأحوال. كان هكذا في طفولته، ولطالما وجدت هذا منفراً فيه. ربما كان شيئاً يمارسه دون وعي وقد نشأ عليه. لكنني أشعر أحياناً أنه أنَّ هناك عنصراً من السخرية في الأمر. أتساءل ما إذا كان يتصرّف على هذه الشاكلة أينما كان، أم أنه يفعل ذلك في حضرتي وحضرة والده فحسب. ما الذي أعنيه بالسلوك الوعظي؟ هناك طريقة يكون بها المرء رسمياً وودوداً في آن معاً، وهو يحافظ على هيبته الموقّرة. أنا لم أتقن هذا البتة، أما بوتون فأتقنها وكذلك والدي. أما جدي، ذلك «الناصري» القديم، فقد كان مؤثّراً بطريقة أخرى. لكن في ما يخصّ

السلوك الوعظي الصرف والتام فإنني لم أرَ شخصاً يشبه جاك بوتون هذا، على الرغم من أنه وثني، أو كان كذلك. سألته والدتك إذا كان يرغب في الصلاة قبل الطعام، وفعل ذلك، ببساطة أنيقة بدت تقريباً فائضة على المعكرونة بالجبن.

ذكرني أنني لم أزر والده منذ أيام، وهذا صحيح، وليس بمصادفة أيضاً. فكرت أنه ربما سيقيم عند والده لبضعة أيام فحسب. فمن بين أكثر الأمور استفزازاً لي، رؤيتهما معاً. أملت أن أبقى على بعض المسافة ريثما يرحل، لكن من الجليّ أنه لا ينوي ذلك.

في الأيام الخوالي اعتدت الدخول إلى المطبخ والنظر حولي في حجرة المؤن وصندوق الثلج، وكنت عموماً أجد وعاء مليئاً بالحساء أو كسرولة تحتوي على طعام ما، يمكنني أن أسخنه أو لا أفعل، وفقاً لمزاجي. وإذا لم أجد شيئاً أتناول الفاصولياء وشطائر البيض المقلي، التي أحبها بالمناسبة. كنت أجد البسكويت أو الفطائر على الطاولة أحياناً. حين أكون في مكتبتي أو في حجرة مكتبي، تدخل إحدى النسوة من الباب وتترك لي عشاء هناك وترحل، ثم تأتي في يوم آخر وتأخذ مقلاتها وأوعية الشاي أو أي شيء آخر تكون قد تركته، وترحل. كنت أجد المربى والمخللات والسمك المدخّن. وذات مرة وجدت حبوب الكبد. كانت حياة غريبة، ولها مسرّاتها الخاصة.

ثم حين تزوجت والدتك لم تفهم نسوة البلدة بسهولة أنهن ما عدن

قادرات على الدخول إلى البيت على هواهن. وأحسب أنهن شككن في إجادتها للطبخ، وهي في الواقع لم تكن تجيده، فظللن يأتين إلى الباب مع كسرولاتهن حتى أدركت أن هذا يزعجها، فكلمتهن حول الأمر. وذلك بعد أن وجدتها ذات مساء تبكي في حجرة المؤن. فقد جاءت إحداهن وغيرت حبل الإضاءة ووضعت ورقاً جديداً على الرفوف. وقد فعلت ذلك بدافع النية الحسنة لكنها لا تقيم اعتباراً لزوجتي، وقد تفهمت ذلك.

أذكر هذا لأنني شعرت بغرابة لوجودي معكما والشاب بوتون من بين جميع الناس. لأنه منذ سنوات ليست بالمديدة كنت جالساً إلى المائدة في الظلمة وأتناول اللحم البارد من المقلاة، مصغياً إلى المذياع، حين دخل بوتون العجوز وانضمّ إليّ قائلاً: «لا تشعل الضوء». فأطفأت المذياع وجلسنا هناك نتكلم عن جون آيمز بوتون، ونصلّي من أجله.

لكن هذه القصة قد تكون أكثر مما تحتاج إلى معرفته، وأكثر مما يجدر بي أن أخبرك به. فإذا ما اصطلحت الأمور في النهاية، فما جدوى أن أخبرك؟ ليس من شيء مميز في القصة، بل إنها في حقيقة الأمر من القصص الشائعة. وهذا ليس تلطيفاً لها بأي حال من الأحوال. غالباً ما يخبرني الناس عن شرّ ما كانوا مزمعين على ارتكابه، أو تخبّطوا فيه، وأفكّر «آه، هذا الأمر ثانية!»، لقد سمعت عن كنائس في الجنوب تجبر الناس على القيام باعتراف علني عن خطاياهم الكبيرة أمام الرعية بأسرها. أظن أنه أحياناً ثمة فائدة في توعية الناس على مدى ابتذال ورثاثة هذه الأشكال القديمة من الاضطهاد. قد تؤدّي إلى التخفيف

من ذنوب أولئك الذين وقعوا في الغواية. لكنني لا أملك حجّة على أن هذه هي حقيقة الأمر. بالطبع هناك ظروف خاصة ومخفّفة. وهي خاصة بالتأكيد في حالة بوتون الصغير لكنها ليست ملطّفة البتة، إذا كان يجوز لي الحكم في الأمر. وهذا ما لا أفعله، أو لا يجدر بي فعله، وفقاً للكتاب المقدّس.

الآثام. ليس من إثم واحد البتة. هناك جرح في جلد الحياة البشرية يترك ندوباً بعد شفائه وغالباً ما لا يشفى ثانية.

تجنّب الإثم. ما رأيك بهذه النصيحة.

يجب أن أقرّر ماذا أقول لوالدتك. أعرف أنها تتساءل. فهو شديد اللطف معها ومعك. ومعي. أحمد الرب لأنه لم يخاطبني «بابا» هذا المساء. لكنه يتصرف باحترام شديد بحيث أجدني ميالاً إلى أن أخبره بأنني لست بعد أكثر الرجال تقدُّماً في السِّن على الكوكب. حسناً، أعرف أنني حسّاس أحياناً حول هذا الأمر. يجب أن أحاول أن أكون منصفاً معه.

وأنت تنظر إليه كأنه تشارلز ليندبرغ[1]. يناديك دائماً أخي الصغير وأنت تحبّ ذلك.

آمل أن يكون هناك عناية إلهية ما في ظهوره في وقت يضطرب

---

(1) Charles Lindbergh (1859–1924): طيار ومستكشف أمريكي بلغ مصاف النجوم في أمريكا في بدايات القرن العشرين واستخدم شهرته للترويج لعروض الطيران التجارية.

عقلي بشتى الأمور التي عليّ التعامل معها، لأنه تشويش كبير في حين كنت أؤثر الدعة كثيراً.

لست أتذمّر. أو لا يجدر بي ذلك.

كنت أفكّر في العظة التي ستلقى في تأبيني، والتي أزمع كتابتها لكي أوفّر العناء على بوتون العجوز. يمكنني أن أقلّد أسلوبه تقليداً حسناً. وسوف يضحك كثيراً جراء ذلك.

زارنا بوتون الصغير ثانية صبيحة اليوم، ومعه بعض التفاح والخوخ من أشجارهم. هو وغلوري رتبا الأشياء جيداً هناك. لقد أنجزا الكثير من العمل الشاق.

أحاول أن أعامله بمزيد من الودّ. وهو نوعاً ما يخطو إلى الخلف ويبتسم قليلاً، وينظر إلي كأنه يفكّر: «إننا اليوم نتصرّف بودّ! ما سبب ذلك؟». ويحدجني مباشرة في الوجه، كأنه يريدني أن أعرف أنه يعرف أن هذا تمثيلٌ وأنه يسليه. أظنّ أن المحاولة تمثيل، بمعنى ما. لكن ماذا بيدي فعله سوى ذلك؟ معظم الناس يتماشون معك في مثل هذه الأحوال، أياً تكن أفكارهم حول ذلك. أتردّد في تسمية موقفه عملاً شيطانياً، لكنه بالتأكيد غير مريح، وأنا واثق جيداً من أن هذه هي نواياه. وأظن أن الأمر يسليه فعلاً أيضاً. فتخليت عن محاولة معاملته بودّ اليوم واستأذنت

وذهبت للاعتناء ببعض الأمور في الكنيسة.

أمضيت بضع ساعات متأملاً ومصلياً لجون آيمز بوتون، ولجون آيمز أيضاً، أب روحه، مثلما أسماني بوتون مرة، وإن كنت لا أوافق على العبارة لأن أب أيّ روح هو الرب وليس سواه. هناك الكثير مما يجدر بي التفكّر به في هذه الحقيقة. من الأفضل لي أن أنبذ – لا قدّر الله– أو أسيء إلى ابني الذي هو من صلبي، لكنك ابن الربّ أيضاً، مثلي أنا، ومثلنا جميعاً. يجب أن أكون موقّراً. مهمتي الوحيدة أن أكون كذلك. ومن الجليّ أنه عليّ أن أفكّر به من هذا المنطلق،بما أنه يمتلك القدرة على النفاذ إلى أعماقي. أحسب أنني أنجزت بالصلاة بعض التقدّم في هذا الخصوص، وإن كان ينقص الكثير بعد لإنجازه، الكثير من الصلاة التي ينبغي القيام بها.

هذه نصيحة مهمّة أسديتها للكثيرين، وأسداني إياها والدي، نقلاً عن والده. حين تقابل إنساناً آخر، أو حين يكون لديك تعامل مع إنسان ما، فعليك أن تسأل نفسك: «ما الذي يريد مني الرب فعله في هذه اللحظة، وفي هذا الوضع؟ إذا واجهت منه الإهانة أو النفور، فإن ردّة فعلك الأولى ستكون أن تردّ بالمثل. لكن إذا فكّرت بأن هذا تبليغ من الربّ وبأن لي فائدة ما منه، وأنه أولاً وأخيراً مناسبة أظهر فيها إيماني،

وفرصة أظهر من خلالها أنني أشارك فيها بدرجة ضئيلة في النعمة التي خلّصتني، فأنت مخوّل تماماً التصرّف بطريقة أخرى سوى التي يمليها عليك عليك انفعال اللحظة أو الظرف المباشر. أنت مخوّل أن تتصرّف وفقاً لذاتك أنت، وأن تتحرّر في اللحظة عينها من دافع البغض أو الازدراء تجاه ذلك الإنسان. قد تضحكه فكرة أن الرب أرسله لمصلحتك (ومصلحته)، لكن هنا يكتمل القناع، أي في جهله التام به.

ما ذكّرني بهذه الوصية هو إخفاقي الكبير في التقيّد بها أخيراً. يقول «كالفن» في مكان ما إن كلّ واحد منا هو ممثّل على الخشبة وإن الرب هو الجمهور. لطالما أثارت هذه الاستعارة اهتمامي، لأنها تجعلنا فنانين في سلوكياتنا، وردة فعل الرب تجاهنا يمكن التفكير بها على أنها جمالية بدلاً من أن تكون حكماً أخلاقياً بالمعنى الاعتيادي للكلمة. ما هي درجة استيعابنا لدورنا؟ وبأي ثقة نؤديه؟ أظنّ أن إله «كالفن» كان فرنسياً، كما أن إلهي من الغرب الأوسط، ومن نسغ «نيو إنغلندي». حسناً، معظمنا ينشغل قدر ما يستطيع بهذه المسائل. يعجبني حقاً تشبيه «كالفن»، لأنه يقترح كيف أن الربّ يستمتع بنا. أظنّ أننا لا نُعمل تفكيرنا كثيراً في هذه النقطة التي يمكن أن تساعد على فهم أمور جوهرية، بما أن العالم موجود فرضاً لمتعة الرب، لا بالمعنى التبسيطي بالطبع، لكن مثلما تستمتع بكينونة طفل ما حتى وإن كان بطرق كثيرة شوكة في قلبك. «يتصرّف على هواه»، كان العجوز بوتون يقول حين يقوم ابنه بعمل ما. وكان يقصد ذلك من باب المديح، بالفعل كان يقصده كذلك. والآن، إدوارد، على سبيل المثال، كان يتصرف على

هوى عقله بالفعل، لكنه كان عقلاً جديراً بالاحترام.

لست واثقاً من أن هذا حقيقي أيضاً، وإن كان يستحق الاحترام بالتأكيد. لكن الحقيقة هي أن عقله قد تكوّن من مجموعة معينة من الكتب، مثلما تكوّن عقلي من مجموعة أخرى. لكن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً. بينما كنت في معهد اللاهوت قرأت كلّ كتاب جاء على ذكره وكلّ كتاب حسبت أنه يمكن أن يكون قد قرأه، إذا تمكنت من الحصول عليه ولم يكن باللغة الألمانية. وإذا توافر لي المال، كنت أطلب عبر البريد الكتب التي أحسب أنه ربما يقرأها. حين جئت بها إلى البيت بدأ والدي بقراءتها أيضاً، وهو ما فاجأني في ذلك الحين. من يعرف كيف تكوّن عقلي. كلّ هذا لغز. ومع ذلك فبوتون محقّ. إن جاك بوتون هو عمل خاص من نوعه فعلاً.

من الجليّ أنه هناك حاجة إلى المزيد من الصلاة، لكن عليّ أولاً أن آخذ قيلولة.

أشعر برغبة جارفة في تحذيركما، أنت ووالدتك، من جاك بوتون. قد تكون عرفت الآن أي رجل غير معصوم عن الخطأ أنا، وكم لا يمكنني الوثوق بمشاعري في هذه المسألة. وتعرف من عيشك عدد لا أستطيع التنبؤ به من السنوات، ما إذا كنت ستسامحني على إنذارك أو على إخفاقي في إنذارك، أو ربما أمر آخر سوى هذين الأمرين. وهذا سؤال خطير بالنسبة إلي.

تلك الفقرة السابقة قد ترقى إلى مستوى الإنذار في حدّ ذاتها. ربما يمكنني أن أقول لوالدتك هذا القدر من الكلام فحسب: ليس بالرجل الرفيع الشخصية. فاحذريه.

إذا استمرّ في التردّد علينا، فأظن أنني سأفعل ذلك.

لم أكتب لك شيئاً منذ يوم أو اثنين. فقد عشت ليلتين شاقتين حقاً؛ انزعاج وضيق في التنفّس. توصّلت أخيراً إلى أن الخيارين المتوافرين أمامي هما: 1) أن أعذّب نفسي. 2) أن أثق بالرب؛ ليس من حلّ دنيوي للمشكلات التي تواجهني. لكنني لا أفعل – عبر التفكير كثيراً بها – سوى أن أزيد من حجمها، كما أحسب أنني قد فعلت. لذا سأكفّ عن ذلك. هناك مباراة اليوم بين «اليانكيز» و«رد سوكس». وهذا من حسن حظي بما أنها ستكون لعبة رصينة ولا يهمني من سيفوز فيها. فلن يكون هناك الكثير من الانفعال في مشاهدتي للمباراة. (أصبح لدينا تلفزيون؛ هدية من الرعية لكي أشاهد مباريات البايسبول، وسأفعل ذلك. لكنه يبدو ثنائي البعد مقارنة بالمذياع).

أرسلتك والدتك إلى بيت الجيران، لكي لا تضايقني، كما قالت، لكن هذا يجعلني أتساءل عن الانطباع الذي لابدّ من أنني أولّده لديها هذا الصباح. تبدو المسكينة شديدة الشحوب، فهي لم تنم أكثر مما نمت. لقد وضعوا التلفزيون أمس في الردهة وأمضوا طوال بعد الظهر وهم يحاولون تركيب الهوائي على السطح. الشبان مهتمون بصورة رهيبة

بهذه الأمور. ويسعدهم القيام بعمل لطيف محفوف بالمخاطر والغرابة في طبيعته. أذكر مرحلة الشباب تلك. أجل أذكرها.

أنزلت والدتك قرطاسيتي والكتب التي وجدتها على مكتبي، وأحضر أحدهم منضدة تلفاز[1] لكي أضع عليها دوائي ونظاراتي وكوب مياهي في أثناء مشاهدتي للمباريات. في حال كانت مهمة عندي بقدر ما يظن الجميع على ما يبدو. لا أظن ذلك شخصياً، لكن ربما كنت مخطئاً.

غفوت على المقعد وصحوت شاعراً بأنني أفضل حالاً بكثير. فوّت ثمانية أشواط ونصف الشوط، ولم يحصل شيء في الشوط التاسع (النتيجة 4 إلى اثنين لصالح اليانكيز)، لكنّ البداية كانت مشوقة وأنا متشوق لمتابعة بقية الموسم، بمشيئة الله. وجدت والدتك نائمة على الأرض وقد ألقت رأسها على رجلي. كان عليّ الجلوس بلا حراك وقتاً طويلاً مشاهداً فيلماً عن رجال إنجليز بمعاطف عسكرية يزمعون على القيام بشيء شرير يتعلّق برجال فرنسيين وقطارات. لم أتبع حقاً سياق الفيلم. حين استيقظت كانت مغتبطة جداً برؤيتي وكأنني غبت طويلاً عنها. ثم ذهبت وجاءت بك وتناولنا العشاء في الردهة - اتضح أن أياً كان من جاء لنا بالمنضدة، قد أحضر واحدة لكلّ واحد منا. بما أن العشاء

(1) TV tray: نضد صغير غالباً يكون أعلاه على شكل صينية يوضع بجانب المقعد أو الكرسي لوضع شراب أو طعام عليه أو ما شابه خلال مشاهدة التلفاز.

كان مكوناً من ثلاث وجبات ونوعين من سلطة الفاكهة والكعك والفطيرة للتحلية، فقد فهمت أن أبناء رعيتي، الذين يواجهون متاعب الحياة بأطعمة كهذه، قد أنذروا على نحو ما بشأن حالتي الصحية. كان هناك سلطة بقوليات بدت لي بطريقة خاصة كنسية، فالقلق إذن قد خرج عن وعائه المعروف. حسبتني قد متّ. وفرنا هذا للغداء.

أمضينا نحن الثلاثة وقتاً جميلاً أمام التلفاز. كان هناك بهلوانيون وقردة وأشخاص يتكلمون من بطونهم، والكثير من الرقص. طلبت لقمات من طبقي لكي تقرّر أي كسرولة تريد وأي سلطة – لديك القرف الطفولي من مزج الأطعمة في طبقك. فأعطيتك لقمات من واحد تلو الآخر، وأنا أقول لك، على وجه التخمين، هذا من صنع السيدة براون، وهذا من صنع السيدة ماكنيل... السيدة براي، ثم السيدة دوريس، السيدة تورني. وأنت تقول «لا أستطيع أن أقرّر بعد!»، فأعدنا الكرة ثانية. كانت تلك دعابتك، أن تتناول الطعام برمته. وكانت مزحة رائعة ذكّرتني بيوم القربان المقدس خاصتك. أتساءل ما إذا كنت تتذكره أيضاً.

ذهبت إلى الكنيسة لبضع ساعات هذا الصباح، وحين عدت وجدت الكثير من كتبي قد أصبح في الردهة، مع مكتبي وكرسيي وجهاز التلفزيون قد نقلت إلى الأعلى. هذه فكرة والدتك، لكنني أعرف أن بوتون الشاب هو من قام بالرفع والحمل من أجلها، أو ساعدها على

القيام بذلك. لست غاضباً من هذا. في أيّ ظرف في الحياة أرفض الغضب. فالنية من وراء ذلك حسنة. وكان يجب فعل ذلك آجلاً أم عاجلاً. صحيح أنه إذا كان عليّ أن أمضي غروبي عالقاً مع هذا الشخص أو ذاك، فإنني أفضّل كارل بارث على جاك بيني[1]. ومع ذلك، فلدي مكتبتي. ولا أشعر بالحاجة إلى التخلي عنها بعد. جاك بوتون في حجرة مكتبتي. قد يكون حمل دفتر اليوميات هذا إلى الأسفل. بعد البحث بقلق عنه في الأرجاء، الأمر الذي تطلّب مني رحلتين إلى الطابق العلوي، وجدته هنا في درج مكتبي، حيث لم أضعه البتة. بدا هذا شيئاً مزعجاً، كأنه أراد قول شيء من إخفائه عني. أعرف أنني أتكلم الآن بصورة غير منطقية.

ألقيت اليوم العظة عن هاجر وإسماعيل. خرجت عن النص المكتوب أكثر بقليل مما أفعل عادة، مما لم يكن حكيماً ربما، بما أن النوم كان صعباً ليلة البارحة. ليس لأنني لم أستطع النوم. لكنني كنت فضّلت البقاء صاحياً. تمدّدت هناك فحسب، خاضعاً بكلّ عجز لنوازع قلقي الكثيرة التي لم أستطع إبعادها عن تفكيري، إذا كان لي أن أستعمل هذا التفكير. لكن مثلما جرى كان عليّ احتمال نوع من الشلل البليد. ومكابدة الشلل أمر غريب – أشكّ في أنني حركت عضواً من أعضائي، لكن حين استيقظت كنت منهكاً في الصميم.

(1) Jack Benny (1894–1974): ممثل تلفزيوني كوميدي أمريكي معروف.

جاء بوتون الصغير إلى القدّاس. وهذا أمر ما كنت لأتوقعه. رأيته أنت ولوحت له وأومأت له إلى المقعد المجاور لك، فعبر الممر وجلس قربك. نظرت إليه والدتك لتلقي عليه تحية الصباح، ثم لم تعاود النظر نحوه، ولا مرة واحدة.

بدأت العظة بالإشارة إلى التشابه بين قصص هاجر وإسماعيل اللذين أرسلا إلى البريّة وابراهيم الذي أخذ ابنه إسحاق لكي يضحّي به، كما كان يعتقد. ما أردت قوله إن ابراهيم دعي عملياً إلى التضحية بولديه الاثنين، وإن الربّ في الحالين أرسل الملائكة لكي تتدخّل في اللحظة الحاسمة وتنقذ الطفل. وشيخوخة ابراهيم عنصر مهم في القصتين، ليس فقط لأنه بالكاد كان يأمل بالمزيد من الأطفال من صلبه، ولا لأن الأطفال في الشيخوخة كنوز لا جدال فيها، لكن أيضاً، كما أظن، لأن أي أبّ، بالأخص إذا كان طاعناً في السّن، عليه أخيراً أن يسلّم ابنه للبريّة ويثق بالعناية الإلهية. يكاد يكون قسوة وفظاظة أن ينجب جيل جيلاً آخر حين لا يأمن الأهل على أطفالهم إلا قليلاً، حتى في أفضل الظروف. فيتطلب الأمر إيماناً كبيراً للتخلي عن الطفل، والثقة بأن الرب سيكرّم حبّ الأبوين له عبر ضمان حضور الملائكة إلى تلك البراري.

وذكرت أن ابراهيم نفسه أرسل إلى البريّة، وطلب منه أن يترك منزل والده أيضاً، وهذه كانت قصة كلّ الأجيال، وأنه بنعمة الله فحسب أننا نصبح أدوات عنايته الإلهية ونشارك في أبوة هي دائماً وبالمطلق له.

هنا خرجت عن النص المكتوب لأقول إن قلق الراعي العجوز على كنيسته هو على هذا النحو نسيان لحقيقة أن المسيح في حدّ ذاته هو راعي

أولاده وأنه حضور إيماني بينهم عبر كلّ الأجيال. رأيت أن هذه نقطة جيدة، لكنها جعلت بعض النسوة يبكين، فحاولت تغيير الموضوع. طرحت السؤال لماذا يطلب الرب من ابراهيم رقيق القلب فعل أمرين قاسيين في ظاهرهما - إرسال طفل وأمه إلى البريّة وسوْق طفل آخر للتضحية به. وقد خطر لي هذا لأنني لطالما تساءلت حوله. ثم كان عليّ أن أحاول تقديم الإجابة.

خطر لي أن هذين هما الحادثتان الوحيدتان في الكتاب المقدّس اللتان يبدو فيهما الأب قاسياً مع أطفاله. يمكن أن يسأل الرب «أم أيّ إنسان منكم، إذا سأله ابنه خبزاً يعطيه حجراً؟»[1]. وهو سؤال بلاغي. فالجميع يعرف من الخبرة أن بيننا آباء كثر يسيئون معاملة أطفالهم أو يهجرونهم. وعند قولي هذا لاحظت أن بوتون الصغير عابس في وجهي، وقد اختفى اللون من وجهه. ما كنت لأختار هذا النصّ لو علمت بمجيئه، وكان يستحسن بي لو التزمت بنص العظة.

وحول القسوة الكامنة في هذه القصص قلت إنها تعكس حقيقة أن الأطفال هم غالباً ضحية الرفض أو العنف، وإنه في تلك الحالات أيضاً، والتي لولا ذلك ما كان ليؤيدها الكتاب المقدّس، فإن الطفل هو ضمن العناية الإلهية للرب. وقلت إن هذا ليس بأقلّ صدقاً لو حمل الملاك روح الطفل إلى دارها، إلى بارئها المحب المخلص، مما لو فجّر نبعاً أو أوقف السكين وترك الطفل يعيش بقية سنوات عمره.

لا أعرف مدى أهمية كلامي هذا في الإجابة عن السؤال. فهو سؤال

(1) إنجيل متّى، 7: 9.

بالغ الصعوبة لدرجة أنني أتردّد في طرحه. وأنا لم أتعامل معه قبلاً إلا من خلال المرات الكثيرة التي طلب مني الناس فيها إجابة عنه. وأياً كان رأيهم في الجواب، فإنني لم أشعر مرة بالرضا عنه.

لطالما أقلقني أنني حين أقول إن المهانين وتعساء الحظ هم مشمولون بالعناية الإلهية، أن يفهم بعضهم من ذلك أن الظلم أو الإساءة ليسا بالأمر الخطير أو الشرير. لكنّ تعاليم الكتاب المقدّس برمتها تتناقض مع هذه الفكرة. فاقتبست من كلام الرب «ومن أعثر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بي فخير له أن يعلق في عنقه حجر الرحى ويغرق في لجة البحر»[1]. هذا كلام قويّ، لكن هذا هو واقع الحال.

جلس بوتون الصغير هناك محملقاً فحسب، وهذا أمر لطالما كان غريباً فيه؛ يعامل الكلمات كأنها أفعال. لا يصغي إلى معاني الكلمات، مثلما يفعل سائر الناس. بل يقرّر فحسب ما إذا كانت عدوانية ويقيس مدى عدوانيتها. يقرّر ما إذا كانت تهدّده أو تؤذيه، ويتفاعل معها على هذا الأساس. إذا استشعر تأنيباً في أي كلام تقوله، فكأنك قد أطلقت الرصاص عليه. كأنك قرصت أذنه؟

الآن، كما قلت، لم أكن أتوقع منه أن يأتي إلى القدّاس. أكثر من ذلك، هناك الكثير ممن يكو سلوكهم تجاه أولادهم أقلّ بكثير مما ينبغي أن يكون عليه، لذا، حتى حين شردت عن النص، وإن سلّمت بأن ملاحظاتي المرتجلة لها صلة برؤيتي له جالساً هناك وتلك النظرة على محياه، بجانب طفلي وزوجتي تماماً، فقد كان غرور كبير منه أن يعتبر أن

(1) إنجيل متى، 18: 6.

كلماتي موجهة ضده، مثلما من الواضح أنه فعل.

لاحت علائم القلق على وجه والدتك. وربما كان السبب أنها شعرت بأنني أتكلم عن وضعي الخاص، ووضعك ووضعها، أو ربما لأنني عانيت قليلاً لكي أرتّب أفكاري، أو ربما لأنني كنت أكثر انفعالاً مما أكون عليه عادة. وإذا ما نظرت إلى الطريقة التي أحسستُ بها عموماً، وحتى بنصف اضطرابي، فسيكون هناك أساس للقلق في ذلك أيضاً.

لكن خطرت لي فكرة أن بوتون الصغير قد أخبرها رواية ما عن الأحداث، بما يكفي لترى هي الإيحاءات – من وجهة نظره هو – الكامنة في عظتي. لا أعرف متى يمكن أن يكون قد تكلم معها. وأحسب أنه يسهل عليه الحصول على فرصة إذا أرادها. وقد صدمني كأمر غريب أنها لم تنظر إليه ولو مرة واحدة. إذا أرادت من ذلك أن تبدو غير مكترثة لوجوده في العظة، فهذا يفسّر الأمر. وقد شعرت أن آخرين من أبناء الرعية الحاضرين شعروا أن عظتي موجهة ضده. وقد كان هذا كله سيئاً. يجب أن آمل أن خيراً ما سينتج عن الأمر برمته. لكنني لا أعرف فحسب لماذا لا يذهب ويمارس عبادته مع الكنيسة المشيخية[1].

الآن سأصلي. لكنني سأنام أولاً. سأحاول أن أنام.

---

(1) Presbyterian Church: اسم يطلق على عدد من الكنائس المسيحية التي تتبع التقليد الكالفني ضمن البروتستانتية. وهذه هي كنيسة بوتون الأب.

صباح آخر بحمد الله. نمت جيداً دون اضطراب يذكر. جاءت امرأة من رعيتي مباشرة بعد الإفطار وطلبت مني الذهاب إلى منزلها. وهي امرأة مسنة ترمّلت أخيراً، وتعيش وحيدة، وقد انتقلت للتو من مزرعتها إلى كوخ في البلدة. لا يمكنك أن تعرف أبداً أي اضطرابات أو مخاوف تنتاب هؤلاء الناس، فذهبت إليها. اتضح أن المشكلة هي مغسلة مطبخها. أخبرتني مذهولة بأن تحولاً جذرياً حصل في الكون متمثلاً في أن صنبور المياه الباردة بات يرسل مياهاً ساخنة، والعكس بالنسبة إلى صنبور المياه الحارة. فاقترحت عليها أن تعتبر أن حرف «الباء» على الصنبور للمياه الحارة والحرف «حاء» للمياه الباردة، لكنها قالت لي إنها تحبّ أن تعمل الأمور بالطريقة الطبيعية. فذهبت إلى البيت وأحضرت المفكّ وعدت وبدّلت مقبضي الصنبورين. وقالت إنها تظن أن هذا كاف حتى تأتي بسبّاك حقيقي. آه، يا للحياة الكهنوتية! أظن أن هذه السيدة حسبتني سأتخلص من المشكلة بطريقة عقائدية ما، والآن باتت أكثر ثقة من وجودها. أضحكت القصة أضحكت، مما أشعرني أنني تقاضيت كلفة أتعابي قد سُدّدت.

أنهيت ليل أمس «درب الصنوبرة الوحيدة». وقد تركت فيَّ أثراً عميقاً. الرجل الهرم يرى الفتاة مع شخص آخر بمثل سنها ويلاحظ كم هما مناسبان لبعضهما، ثم يدخل في مرحلة من الشيخوخة والترهّل

والإفلاس، في حين تبقى هي جميلة جداً بالطبع. لكن كلّ شيء ينتهي بطريقة حسنة. فهي تحبه وحده وإلى الأبد. أشكّ في أن الكتاب كان سيثير اهتمامي لولا هذا التفصيل. ثم أنني كنت أريد ان أعرف ماذا في هذا الكتاب مما أعجب والدتك كثيراً. باركها الرب، كم هي امرأة حبيبة. قرأت معظم الكتاب مساء البارحة ثم لم أعد أقوى على النوم، متسائلاً عن الأمر، فذهبت إلى حجرة مكتبتي وقرأت حتى الفجر. ثم مضيت إلى الكنيسة لكي أشاهد هبوط الفجر، لأن هذا السلام يساعدني على الهدوء أكثر من النوم. كما لو أن هناك ذخيرة من الهدوء في ذلك المكان، وكأن كلّ صمت يدخل إليها يمكث فيها. أتذكّر مرة حين كنت طفلاً وكنت نائماً أحلم دخلت والدتي إلى حجرة نومي وجلست على كرسي في الزاوية وطوت يديها في حجرها وبقيت هناك، سعيدة بصورة رائعة. وحين استيقظت وجدتها هناك، جالسة على ذاك الكرسي، ابتسمت لي وقالت «كنت أستمتع بالهدوء فحسب». ينتباني الشعور عينه في الكنيسة؛ أنني أحلم بما هو حقيقي.

يصدمني أن والدتك ما كانت لتقول لي أيّ كلمة يكون وقعها أكثر دفئاً بالنسبة إليّ أكثر من حبها الصامت لذلك الكتاب والذي لاحظته وقرأته أيضاً. كانت تلك عناية إلهيّة تخبرني بما لم تكن هي لتخبرني به.

أتمنى لو كنت واحداً من الفايكينغ[1] القدماء. كنت طلبت من الشمّاسين

---

(1) Vikings: بحارة ومحاربون ومستكشفون وقراصنة اسكندنافيون غزوا مناطق واسعة =

حملي ووضعي أمام منضدة القربان المقدَّس، ثم أن يشعلوا النيران بهذه السفينة القديمة ونبحر أنا وهي معاً نحو الأبدية. وإن كنت في الحقيقة آمل أن ينقذوا هذه المنضدة. وبالتأكيد سيفعلون.

حتى قدس الأقداس قد انكشف أمام الضوء. العتمة العميقة اختفت في ضوء النهار الاعتيادي، وصار سرّ الرب أكثر روعة فحسب. فيمكن لذخيرتي العزيزة من الصمت أن تنتشر أيضاً، والصمت العظيم لن يكون أكثر فقراً جراء ذلك. وعلى الرغم من ذلك شكراً للرب لأنهم ينتظرون إلى ما بعد رحيلي.

أحياناً أكاد أنسى الغرض من كتابة هذه الرسالة، وهو أن أخبرك أموراً كنت لأخبرك بها لو كبرت معي، أشياء أظن أنه يقع على عاتقي كأب أن أعلمك إياها. هناك الوصايا العشر، بالطبع، وأعرف أنك ستكون متنبهاً بصورة خاصة للوصية الخامسة، كرّم والديك. وأنبهك إليها لأن الوصايا السادسة والسابعة والثامنة والتاسعة تفرضها القوانين الإجرامية والمدنية والتقاليد الاجتماعية. أما الوصية العاشرة فغير قابلة للفرض حتى من قبل المرء نفسه، ولو بأقوى إرادة في العالم، وهي دائماً ما تُخرق. لقد كنت صريحاً معك حول معاناتي كثيراً أمام مشهد جميع الزيجات، وكل البيوت التي تفيض بالأولاد، لاسيما منزل بوتون؛ لا لأنني أريد هؤلاء الأولاد لي، بل لأنني أريد ابناً لي. أظنّ أن اشتهاء ما

= من أوروبا بين القرنين الثامن والحادي عشر للميلاد، وقد اشتهروا بسفنهم الطويلة.

لدى الغير هو ذلك الوخز الذي تشعر به حين حتى أكثر من تحب لديهم ما تريده وليس لديك. وفي سياق «أحب جارك كما تحبّ نفسك» (سفر اللاويين، 19:18)، فلا شيء يجعل سقوط المرء أكثر جلاء من اشتهاء ما للغير، إذ يشعر به في صميم قلبه، وفي عظامه. وبهذه الطريقة فهو تنويريّ. لم أفلح فعلاً في العمل بهذه الوصية، لا تشته ما لقريبك[1]. وقد تجنبت تجنّب عدم الطاعة من خلال الانكفاء على نفسي، كما أسلفت القول. وأنا واثق من أنني كنت سأعاني في عملي بصورة أكبر لو أنني ببساطة قبلت في نفسي اشتهاء ما لغيري كأمر محتوم، كما يبدو أن بولس قد فعل، على أنه شوكة في خاصرتي، على سبيل المجاز. «افرحوا مع الفرحين»[2]. وجدت هذا صعباً غالباً أيضاً. فأنا أفضل في «ابكوا مع الباكين». ولا أعني ذلك كدعابة، وإن كانت تنطوي على طرافة ما حين أفكّر بها.

لو أنني عشت لتعلّمتَ من مثالي، السيء والجيد فيه على السواء. لذا أريد أن أخبرك أين أخفقت، إذا كانت الإخفاقات مهمة بما فيه الكفاية إلى درجة أنْ كان لها عواقب فعلية، مثل هذا الإخفاق.

لكن بالعودة إلى مسألة تكريم والدتك. أظن أنه ثمة دلالة أن الوصية الخامسة تقع بين أولئك الذين يريدون عبادة الله بصورة صحيحة، وأولئك الذين يريدون التصرف بصورة سليمة تجاه الآخرين. لطالما تساءلت ما إذا كانت الوصايا تقرأ بالتسلسل وفقاً لأهميتها. إذا كان

(1) الوصية العاشرة، سفر الخروج، 20:17: «لا تشته بيت قريبك ولا تشته امرأة قريبك (جارك) ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حمار ولا شيئاً مما لقريبك»

(2) العهد الجديد، رومة، 12: 15.

هذا صحيحاً فإن تكريم والدتك أهم من ألا ترتكب الجريمة. هذا يبدو مذهلاً، وإن كنت منفتحاً على تقبّل هذه الفكرة.

او يمكن التفكير بها على أنها أنواع مختلفة من الشرائع لا تقارن بحسب أهميتها، وبالتالي فإن تكريم والدتك يمكن أن يكون الأخير ضمن القائمة ربطاً بالايمان الصحيح، بدلاً من أن يكون الأول في سلسلة التصرف الصحيح. أظنّ أن هذه وجهة نظر قابلة للدفاع عنها بشدة.

يقول الرسول «تنافسوا في إكرام بعضكم بعضاً»[1]، وأيضاً «أكرموا جميع الناس»[2]. فالوصية أضيق بكثير من هذا. كان الشرّاح القدماء يقولون أن «أمك وأباك» تشمل كل من له سلطة عليك، لكن هكذا فكّر الناس طويلاً والكثير من الأذية نتج عن ذلك؛ فالعبودية كانت «أبوية» وهلمجرا. كل من يصدف أنه له سلطة عليك هو أحد والديك! عندئذ كان ليكون هناك الكثير من الآباء القساة الفظين في هذا العالم «ما بالكم تسحقون شعبي وتطحنون وجوه المساكين؟»[3] أيذكر النص في أي مكان «الأطفال سيمنحون الخير وسيعود الآباء خالي الوفاض؟». لا. لأن الآباء لا يتساوون مع الأثرياء أو أولئك الذين هم في موقع السلطة. لا نرى في أي موضع من مواضع الكتاب المقدّس أباً يعامل أطفاله بالشرّ، لكن الثري وصاحب الجبروت يميلان إلى أن يكونوا في الكتاب المقدّس أشراراً أكثر مما هم عدا ذلك. وإذا كان تكريم السلطة

(1) العهد الجديد، رومية، 12: 10.

(2) العهد الجديد، رسالة بطرس الأولى، 2: 17.

(3) العهد القديم، إشعياء، 3: 15.

يعني فقط ألا تحيد عن طريقك لكي تتحداها، فهذا فعلياً يتذل فكرة التكريم مثلما يمكن أن تنطبق على أمّ حقيقية. ولن تكون شيئاً جميلاً أو رائعاً كفاية حتى يوضع في وسط الوصايا العشر مباشرة، وذلك لهدف خيّر.

أظن أن الوصية الخامسة تنتمي إلى اللوح الأول[1]، بين القوانين التي تصف العبادة الصحيحة، لأن العبادة الصحيحة هي إدراك صحيح (انظر خاصة رومة 1)، وهنا الكتاب المقدس يأمر بالإدراك الصحيح للناس الذين تعرفهم بعمق. كيف تكرّم شخصاً ما يختلف بحسب الظروف، بحيث يمكنك حقاً أن تلتزم التزاماً عاماً بأن تبدي التكريم في حالات محددة من الحميمية والفهم المتبادل. وإذا كان هذا كله منحازاً إلى الوالدين، فيجب أن أذكرك بأن المثال الدائم في الكتاب هو مثال آباء يكرمون أطفالهم. من الجدير بالملاحظة هنا أنه ليس آدم بل الرب الذي يوبّخ قايين. أما الياس فلا يوبّخ أولاده أبداً، ولا صموئيل. ولا داوود يوبّخ أبشالوم. وفي النهاية يعقوب العجوز الشيخ المسكين يوبّخ أبناءه وهو يباركهم. وهو أمر جدير بأن يؤخذ في الاعتبار.

ثمة عظة هنا. الابن الضال بوصفه النص الإنجيلي. يجب أن أسأل بوتون ما إذا لاحظ هذا. لكنه بالطبع لاحظه، بالطبع لاحظه. يجب أن أعمل تفكيري أكثر في هذه المسألة.

ما أرمي إلى قوله هنا هو أن رحمة الرب العظيمة وعنايته الإلهية أعطتنا

(1) ألواح النبي موسى التي أنزلت عليه، والقصد هنا أنها جاءت مباشرة من الرب ولم يتمّ تناقلها شفهياً بعد ذلك، فالمعروف أن الوصايا العشر واردة في سفري «الخروج» والتثنية».

معظمنا شخصاً نكرّمه - الطفل والديه، والوالد ولده. أكنّ احتراماً عظيماً لاستقامة شخصيتك وطيبة قلبك، وما كانت والدتك لتكون أكثر فخراً بك أو حباً لك. لقد عاشت كل لحظة من حياتك، تقريباً، وهي تحبك كما يحبك الرَّب، حتى صلب عظامك. فهذا إذن تكريم الطفل. أترى كم من الألوهي أن تحب كينونة شخص ما. وجودك هو مسرة لنا. وأتمنى ألا تنتظر طويلاً أن يكون لك طفل مثلما فعلت، لكن آه، كم كان رائعاً أنك أتيت أخيراً، وأي نعمة الاستمتاع بك خلال السنوات السبع الماضية.

بالنسبة إلى تكريم الابن لأبيه، فأظن أن هذا كان يجب التوصية به لأن الأب لغز أعظم، غريب بمعنى من المعاني. الكثير من حيواتنا مر، وهذا ينطبق حتى على والدتك، على الرغم من أنها تصغرني بجيل كامل على الأقل، لكنها عاشت زمناً قبل أن ألتقيها؛ كانت دخلت ثلاثينياتها حين تزوجنا. كما قلت سابقاً، أظنّ أنها عانت الكثير من الأسى خلال تلك السنوات. لم أسألها قطّ، لكنني تعلمت في حياتي كيف يكون الحزن الراسخ والاعتيادي، وحين رأيتها فكرت من أين جئت يا طفلتي العزيزة؟ جاءت خلال الصلاة الأولى وجلست على المقعد الأخير ونظرت نحوي، ومن تلك اللحظة كان وجهها الوجه الوحيد الذي رأيته. سمعت رجلاً يقول مرة إن المسيحيين يعبدون الأسى. وهذا ليس صحيحاً البتة. لكننا نعتقد - ومن المنصف قول ذلك - أن هذا الأسى ينطوي على لغز مقدّس. ثمة شيء في وجه أمك يشعرني دائماً بأنني بأنني مدين لها وبأن عليّ أن ألبي هذا الدين، وكأن هناك حقيقة ما

فيه تختبر صدق ما أقوله. وهو وجه حسن متقد الذكاء، لكنّ الحزن منطبع في الذكاء، حتى ليبدوان شيئاً واحداً. أظن أنه هناك جلال في الأسى ببساطة لأن بهجة الرب البسيطة أن يكون الأمر كذلك. فهو إلى الأبد يسمو بأولئك الذين تنخسف بهم الأيام. وهذا لا يعني البتة أنه من الصواب التسبب بالألم أو البحث عنه حيث يمكن تجنّبه، وحيث لا يؤدّي أيّ خير، وأيّ هدف عملي. ذلك أنَّ حبّ المعاناة في حدّ ذاتها يمكن أن يكون خطيراً وغريباً، لذا أريد أن أكون بالغ الوضوح حيال ذلك. إنه يعني ببساطة أن الرب ينحاز إلى المتألمين ضدّ من يتسبّبون بهذا الألم (آمل أن تكون على ألفة بالأنبياء ولا سيما إسحق).

والدتك لا تتكلم البتة عن نفسها، حقاً، ولا تعترف أبداً بأنها عانت أيّ أسى في حياتها. هذه شجاعتها، كبرياؤها، وأعرف أنك ستكون محترماً له، وأن تتذكّر في الوقت نفسه أنه المطلوب الكثير الكثير من الرقة واللطف. لأنّ أحداً لم يكتسب مثل هذه الشجاعة ما لم يحتج إليها. لكنك قد لا تعي ذلك في صغرك. لطالما قلقت قليلاً حول الطريقة التي يتصرف بها الأناس في الكنيسة معها. فهي بعيدة، ولكن لا يسعها سوى ذلك. فيصبحون بعيدين أيضاً. ومن جهة أخرى، لطالما فكرت أننا مناسبان تماماً لواحدنا الآخر، بصرف النظر كيف تبدو لأنني رأيت ما يكفي من الحياة لكي أفهمهما. هم ليسوا غير لطفاء، ولن يتردّدوا في أن يقدّموا لها أيّ مساعدة تقبلها. لكن معظمهم لا يرى الذباب الذي فيها على نحو ما أراه. أظن أنها ربما تكون قاسية معهم بعض الشيء.

كتبت لها رسالة تتضمن بعض التوصيات. وسأضيف هذا إليها،

لقد منحت أناساً مالاً على مرّ السنين، ليس بكميات كبيرة، لكن نسبة كبيرة من راتبي. وبصورة عامة، اختلقت لهم القصص عن تبرعات من مجهولين أو ما شابه. وأشك أن معظمهم لم يصدّقني. في ذلك الوقت لم تكن لديّ أدنى فكرة أنني سأرزق بزوجة وطفل، فلم أفكر كثيراً في الأمر كما سبق وأسلفت. لا أحتفظ بأيّ سجلات، ولا أتذكّر الأفراد أو الظروف. كما أنني سددت ثمن أمور متعلقة بالكنيسة مثل الطلاء وألواح النوافذ وما إلى ذلك. فقد مررنا بأوقات صعبة لم يكن في مقدوري خلالها أن أطلب من أحد أن يوفّر ما يمكنني توفيره بنفسي. أقول هذا فقط لأنني أريدك ألا تفكّر بأيّ خدمة يسديها الآخرون إليكما، حتى ولو بوفرة، بوصفها صدقة بل تسديداً لدين. لم أفكر أبداً بأن أبناء رعيتي مدينون لي، لكن الحقيقة أنني رميت الكثير من الخبز في تلك المياه، وأي خبز يعود ستتلقونه كأنه من يدي بالذات. ببركة الرب طبعاً.

لكنني رغبت في قول بضعة أشياء عن الوصية الخامسة، ولماذا ينبغي أن تُعتبر ضمن اللوح الأول. بإيجاز، إن العبادة الصحيحة للرب هي جوهرية لأنها تشكّل العقل باتجاه الفهم الصحيح للرب. يجب أن يوضع الرب جانباً – فهو الواحد، ولا يجب تخيله كشيء بين الأشياء (الوثنية؛ وهذا ما أخفق فيورباخ في فهمه). اسمه يوضع جانباً. إنه مقدّس (وهو ما أعتبره انعكاساً لقدسية الكلمة- التعبير الإبداعي الذي

لا لغة تعبّر عنه). ثم السبت ينفصل عن بقية الأيام، لبهجة الوقت ومدته ربما، فوق الكائنات التي تقطن الوقت. لأن «البدء» الذي يمكن أن نسميه بذرة الزمن، هو شرط كل الأشياء التي تتبعه. يبدو لي إعادة سرد لقصة التكوين - أولاً كان الربّ، ثم الكلمة، ثم اليوم، ثم الرجل والمرأة، وبعد ذلك قايين وهابيل - لا تقتلوا - وكل الخطايا الواردة في هذه الوصايا، مثل الجرائم التي يجري تسجيلها في القوانين التي تحاربها. فربما تختلف في خطابها بين الأبدي والدنيوي.

ما يتولد عند المرء لدى قراءته الوصايا العشر هو فكرة الأب والام على أنهما الأب والأم الكونيان، الأثيران لدى الرب؛ أي الإنسانية الجوهرية التي هي من خلق يديه. هناك معيار في هذه الوصايا يقوم على عزل الأشياء عن بعضها بحيث تُدرَك قدسيّتها. كلّ يوم مقدّس، لكن يجري فصل السبت كتأكيد على قدسية الوقت. كل كائن يستحق الإجلال، لكن ممارسة الإجلال بصورة واعية يجري تعلّمها من خلال هذا الفصل بين الوالدين، الذين عادة يكدحون وقد يكونون مثقلين بالهموم، ويمكن أن يكونوا معتوهين أو بخلاء أو جهلاء أو متغطرسين. صدقني يمكن أن يكون الالتزام بهذه الوصية صعباً. لكنني أعتقد أيضاً أن مكافآت إطاعتها عظيمة، لأنه في جذر الإجلال الحقيقي ثمة دائماً حسّ بالقداسة تجاه الإنسان الذي هو موضوعها. في حالة والدتك بالذات، أعرف أنك إذا حرصت عليها بهذه الطريقة، فستجد حباً

كبيراً فيها. حين تحبّ إنساناً ما إلى الدرجة التي تحبها بها، فستراه بعين الرب، وهذا يريك طبيعته، وطبيعة الإنسانية والكينونة نفسها. ولهذا أجدني مقتنعاً بانتماء الوصية الخامسة إلى اللوح الأول.

نمت نوماً بصورة مقبولة. عادة أبقى في البيت أيام الاثنين عندما أستطيع ذلك - يوم راحتي - فيكون لدي الصباح للتفكير والصلاة وأيضاً لبعض التكاسل. وبينما أفعل ذلك خطر ببالي ما ينبغي أن أقوله لنفسي في حال جئت قاصداً نفسي للنصيحة. وهذا، في الحقيقة، أفعله طوال الوقت، مثلما يفعل أيّ شخص عقلاني، صحيح أنه هنالك في تفكيري، لأن يلغي طرفا السؤال المتعارضان أحدهما الآخر بطريقة حسابية إلى هذا الحدّ أو ذاك، ولكن من جهة أخرى، أكتشف نوعاً من التعادل المثير للاهتمام في الاعتبارات وإن لم يك يحلّ شيئاً. لو وضعت أفكاري على الورق لربما أمكنني التفكير بوضوح أكبر. وحيث يكون الحلّ ضرورياً فعليه أيضاً أن يكون ممكناً. ألا أتخذ قراراً هو في الحقيقة أحد الخيارين المتاحين أمامي، فينبغي أن يأخذ القرار حقّه أيضاً. فكسلوك عدم اتخاذ قرار بفعل شيء يمكن أن يكون مماثلاً لاتخاذ قرار بفعل شيء ما. وإذا ما كنت سأضع أحدهما في كفة، والثاني في كفة أخرى، فإن المساحة الفاصلة بينهما ستمنح لعدم اتخاذ قرار. أظنّ أن هذا يستقيم منطقياً.
ما أريد قوله في أيّ حال من الأحوال هو أنه علي أن أضع تأكيداً خاصاً وتصحيحياً على احتمال القيام بالشيء الذي أكره القيام به، وهو أن

أخبر والدتك بما أظن أنه يجدر بي أن أخبرها به.

سؤال: ما أكثر ما يخيفك أيها الذاهب إلى الموت؟[1]

جواب: أنا الذاهب إلى الموت، أخشى أن أترك زوجتي وطفلي غافلين تحت سيطرة رجل ذي شخصية مشكوك بها للغاية.

سؤال: ما الذي يجعلك تظنّ أن اتصاله بهما أو تأثيره عليهما سيكون كبيراً إلى درجة أن يكون مؤذياً لهما؟

الآن، هذا سؤال جيد حقاً، وهو سؤال ما كنت لأفكر بطرحه على نفسي. والجواب سيكون: حسناً، لقد زارنا في البيت بضع مرات، وجاء مرة إلى الكنيسة. وهذا لليس (ليس) بالجواب المقنع. الحقيقة هي أنني بينما كنت واقفاً هناك في المنبر، ناظراً إليكم الثلاثة في الأسفل، بدوتم لي عائلة جميلة شابة، واضطرب قلبي الشرير العجوز في داخلي، وسيطر عليّ اشتهاء ما للغير الذي ذكرته في موضع آخر، وشعرت بما كنت أشعر به حين كانت روعة حيوات الآخرين بمثابة الإساءة والبؤس لي. وشعرت كأنني أنظر إلى الحياة من القبر.

حسناً، الحمد لله أنني فكّرت بإمعان بهذا الأمر.

(1) في الأصل باللاتينية Moriturus: المشرف على الموت، كان المجالدون يحيون الإمبراطور الروماني قبل البدء بالقتال في الحلبة قائلين: **Moriture te salutant** أي أولئك المقبلون على الموت يحيونك. الكلمة يمكن أن تعني أيضاً «الفاني».

وبما أنني أتكلم بنزاهة سأضيف هنا أنني طوال نحو شهرين شعرت بتغيُّرٍ ما في طريقة تصرّف الناس معي، وهذا ربما يكون ببساطة انعكاساً لطريقة تصرفي تجاههم. ربما لا أفهم الأمر قدر ما ينبغي لي. ربما كلامي ليس منطقياً قدر ما يجدر به.

الحقيقة هي أنني لا أريد أن أكون طاعناً في السّن. وبالتأكيد لا أريد أن أكون ميتاً. لا أريد أن أكون ذلك الهزيل الذي بالكاد تتذكره. وأتمنى بقوة لو عرفتني شاباً، وليس شاباً كثيراً بالضرورة. كنت في وضع مناسب جداً في الستينيات من عمري. وهذا مما ورثته عن والدي وجدي. لم أكن عريض الجسم مثلهما، لكنني كنت شديد البأس وافر الصحة. وحتى الآن، لو أنّني أثق بقلبي، لكان هناك الكثير مما أستطيع فعله.

لست مضطراً إلى الإحساس بالذنب لتفكيري على هذا النحو. فقد بكى الرب في الحديقة ليلة تعرّضه للخيانة، كما قلت لأناس في مثل وضعي مرات كثيرة. فإذن ليست مجرد مسألة وثنية مقيمة فيّ التي تجعلني أمقت ما يجدر بي أن أرحّب به، على الرغم من أنه تشوب أساي بجلاء مشاعر مخزية، مشاعر من نوع آخر. بالطبع، بالطبع. «ويحي أنا الإنسان الشقي من يحررني من جسد هذا الموت؟»[1]. حسناً، أعرف الإجابة عن هذا السؤال. «لا نرقد كلنا، كلنا نتغير، في لحظة في طرفة

(1) رسالة بولس إلى أهل رومية، 7: 24.

عين»[1]. يذكّرني هذا بالدوران السريع على رجل واحدة، بشيء يشبه قليلاً رميك كرة بايسبول على مستوى منخفض، وبسرعة شديدة[2]، حين تكون من اليفاعة إلى الحدِّ الذي لا يعرف جسدك عنده معنى الجهد. لا يعقل أن يكون بولس قد عنى شيئاً آخر مختلفاً كلياً عن ذلك. فهناك هذا إذن للتطلع إليه.

أقول هذا لأنني أشعر حقاً كأنني أخفق، ولا أعني ذلك بالمعنى الجسدي. وأشعر كأنني قد نسيت، كأنني متشرّد لا يتذكّر أحد العودة من أجله. رأيت حلماً كهذا ليلة البارحة. كنت وبوتون في الحلم. العجوز المسكين بوتون.

هذا الصباح جئتَ لي برسم جديد تريد أن تريني إياه. كنت أنهي قراءة مقال في مجلة، الفقرة الأخيرة منه، فلم أنظر فوراً. فقالت لك والدتك بأرقّ وأكثر الأصوات حزناً، «إنه لا يسمعك»، لم تقل، «لم يسمعك»، بل «لا يسمعك».

كان المقال في غاية التشويق. كان عدداً قديماً من «مجلة المرأة المنزلية»[3]

(1) رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس: 15: 51–52.

(2) Line Drive: في البايسبول، هذه الرمية السريعة تكون منخفضة بمستوى الأرض أو بالتوازي معها، وهذا يفسّر حركة الدوران أو الالتفاف التي تصفها الكاتبة والتي هي في الأصل حركة الالتفاف على رجل واحدة في رقص الباليه. في الصورة برمتها الإشارة إلى السرعة الخاطفة.

(3) Ladies' Home Journal: بالأحرى مجلة النساء المنزلية، واحدة من أكثر المجلات النسائية انتشاراً في أمريكا، تأسست عام 1883، وما زالت مستمرة إلى يومنا.

وجدته غلوري في مكتبة والدها وأحضرته لي لكي أتصفحه. كان هناك ملحوظة عليه: «أره لآيمز»، لكن انتهى به الأمر تحت كومة من الأشياء على ما أظن، لأنه يعود إلى العام 1948. المقال بعنوان «الرب والشعب الأمريكي»، ويفيد بأن 95 بالمئة منا يقولون إنهم يؤمنون بالرب. لكنّ إيماننا هذا لا يرقى إلى معايير الكاتب على الإطلاق. فبالنسبة إليه فجميع هؤلاء الناس، الذين يرتادون جميع تلك الكنائس، ليسوا إلا كتبة وفريسيين[1]. يبدو لي أنه هو بنفسه من الكتبة، وهو يتذمّر ويلوم ويوبّخ على نحو ما يفعل، كيف تميّز بين واحد من الكتبة ونبي: وهو ما يحسب هذا الكاتب نفسه؟ الأنبياء يحبّون الناس الذين يوبّخونهم، وهو أمر لا يبدو أن كاتب هذا المقال يفعله.

تذكرني الغرابة الكامنة في عبارة «يؤمنون بالرب» بذلك الفصل الأول من كتاب فيورباخ، الذي يتكلم في عمقه عن غرابة اللغة، لا عن الدين. لا يتخيّل فيورباخ إمكانية وجود خارج هذا الوجود، وأعني به واقعاً يهضم هذا الواقع ويتجاوزه، على نحو مثلاً، ما يهضم هذا العالم فهم «سوبي» له ويتجاوزه ويتجاوزه. فقد تكون «سوبي»، معنا جميعاً، ضحية نزاع أيديولوجي، إذا خرجت الأمور عن السيطرة. وقد تنظر للأمور من منظور قططي، لا يكون له صلة بـ «ديكتاتورية البروليتاريا» ولا بـ «مشروع مانهاتن»[2]. وبذلك فلن يكون لمفاهيمها غير الدقيقة

(1) المنافقون، إنجيل متى، 23: 25: «ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تنقون خارج الكأس خارج الكأس والصحفة، وهما من داخل مملوءان اختطافاً ودعارة».

(2) Manhattan Project: الاسم السري للمشروع النووي الأمريكي إبان الحرب العالمية الثانية. والإشارة هنا طبعاً هي إلى الحرب الباردة بين الاتحاد السوفييتي سابقاً =

أي صلة بحقيقة الوضع.

هذه طريقة قاسية في التعبير عن الأمر، وليست بالدقيقة جداً. لا أرغب في اقتراح واقع يكون ببساطة مضخّماً أو نسخة استدلالية من هذا الواقع. إذاً فكّرت كيف أن شيئاً نسميه حجراً يختلف عن شيء نسميه حلماً - درجات التفاوت ضمن الواقع الذي نعرفه شديدة التطرّف، وما أرغب في اقتراحه هو تفاوت أكثر تجريداً، نعيش ضمنه، وإن كان شرطنا الإنساني ينشئ فينا وعياً شديد المحدودية عن ماهية الوجود. وقد وعظت ذات مرة حول هذا الأمر، وكان النص «أفكارك ليست أفكارنا». وكان هذا منذ أكثر من شهرين. أعتقد أنه كان في العام الماضي. وقد ارتأيت وقتذاك أنها حيرت بعض الناس، لكنني سررت بها. وحتى أنني تمنيت لو أن إدوارد سمعها. شعرت أنه كان من شأنها توضيح بعض الأمور. أتذكر أن إحدى السيدات سألتني، وهي تخرج من الباب «من هو فيورباخ؟». وهذا جعلني أنتبه إلى ذلك الميل لديّ للعيش أكثر مما يلزم في إطار أفكاري الخاصة. أرادت والدتك أن تسمّي القطة فيورباخ، لكنك أصررت على اسم «سوبي».

ربما يكون صحيحاً أن اهتمامي بالأمور المجرّدة – التي كانت تغتفر في البداية بداعي حداثة السن ثم غرابة الأطوار – تغتفر الآن على أساس الخرف، مما يعني أن الناس كفّوا عن البحث عن معنى ما أقوله مثلما كانوا في السابق. وهذا قد يكون أسوأ بما لا يقاس من النسيان. كان لديّ كتاب صغير طريف يتضمن نوادر العظات. وقد تلقيته هدية على

= والولايات المتحدة الأمريكية في أعقاب الحرب العالمية الثانية.

ما أذكر، دون اسم مؤلف عليه. منذ كم سنة حصلت عليه؟ لعلني كنت أضجر الناس منذ سنوات طويلة. من الغريب أن أجد راحة في هذه الفكرة. لطالما شعرت بأن ثمة أموراً عليّ أن أخبرهم بها، ولو لم يصغ أحد منهم أو يفهم. وأحد هذه الأشياء هو أن الكثير من التهجمات على الايمان الديني، التي شهدت انتشاراً خلال العقد أو العقدين الأخيرين، هو بلا معنى. يجب أن أقول لك هذا، لأن كلّ شيء آخر أخبرتك إياه، وإياهم، يفقد تقريباً كل معناه كما حقه بالاهتمام إذا لم ترسخ هذه الفكرة.

ولو بحثت في عظاتي القديمة، فقد أجد الكثير منها يتطرق لهذه المسألة. بما أنني فرضاً أقترب من نهاية زمني وعافيتي، فهذه أفضل طريقة توضح لك الأمر. كان عليّ أن أفكر بهذا قبل وقت طويل.

عرجنا بعد ظهر اليوم على منزل بوتون لكي نعيد إليه المجلة. أمسكت يدي طوال الطريق، إلا حين تطايرت حولنا بذور حشيشة اللبن وحاولت التقاطها، لكنك عدت وأمسكت يدي ثانية. يصعب أن تكون صبوراً معي، بالطريقة التي أمشي فيها زحفاً هذه الأيام، لكنني أحاول ألا أهيّج قلبي. كان هناك الكثير من أيام الصحو هذا الصيف بحيث بدأت أسمع كلاماً عن الجفاف. الغبار والجنادب جيدة على طريقتها أيضاً، ضمن الحدود. أياً يكن ما سيأتي فسأحزن لافتقاده.

كان بوتون جالساً على الشرفة الخارجية «يصغي إلى النسيم»، كما قال.

«يتحسّس النسيم». أحضرت لنا غلوري بعض الليموناضة وجلست معنا، وتحدثنا قليلاً عن التلفاز. كانت والدتك تشاهده أيضاً. عن نفسي لا أستمتع به، فهو لا يوفر لي الانطباع الذي أريده عن هذا العالم.

اتضح أنه حين عثرت غلوري على ذلك المقال وسألت أباها ما إذا كان ما زال يريدني أن أطّلع عليه، طلب منها أن تقرأه له، ثم ضحك وقال «آه، أجل، بكل تأكيد، الموقّر آيمز سيحبّ إلقاء نظرة عليه». فهو يعرف ما يغضبني، وأخذ يضحك مترقباً ما سأقوله ما أن جئت على ذكره.

اتفقنا على أن هذا المقال حظي بالتأكيد بنصيب واسع من القراءة من قبل رعيتينا، لأنه على إحدى الصفحات هناك وصفة لتحضير سلطة هلام البرتقال مع الزيتون الأخضر المحشو والملفوف المقطّع وسمك الأنشوفة، وهي من الأطعمة التي دأبت نسوة رعيتي على إعدادها خلال السنوات الماضية، والتي تظهر في منزله كلما أصيب بالزكام. ينبغي أن يكون هناك قانون يمنع وصفات السلطات من هذا النوع من الظهور ضمن عشرين صفحة من أي مقال يتعلق بالدين. انتهى بي الأمر بإعادة المجلة معي إلى البيت لأنني فكرت أنني قد استخدم المقال في عظة ما.

هناك فكرتان مخاتلتان، من وجهة نظر المسيحية في العالم المعاصر. (لا ريب أنه (أنَّ) هناك أكثر من اثنتين، لكن الأفكار الأخرى عليها أن

تنتظر). الأولى هي أن الدين والتجربة الدينية هما نوع من الأوهام (فيورباخ، فرويد، إلخ)، والأخرى أن الدين هو في حدّ ذاته حقيقي، لكنّ ظنّك بأنك تشارك فيه، هو الوهم. أظن أن الفكرة الثانية هي الأكثر خبثاً، لأن التجربة الدينية فوق كلّ شيء هي التي تمنح الدين أصالته، في ما يخص المؤمن الفرد.

لكنّ الناس بمختلف درجات الحساسية الدينية هشون دوماً تجاه الاتهام بأن وعيهم أو فهمهم لا يحوز أعلى معايير الايمان، لأن هذا صحيح دائماً بالنسبة إلى الجميع. وقد عبّر القديس بولس ببلاغة عن هذا الأمر. لكن إذا كانت غرابة الدين وزيفه وإخفاقه تفسّر على أنها تعني أنه ليس من جوهر حقيقي له - والكتاب المقدّس من أوله إلى آخره لا يؤيّد هذه النظرة - فعندئذ لا يعود الناس قادرين على الوثوق بأفكارهم وبانطباعاتهم عن الايمان وبفهمهم وحتى بإيمانهم بالتسامي الضروري في تجربتهم وتجربة جيرانهم الايمانية والمتصدّعة بلا نهاية. يبدو لي أن ثمة عبثاً أكثر بما لا يقاس من الإلحاد. يبدو أن روح الاعتقاد بالصلاح الديني الذاتي التي يرثي غيابها هذا المقال هي بالضبط الروحية التي كتب بها. وبالطبع هو محقّ في ما خص العديد من الأمور، وأحدها القدرة التدميرية لنزعة الاعتقاد بالصلاح الديني الذاتي.

هذه عبارة أضحكتني وبوتون كثيراً «يمكن أن يسأل المرء كم مسيحيّاً يستطيع تعريف المسيحية». فأضفت: في خمسة وعشرين مجلداً أو

أنقص.

قال بوتون: «بل أقل»[1]، وغمز غلوري، فقالت: «ديدنه الدقة والتمحيص»، وهذا صحيح.

(استعمل بالطبع كلمة معاصرة، وهو يعرف ذلك. لكنه لا يجيزه. وأنا لا أستعمله كثيراً. لكنني أظن أنه لا بأس البتة بالمزاح من حين لآخر).

وهذه فقرة توقفنا عندها: «هناك بالتأكيد نبرة من الغرور الآثم في الثقة التي تعبّر بها الأغلبية عن أفكارها عن الآخرة. إذ على الرغم من أن الكتاب المقدَّس يقول الكثير عن يوم القيامة، فإنه لا يقدّم صورة نهائية عن الحياة ما بعد الموت. ومع ذلك أقلّ من ثلث الأمريكيين – 29 بالمئة – يعترفون أنه لا فكرة لديهم عن أحد أكثر المواضيع التباساً في الكتاب المقدَّس».

والآن، هذا أحد التفسيرات التي أسميها مضَلِّلة أن يقول المرء إن موضوعاً ما هو موضوع ملتبس لا يعني أن المرء لا يمكنه تشكيل أفكار عنه، أو لا يجدر به فعل ذلك، ولا يعني حتى أنه من الممكن تجنّب تشكيل أفكار عنه. أيّ مفهوم يوجد في العقل يوجد مطلقاً بشكل ما، ضمن مجموعة ما من الارتباطات. أحبّ التكلم إلى أولئك الـ 29 بالمئة ممن ليس لديهم أي فكرة، لأرى كيف يفلحون في ذلك. أراهن أنهم لم يستسيغوا السؤال فحسب.

(1) في النص الأصلي يستعمل الراوي كلمة Less فيصحح له بوتون بكلمة Fewer بوصفها أكثر دقّة.

يقول بوتون إن المزيد من الأفكار تتشكّل لديه يومياً عن الآخرة. قال «أفكّر بصورة رئيسية بروعات العالم وأضربها بضعفين. وكنت لأضربها بعشرة أضعاف أو باثني عشر ضعفاً لو كنت أملك الطاقة. لكنّ ضعفين أكثر من كافيين بالنسبة إليّ». إذن، هو جالس هناك فحسب يضرب بضعفين الإحساس بالهواء ورائحة العشب. قال: «أتذكّر يوم وضعنا تلك العربة القديمة على سطح المحكمة، يبدو لي أن النجوم كانت أشدّ لمعاناً في تلك الأيام، كانت تتوهّج بقوة مضاعفة».

«وكان ذكاؤنا ضعفي اليوم».

«آه، أكثر من ذلك، أكثر بكثير من ذلك».

جاء جاك وانضمّ إلينا. سأل إذا يمكنه الاطّلاع على المقال، فأعطيته إياه. قال «أظنّ أنه يوضح في مكان ما هنا أن معاملة الأمريكيين للزنوج تؤشّر إلى افتقارهم إلى الجدّية الدينية».

قال بوتون: «يسهل كثيراً إطلاق الأحكام».

ابتسم جاك وأعاد لي المجلة، وقال: «هذا صحيح».

كانت تلك المرة الأولى التي أراه فيها منذ قدّاس الأحد. خرج من الباب الجانبي ومن جهة المذبح لكي يتجنّب مصافحتي على ما أظن. وكنت أشعر بضيق من ذلك اليوم ومن أمور أخرى، وحتى بالإحراج من أن تتلاقى عيوننا. أظنّ أن إعادة المجلة كانت حجّة لأتأكد ما إذا كان بوتون وغلوري مستاءين مني. فأنا لم أنته من قراءة المقال وكنت منذ البداية أنوي إعادة المجلة معي. أحياناً أخفي جيداً دوافعي عن نفسي. وحتى أنني تخيلت، في سهادي ذاك ليل الأحد، أنه قد يرحل

ثانية لأنني جئت على ذكر الكارثة القديمة من جديد، هنا في الكنيسة، أو أنه ظنّ ذلك. فكّرت في الاعتذار لكن هذا من شأنه فقط أن يؤكد له أن نيتي وقصدي كانا ما حسبه فعلاً، وهو ما لا أعتقده كلياً، والذي سيحرمه من إمكانية القيام بتفسير أقلّ أذية لهما. في أيّ حال فإن هذا سيثير الموضوع بيننا، دون حاجة ربما. أخيراً تردّدت في زيارة بوتون، خشية من أن مجرد حضوري قد يكون عاملاً استفزازياً، مثلما خشيت أن يكون لابتعادي التأثير نفسه. ثم جاءت غلوري لتلقي التحية. وبدا مزاجها حسناً. فارتحت كثيراً. إذا كان ثمة ما لا أريد فعله في ما تبقّى لي من حياتي أو حياة بوتون، هو أن أشعره بالإساءة. رحت أفكر كم ممتع له أن يكون جاك عنده، وخطر لي أنه كرم كبير من طرف جاك العودة إلى العجوز المسكين، وربما إلى غلوري أيضاً، أخذاً متاعبها في الحسبان. شعرت بالخجل حين تذكّرت كم كنت متشوقاً لكي يغادر الكنيسة، مفكراً في حياتي فحسب، أعترف بذلك. وقد تصوّرت أنه جاء فقط لكي يبدأ بنقل والده من البيت، بمعنى ما، بما أنه وسواه من أولاد بوتون سيرثونه. المكان يحتاج بالفعل إلى ترميمات، وثمة أكثر بكثير مما يحتاج إلى فعله مما فعلته غلوري وحدها. جالساً على الشرفة مع جاك، فوجئت كم تقدّم بالسن. بالطبع لقد كبر كفاية ليبدو عليه التقدّم في السن. إنه في الأربعينات، أنجلينا في الحادية والخمسين تقريباً، فهو إذن في الثالثة والأربعين. هناك بعض الشيب على شعره، ويبدو متعباً حول عينيه. حسناً، بدا مجهداً، مثلما يبدو دائماً، ودائماً حزيناً، أو هكذا شعرت تجاهه.

جاءت والدتك لتخبرنا أن عشاءنا جاهز. كان عشاء بارداً، قالت، فلا حاجة إلى الاستعجال. وافقت على الجلوس معنا لبضع دقائق. ينبغي دائماً تملقها لكي تبقى قليلاً في وجود الآخرين، ولكن هذا أيضاً كل ما يمكنني فعله لاستنطاقها بكلمة ما. أظنّ أنها غير مرتاحة لطريقة كلامها. أحبّ طريقة كلامها أو كيف تكلمت حين تعرفت إليها «أنا غير مهمة»، قالت، بذلك الصوت المنخفض الناعم. هذا ما تقوله حين تقصد أنها سامحت أحدهم، لكنّ صوتها ينطوي على حزن أعمق، وكأنها تسامح الخلق برمته، بل الربّ نفسه. يحزنني أنني قد (ربما) لن أسمعها تنطق ثانية تلك الكلمات. أظنّ أن بوتون جعلها واعية لذاتها بحيلته تلك في التصويب للآخرين، وإن لم يكن قد صوّب لها بصورة مباشرة.

«أنا لا أهم». كان يبدو كأنها تنطق الكلمات نفسها لكي لا تجعل شيئاً مسيئاً لها. نكران مسرف للذات، ذلك الإسراف الذي أتذكره من الأيام الخوالي. ليس لدي ما أقدمه لك، خذ وكل. خبز الرقاق المرمّد، مطر الصيف، شعرها يسقط مبللاً حول وجهها. إذا كنت سأضرب روعات العالم باثنين – الروعات كما أحسّ بها – فسأصل إلى فكرة عن الجنة لا تشبه شيئاً مما رأيته في الرسومات القديمة.

جاك بوتون إذن في الثالثة والأربعين. ليس لديّ فكرة عن الحياة التي عاشها منذ غادر البلدة. لم يكن ثمة أيّ ذكر لزواج أو أطفال أو أيّ نوع من العمل الذي اضطلع به. لطالما شعرت أنه من الأفضل عدم طرح الأسئلة حول ذلك.

كنتُ جالساً هناك أصغي إلى بوتون العجوز وهو يتحدّث بصورة متقطّعة (هو نفسه يستعمل هذا التعبير) عن رحلة قام بها وزوجته ذات مرة إلى مينيابوليس، حين تدخل جاك فجأة وقال «إذن أيها الموقّر أحبّ سماع رأيك في القضاء والقدر».

الآن، قد يكون هذا أقل المواضيع التي أتحمّس للحديث فيها. فقد أمضيت سنوات كثيرة من حياتي وأنا أسمع النقاشات عن هذا المبدأ الايماني، ولم يتقدّم فهم أحد من الناس حوله مقدار ذرّة واحدة. رأيت رجالاً ناضجين، رجالاً يخشون الله، لم يصلوا إلى أيّ نتيجة حول هذا الأمر. أول فكرة خطرت لي هي، بالطبع سيأتي على ذكر القضاء والقدر!

فقلت له «هذا موضوع شائك».

فقال: «دعني أبسّط السؤال، أتظنّ أن بعض الناس محكومون بالجحيم بصورة نهائية لا رجوع عنها؟».

قلت: «حسناً، قد يكون هذا في حقيقة الأمر تبسيط يزيد من الأسئلة بدلاً من تفاديها».

ضحك: «لابدّ من أن الناس يسألونك عن هذا الأمر طوال الوقت».

«هذا صحيح».

«أفترض إذن أن لديك جواباً ما».

«أقول لهم إنَّ هناك خواصّ معينة يعزوها ديننا للرب: كلية القدرة،

كلية العلم، العدالة والرحمة. نحن البشر معرفتنا قليلة جداً بالقوة والمعرفة، ومفهومنا ضيق عن العدالة، وقدرتنا محدودة على الرحمة، بحيث أن أعمال هذه الصفات العظيمة معاً هي لغز لا يمكننا أن نأمل باختراقه.

ضحك: «تقول لمن يسألونك هذه الكلمات بالتحديد».

«أجل أفعل، أقل أو أكثر هذه الكلمات عينها. إنه سؤال دقيق وأنا حذر تجاهه».

هزّ رأسه: «أفهم أنك تعني أنك تؤمن حقاً بالقضاء والقدر».

«لا أحبّ هذه الكلمة. فقد استعملت بطرق فظة».

«أيمكنك اقتراح كلمة أفضل؟».

«»ليس ارتجالاً». شعرت أنه يناكدني، كما ترى.

«أرغب في مساعدتك في هذا أيها الموقّر»، قال ذلك بجدية شديدة بحيث بدأت أحسبه جدياً بالفعل «هذا موضوع بالغ الأهمية، أليس كذلك؟ لسنا نتعامل هنا مع مجرد كلمة، أو تجريد ما».

«أنت محق، هذا صحيح».

«أظنّ أن مفهوم القضاء والقدر لا يعني، بحسب فهمك له، أن شخصاً طيباً سيذهب إلى الجحيم فقط لأنه كان محكوماً بذلك منذ البداية».

قالت غلوري: «عذراً. لقد سمعت هذه الحجة ألف مرة، وأكرهها».

قال بوتون العجوز: «أنا أكره بدوري هذه المحادثة ولم أرها يوماً

تؤدي إلى أيّ نتيجة. ولكنني ما كنت لأسميها حجة يا غلوري».

قالت: «انتظر خمس دقائق». نهضت ودخلت إلى البيت لكن والدتك ظلّت جالسة تصغي.

قال جاك: «أنا الهاوي هنا. أظن أنه لو كان لي تاريخك مع هذا السؤال لسئمت منه أيضاً. حسناً، في الواقع أعتقد أنه لديّ تاريخ معه. كان لديّ سبب لأتساءل كثيراً حوله. أملت أن تهديني قليلاً حول الأمر».

«لا أظنّ أن شخصاً ما يمكنه أن يكون طيباً بأيّ معنى من المعاني ويكون محكوماً بالجحيم. ولا أعتقد أن شخصاً ما خاطئ بأيّ معنى من المعاني محكوم سلفاً بالجحيم. الكتاب المقدّس يقول عكس ذلك بوضوح في الحالين».

«أنا واثق من ذلك. لكن هل هناك أناس يولدون أشراراً بكلّ بساطة، ويعيشون حيوات شريرة، ثم يذهبون إلى الجحيم؟».

«في هذه النقطة الكتاب المقدّس ليس واضحاً».

«ما الذي تقترحه تجربتك الخاصة أيها الموقّر؟».

«بصورة عامة، سلوك شخص ما يأتي منسجماً مع طبيعته. والمقصود بهذا أن سلوكه فحسب هو المنسجم. الانسجام هو ما أقصده بطبيعته».

لاحظت إطناباً في كلامي هنا، دوراناً حول الفكرة. ابتسم.

«إذن لا يسع الناس أن يتغيّروا».

«بلى يسعهم، إذا تدخّل عامل آخر، كالشراب أو نوع آخر من المؤثّرات الشخصية. أي أن سلوكهم يتغيّر. سواء أكان هذا يعني أن

طبيعتهم تتغير أو أن سمة أخرى منها تصبح مرئية، يصعب الحسم فيه».

قال: «بالنسبة إلى رجل دين أنت كثير التحرّز».

هذا أضحك بوتون العجوز الذي قال: «كان يجدر بك رؤيته قبل ثلاثين عاماً».

«لقد رأيته».

قال والده: «حسناً، كان ينبغي أن تمعن النظر».

هزّ جاك كتفيه: «كنت أمعن النظر».

الآن، هذا استفزّني قليلاً. لا أعرف لماذا جاراه بوتون في ذلك. محترز في لعب «الداما»، ربما.

قلت: «أحاول فحسب أن أجد طريقة مفيدة قليلاً لقول إن هناك أموراً لا أفهمها. ولن أبتدع نظرية ما حول لغز وأحوّله إلى حماقة، فقط لأن هذا ما يفعله عادة الناس الذين يتكلّمون حول الأمر».

حانت نظرة من والدتك نحوي، فأدركت أنني لابدّ بدوت مستاء. تسعة أعشار المرات التي يبدأ فيها شخص مغرور ما بطرح الأسئلة اللاهوتية يحاول أن يضعني في موضع خاطئ، وأنا أكبر سناً من أن أرى الدعابة في الأمر أكثر من ذلك. ثم جاءت غلوري إلى الباب وقالت «الخمس دقائق خاصتك لم تنته بعد»، وكأن أحداً بحاجة إلى التأكيد على خيبة مسعاها.

لكنّ والدتك تكلمت، الأمر الذي فاجأنا جميعاً. قالت «ماذا عن الخلاص؟ إذا لم تكن قادراً على التغيّر، فلن يكون ثمة جدوى حقيقية

منه»، وتورّدت وجنتاها «هذا ليس ما عنيته».

قال بوتون: «لقد أوضحت نقطة ممتازة يا عزيزتي، لطالما أقلقني بعض الشيء كيف يمكن أن يتصالح لغز القضاء والقدر مع لغز الخلاص. أتذكّر تفكيري كثيراً في هذه المسألة».

سأله جاك: «دون خلاصات؟».

«لا خلاصات أتذكرها. فالاستخلاص لا يندرج في طبيعة السؤال».

ابتسم جاك لوالدتك وكأنه كان يبحث عن حليف، عن أحد يشاركه إحباطه، لكنها ظلّت جالست بهدوء محدّقة بيديها.

قال: «يجب أن أفكّر أن السؤال الذي طرحته السيدة آيمزهو سؤال تقاربانه بالكثير من الجدية. أعرف أنكما حضرتما لقاءات المخيمات فقط كمراقبين مهتمين، ولكن - أستمحيكما العذر. لا أظن أن أحداً يرغب في مواصلة هذا النقاش. فسأتخلى عنه».

قالت والدتك: «أنا يهمني».

قال بوتون العجوز الذي بدأ يتكدّر بعض الشيء: «آمل أن الكنيسة المشيخية هي كنيسة صالحة كسواها لتعلّم الحقائق المباركة للإيمان، بما في ذلك الخلاص والافتداء أولاً. ويعلم الرب أنني جهدت لكي تكون كذلك».

قال جاك: «عذراً يا أبتاه، سأذهب لأجد غلوري. ستدلني على فعل شيء مفيد. لطالما قلت إن هذه أفضل طريقة للنأي بنفسي عن المتاعب».

قالت والدتك: «لا ابقَ». وفعل.

ساد صمت غير مريح، فقلت له – على سبيل المحادثة لا أكثر – إنه ربما يجد عوناً في كارل بارث.

قال: «أهذا ما تفعله حين تصل روح معذّبة إلى عتبة دارك عند منتصف الليل؟ تنصحها بقراءة كارل بارث؟».

قلت: «هذا يعتمد على الحالة». وهذا صحيح. لقد وجدت أن أعمال بارث مليئة بالراحة، كما أعتقد أنني أخبرتك في مكان ما سابقاً. لكن في الحقيقة لا أتذكر أنني نصحت به أي روح أخرى معذّبة سوى روحي. وهذا ما عنيته بأنني أشعر في أحوال كهذه أنني في المكان الخطأ.

قالت والدتك: «يستطيع الإنسان أن يتغيّر. كلّ شيء يمكن أن يتغيّر». لكن أيضاً من دون أن تنظر إليه.

قال: «شكراً، هذا كلّ ما أردت معرفته».

فكانت تلك نهاية المحادثة. عدنا إلى البيت لتناول العشاء.

تُركت أتساءل إلام كان يشير حين ذكر اجتماعات المخيمات. وفكّرت كثيراً بكلمة «محترز». لطالما كرهت مناقشة المسائل اللاهوتية مع أناس لا يكنّون عاطفة تجاهها. وصحيح أنني ألجأ إلى المراوغة من وقت لآخر. أرى الخطأ في افتراض أن إنساناً ما لا يتكلّم إليك بنية صادقة. فهذا لا ينمّ عن الاحترام، أعرف ذلك، ولا أفعله كثيراً. وليس لديّ الكثير

من المناسبات الداعية لذلك، إذ يبدو أنني عمّدت نصف السكان هنا وعلمتهم كل ما سيعرفونه يوماً عن المسائل اللاهوتية.

لكن يشق عليّ ألا أرى إيماناً صالحاً في جون آيمز بوتون، وهذه معضلة رهيبة. بينما كنا نسير إلى البيت قالت والدتك: «كان يطرح سؤالاً فحسب»، وكان هذا شبه توبيخ من طرفها. ثم بعد أن سرنا مسافة أبعد بقليل، قالت: «ربما بعض الناس لا يشعرون بالراحة كثيراً مع أنفسهم». الآن، هذا كان توبيخاً حقاً. وكانت مصيبة تماماً. ما حاجة جندي طاعن في السن مثلي للدفاع عن نفسه حتى من السخرية، إذا كان هذا ما يحاول القيام به؟ لم تكن مسألة حاجة، بل عادة فحسب.

أعتقد أنني حاولت ألا أقول يوماً شيئاً قد يجده إدوارد ساذجاً أو سطحياً. وقد كان هذا مفيداً لي، برأيي. قد يكون نوعاً من الدفاع عن الذات، لكنني آمل على الأقل أنه كان مفيداً أيضاً. هناك ميل لدى بعض رجال الدين حتى إلى استدعاء الهزء والتسبب لأنفسهم بالازدراء الثقافي الذي يبدو لي في بعض الأحيان مبرّراً. ومع ذلك فإنني أنصحك بعدم اللجوء إلى الدفاع عن النفس في ما خصّ المبادئ. فهذا يحول دون أفضل الاحتمالات وأسوأها. وعلى المستوى الجوهري، يعبّر عن الافتقار إلى الإيمان. كما قلت، أسوأ الاحتمالات يمكن أن يكون لها قيمة عظيمة كتجربة. وغالباً حين نفكّر في حماية أنفسنا، فإننا نكافح ضدّ مخلّصنا. أعلم هذا، ورأيت صحته بأمّ العين، وإن لم أنجح دائماً بالالتزام به، يعلم الربّ ذلك. أشكّ حقاً في أن أتمكن من أن ألتزم به ولو ليوم واحد أو لساعة. وهذا أمر يستحق التفكير.

أظنّ أنه سيريحني أن أخبرك مباشرة ما القضية هنا. أصبح النوم مشكلة كبيرة، فهو مراوغ جداً، وشديد الإنهاك حين يأتي. ولم تكن الصلاة مساوية لتلك الاضطرابات. إذا شعرت أن ما أقوله لك غير صحيح على نحو ما فيجدر بي ألا أخبرك به، يمكنني فحسب أن أمزّق تلك الصفحات. ولن تكوّن بالتأكيد أول صفحات أمزقها. في السابق حين كان لديّ موقد من الحطب كان من المريح فعل ذلك. كان ثمة صوابية في رؤية النيران وهي تشتعل في العبث والإحباط. أفكر أنه يجدر بنا أن نطلب من أحدهم أن يبني لنا شواية لحم حجرية على غرار ما فعل آل مولر.

دعني أقول أولاً إن رحمة الرب ضرورية لأي إثم، وإن إطلاق الأحكام خطأ، وهو أسّ الكثير من الأخطاء والقسوة وأصلهما. أنا أدرك هذه الأمور، كما آمل أنك ستدركها.

دعني أقول أيضاً إنَّ هناك روابط تجبرني على التسامح الخاص والرقة تجاه هذا الشاب جون آيمز بوتون. فهو الابن المحبوب لأقدم وأعز أصدقائي، الذي أعطاه لي، بمعنى ما، لكيّ يعوّضني عن افتقاري للأولاد. وقد عمّدته في كنيسة بوتون. أتذكّر بجلاء تام تلك اللحظة، بوتون والسيدة بوتون وكلّ الصغار هناك عند جرن المعمودية، يترقّبون

لرؤية مفاجأتي السعيدة، التي آمل أنهم رأوها فعلاً، لأن مشاعري في ذلك الوقت كانت أعقد بقليل مما رجوتها أن تكون. إذ لم ينذرني أحد بالأمر مسبقاً.

بما أن الحال كذلك، فإنه لمما يسيء إلى ضميري أن أكون شاهداً ضدّه. بيد أنَّ هناك حس حقيقي جداً في الطريقة التي يُربط الناس بها بتواريخهم، لأسباب إنسانية. أن تقول إن اللص أخ في الإنسانية وإن الربّ يحبه، أمر صحيح. وأن تقول بالتالي إن اللص ليس لصاً، هو خطأ. لا أريد الإيحاء ضمناً أن بوتون الصغير، وعلى حدّ علمي، سرق يوماً شيئاً مهماً بأي معنى تقليدي لكلمة «سرق». هذا فقط لأشرح لماذا أشعر أنني يجب أن أخبرك عن ماضيه، أو القليل الذي أعرفه منه والذي له صلة بالموضوع.

كما أسلفت القول، الظروف الأساسية نفسها شائعة جداً بحيث يمكن عرضها بأقل قدر من الكلمات. منذ نحو عشرين عاماً، بينما كان ما زال بوتون الصغير في الكلية ارتبط بعلاقة بإحدى الشابات، ونتج عن هذه العلاقة طفل. هذا النوع من الأمور يحصل، ويجري حله بطريقة أو بأخرى، كما يمكن أن يخبرك أيّ رجل دين.

لكن في هذه الحادثة بالتحديد، كان هنالك ظروف أشدّ خطورة. فالفتاة كانت يافعة جداً. ومن جهة أخرى كان وضع عائلتها بائساً، بل مزرياً. بكلمات أخرى، وباختصار، لم تتمتّع بالحدّ الأدنى من الحماية التي تحتاج إليها فتاة صغيرة. ولم أعرف يوماً كيف عثر عليها جاك بوتون. كانت وعائلتها تعيش في منزل منعزل تحيطه الكثير من

الكلاب. كان مكاناً حزيناً، وكانت فتاة حزينة. وها هو بجوّه الجامعي وسترته وسيارة «البلايموث» الكشف التي حصل عليها لقاء أغنية، كما قال، حين سئل عنها. (كان لدى بوتون الكثير من الأولاد ليعلّمهم، وكنا عليهم جميعاً العمل، ومن ضمنهم جاك، فكان شراء سيارة غير وارد حتى لبوتون العجوز. وقد منحته رعيته سيارة بويك مستعملة عام 1946، لأنه في ذلك الوقت بات يجد صعوبة في الذهاب راجلاً إلى أيّ مكان).

لم يكن لجاك بوتون أن يورّط نفسه مع تلك الفتاة. ولم يكن بالأمر المشرّف الذي يفعله الرجل. مهما قلّبت الموضوع في رأسي تبقى هذه الحقيقة راسخة. وثمة تحيّز من قبلي تؤكّده سنوات الخبرة والمراقبة. ليس جميع الآثمين يفتقدون إلى الشرف، ولا بأي شكل من الأشكال. لكن أولئك غير الأشراف حقاً لا يتوبون حقاً ولا يصلحون حالهم البتة. الآن، قد أكون مخطئاً هنا. فليس في الكتاب المقدّس تمييز من هذا النوع. والندم والصلاح أمران من أمور الروح التي وحده الرب يمكنه الحكم فيها. لكن، بحسب تجربتي، فإن افتقاد الشرف أمر عنيد، وحين أراه في إنسان ما يغرق قلبي لأنني أرى أنه ليس لديّ ما أساعد به هذا الإنسان. وأعرف أن العيب قد يكون فيّ أيضاً.

في أيّ حال لم يعترف بوتون أبداً بالطفل لكي لا يتحمّل أيّ مسؤولية عنه. لكنه أخبر أباه بشأنه. كأنه يعترف بإثم، كما رأى أبوه الأمر، وإن بدا لي ذلك دناءة صرفة، لأنه عرف أن الحفيد سيثقل على ضمير بوتون العجوز بصورة رهيبة، كما حصل حقاً. حتى أنه أخبر

أباه أين تعيش الفتاة، وأوصلت غلوري العجوز إلى هناك بتلك السيارة الكشف الحمقاء. أمل بوتون بأن يعمّد الطفل - كانت طفلة صغيرة - أو على الأقل أن يرضي نفسه بمعرفة أنها تعمّدت، لكن قابله أهل بيتها بعدوانية، وكأنه هو المخطئ. فترك بهم بعض المال وغادر، شاعراً بالكثير من الإذلال والغمّ. كان بائساً جداً إلى حدٍّ أنْ أجبرت السيدة بوتون غلوري على مصارحتها بما جرى، وشعرت هي الأخرى بحزن شديد حتى إن غلوري ساقت بهما إلى الريف حتى يزورا الفتاة. أرادت السيدة بوتون رؤية الطفلة، وأن تحملها. وعلى الأرجح لم يكن ذلك بالتصرّف الحكيم من قبلها. حسناً، أنا أيضاً حملت الطفلة. ما إذا كان يمكن أن تجد الحكمة حيزاً لها في وضع كذاك الوضع، لا أزعم أنني أعرف. أحضروا الحفاضات والثياب وتركوا المال. واستمرّ هذا طويلاً. بضع سنوات في الواقع. وقد اعتادت غلوري على المجيء إليّ والنحيب حول الأمر، لأن شيئاً لم يتحسّن قط. كانت الطفلة قذرة باستمرار ودائمة الهزال.

أخذتني لكي أرى الوضع بنفسي، وأؤكد لك إنه كان بالغ السوء. يحقّ للناس أن يعيشوا على النحو الذي يناسبهم، لكنّ ذلك البيت لم يكن يليق بطفلة. كانت الباحة مفروشة بالعبوات المعدنية والزجاج المهشّم والفرشات القديمة القذرة، ومن يعرف ما سوى ذلك. كما انتشرت الكلاب في أنحاء المكان. كيف أمكن لبوتون الصغير أن يستغل تلك الفتاة؟ ثم أن يهجرها؟ قالت غلوري إنها حين سألت أخاها ما إذا كان ينوي الزواج منها، أجابها فحسب «لقد رأيتها

بنفسك». وفي الطريق إلى هناك أخبرتني غلوري أنني يجب أن أحاول إقناع العائلة بأن يسمحوا للفتاة وطفلتها بالمجيء والعيش في بلدتنا مع عائلة مسيحية لطيفة. حاولت ذلك، لكن والدها بصق على الأرض وقال «إنها تعيش مع عائلة مسيحية لطيفة».

ثم طوال الطريق إلى هناك شرحت لي غلوري خطة خرجت بها لخطف الطفلة. كانت تعرف بعض القصص عن الأيام الخوالي حين كانوا يهرّبون الفارين من «ميزوري»، وفكرت أن تهريب طفلة صغيرة سيكون أسهل بكثير. وقد ضمّت بيوت كثيرة في البلدة أقبية أو أكواخاً يمكن إخفاء الناس فيها ليوم أو يومين. والكنيسة لديها مخبأ في العلية. يجب أن أتذكّر أن أريك إياها. سنضطر إلى تسلّق سلّم. حسناً، سنرى بهذا الشأن.

قلت لها إنه في تلك الأيام كانت البلدات مثل بلدتنا متواطئة. الكثير من الناس كانوا هناك لكي يناهضوا العبودية بأيّ وسيلة متاحة. أما إقناع أحدهم بأخذ طفلة من أمها، بخطفها، فكان شيئاً بالغ الصعوبة، خصوصاً وأن غلوري لا تملك أيّ دليل على أحقّيتها بالطفل. قالت إنها راسلت مراراً بوتون الشاب طالبة منه الاعتراف بالطفلة كرمى لوالديه. كانت قد غسلت الطفلة وألبستها وأرسلت له صوراً فوتوغرافية جميلة لها وهي تبتسم. وقد صوّرت الطفلة بين ذراعي والده. وأرسل جاك لغلوري بطاقات معايدة في عيد ميلادها وصناديق من الشوكولا ولم يشر البتة إلى الطفلة أو إلى البؤس الذي تسبّب به في منزلهم. كانت تبكي بشدة إلى درجة أنها اضطرت إلى التنحي عن الطريق والتوقّف.

قالت «إنهما حزينان جداً، ويشعران بخزي رهيب» (تمتع بوتون الصغير باللياقة الكافية لكي يترك السيارة ويعود إلى الكلية بالقطار، حتى تستطيع غلوري أن تصحب والديها لرؤية تلك الطفلة الهزيلة البائسة مرة في الأسبوع تقريباً).

حسناً، إليك نهاية هذه القصة. عاشت الصغيرة نحو ثلاث سنوات. كانت تكتسب قوة ونشاطاً وإن ظلّت نحيلة، باتت مصدراً للفخر المتجهم لأمها وعائلتها المسيحية اللطيفة. لكنها جرحت قدمها بطريقة ما وماتت بسبب الالتهاب. المرة الأخيرة التي زاروها فيها رأوا أنها في حال سيئة. فذهبت غلوري وأحضرت طبيباً، لكن عندئذ كان قد فات أوان فعل أي شيء. قال الجد «كان نصيبها شاقاً جداً»، وصفعته غلوري. وقد هدّد برفع دعوى قضائية، لكنني أظنّ أنه لم يبادر إلى ذلك. ترك آل بوتون يدفنون الطفلة في مدفن عائلتهم، بما أنهم وافقوا على دفع النفقات وما يزيد عليها بقليل. إذن، ها هي هناك. الشاهدة تقول طفلة، ثلاث سنوات (لم تستقرّ أمها على اسم لها)، ثم: «ملائكتهم في السماوات كل حين ينظرون وجه أبي الذي في السماوات»[1].

إنها قصة مريرة، وقد تسبّبت لنا جميعاً بالكثير من الأسف. أفترض أنّه كان ينبغي لنا أن نسرقها حقاً. بيد أن الحقيقة أن خطّة غلوري كانت ستنتهي بها وببعضنا في السجن، وستعود الطفلة إلى أمها، في حين يكون بوتون الصغير تحت شجرة في مكان ما، يقرأ هاكسلي أو كارليل[2]،

(1) إنجيل متى، 18: 10.

(2) Aldous Huxley (1894—1963): روائي وقاص وسيناريست إنجليزي، من أعماله «عالم جديد شجاع»، وسيناريو «أليس في بلاد العجئب». أما كارلايل =

وقد استعاد أخيراً سيارته الكشف. لا أعرف الخطأ والصواب في وضع كهذا. أفترض أنه كان يمكننا شراء الطفلة لو أمكننا جمع المال على نحو ما. لكن هذه جريمة أيضاً. وأولئك الناس لديهم ميل إلى الابتزاز، والطفلة أشبه بالرهينة لديهم. ولو لم يعدها الرب إليه، لاستمر الابتزاز عقوداً. قالت غلوري: «فقط لو حصلنا عليها لأسبوع واحد!». ثم ماذا، أتساءل. أعرف بالضبط لماذا تقول هذا، لكنني أتساءل ما الذي يعنيه. لطالما خطرت لي الفكرة نفسها حول طفلتي الأولى.

أصبح هناك اليوم «البنسلين» ولم تعد الأمور كالسابق. في تلك الأيام كان يمكن أن تموت لأي سبب تقريباً، ودون سبب أحياناً. قالت السيدة بوتون: «اشترينا لها حذاء، لماذا كانت حافية القدمين؟». فأجابتها الأم «كنا نوفره». تلك الفتاة المسكينة، أمها. كانت شاحبة متجهمة، وبدا أنها ستموت من فرط الحزن. ما الذي يمكن فعله حيال كل الإحباط والأسف اللذين يتراكمان في الحياة؟ كانت الأم قد تركت دراستها، وكلّ ما عرفناه عنها أنها فرّت إلى شيكاغو.

أحسب أن هذا كلّ ما أحتاج إلى إلى أن أخبرك إياه بشأن جاك بوتون. حين ماتت أمه لم يأت إلى المنزل، كما سبق وقلت. ربما أراد أن يوفّر علينا جميعاً عناء التعامل معه.

أحبوا الطفلة على ذلك النحو لأنهم أحبوا جاك كثيراً. كانت تشبهه

= Thomas Carlyle (1795–1881): فهو باحث ومؤرخ استكتلندي.

تماماً. وها هو الآن في البيت، وغلوري مغتبطة بوجوده وكأن ظلاً لم يسقط قطّ بينهما. لا فكرة لديّ عن سبب عودته إلى البيت. ولا أعرف كيف تصالحوا. لو أن عظتي شوّشت ذلك، فلن أشعر بأنه مساو للأسف الذي كلفني إياه.

عشرون سنة هي زمن طويل. لا أعرف كيف أمضى تلك السنوات، وأظن أنني كنت لأعرف لو حصل أيّ شيء يساهم بأيّ شكل من الأشكال في رفع رصيده. لا يبدو عليه أنه رجل أفاد من نفسه، لو جاز لي أن أحكم عليه.

وجدت اثنين من عظاتي تحت الكتاب المقدّس على المنضدة الليلية، وهو ما اعتبرت أنه يعني أن والدتك تريدني أن أقرأهما. لقد أنزلت عدداً من هذه العظات من العلية، ووضعتها في سلة الغسيل، وهي تقرأها حقاً. وقالت إنني يجب أن أعيد استعمال بعضها، وأن أوفّر على نفسي الجهد الذي يمكنني الاستفادة منه للكتابة لك. وهذه فكرة أكثر إقناعاً بكثير من فكرتها الأولى، أنني ينبغي أن أستعملها لكي أوفّر على نفسي العناء. إذا شعرت أنني غير قادر بالفعل على كتابة عظة فسيكون عليّ اعتزال المنبر. لكن فكرة إمضاء المزيد من الوقت معك أمر مختلف تماماً. تتحدّث إحدى العظتين عن الغفران. وهي تعود إلى يونيو 1947. ولا أذكر المناسبة التي دفعتني إلى كتابتها. لعلّي كنت أفكّر بـ «خطة

مارشال»[1]. لم أجد في العظة الكثير مما أندم عليه. فهي تفسّر «واعفنا مما علينا فقد أعفينا نحن أيضاً من لنا عليه»[2]، على ضوء شريعة موسى حول الأمر. أي الدين الحقيقي وتحرير العبيد كلّ سبع سنوات، ثم عودة الناس الكبرى إلى أرضهم وإلى أنفسهم إذا كانوا في العبودية، كل 15 سنة. وتوضح العظة أنه في الكتاب المقدّس، السبب الجوهري الوحيد للمسامحة على الدين هي ببساطة وجود دين. وتمضي العظة في مقارنة هذا مع الرحمة الإلهية، والابن الضال وعودته إلى مكانه في منزل والده، وإن لم يطلب استعادته كابن ولم يتب عن الأسى الذي تسبّب به لوالده.

أظن أن العظة تنتهي بصورة فعالة. تقول إن المسيح وضع المستمع إليه في موضع الأب، ذاك الذي يسامح. لأننا إذا كنا المديونين (ونحن بالطبع هذا أيضاً) فهذا يعني أنه لا رحمة فينا. والرحمة هبة عظيمة. فأن نسامح هو نصف النعمة فحسب. والنصف الآخر هو ان نسامح بدورنا، وأن نستعيد ونحرر وبالتالي نشعر بإرادة الرب من خلال أنفسنا، وهي أعظم عودة لذواتنا إلى ذواتنا.

ما زال هذا يبدو صحيحاً لي. أظن أنها قراءة صائبة للنص. حسناً، في العام 1947 كنت في السبعين تقريباً، وبالتالي كان تفكيري ناضجاً

---

(1) Marshall Plan: الخطة الاقتصادية التي وضعها الجنرال الأمريكي جورج مارشال، رئيس هيئة أركان الجيس الأمريكي أثناء الحرب العالمية الثانية، لإعادة إعمار أوروبا بعد الحرب، وقد أعلن عنها بنفسه في الخامس من يونيو 1947في خطاب ألقاه في جامعة هارفارد. ومن الجلي هنا أن المقصود التزامن بين تاريخي العظة والإعلان عن الخطة.

(2) الصلاة الربيّة، إنجيل متى، 6: 12.

كفاية حول هذا الأمر. ولابدّ من أن والدتك سمعتني أعظ هذه العظة. جاءت أولاً إلى الكنيسة في عيد العنصرة ذلك العام، وأظنّ أن ذلك كان في مايو، ولم تفوّت يوم أحد بعدئذ إلا يوماً واحداً.

أمطرت، كما قلت، لكن كان لدينا الكثير من الشموع، وتلك كانت عادتنا دائماً خلال القدّاس، حين يمكننا شراء الشموع. وحين رأيت أن ثمة غريبة في الحجرة، أذكر أنني شعرت بالرضى لأن صحن الكنيسة بدا مكاناً مبهجاً، وأنه لا بدّ من أن يكون مكاناً ساراً بحيث يلجأ إليه أحدهم في هذا الطقس. أظن أن عظتي في ذلك اليوم كانت عن الضوء أو النور (الربّاني). أظن أنها لم تجد هذه العظة أو لم تتذكّرها، أو لا تحسبها جيدة بصورة خاصة. ومع ذلك أرغب في قراءتها ثانية.

أستمتع حقاً بتذكّر ذلك الصباح. كنت في السابعة والستين، لكي أكون دقيقاً، وهو ما لم يبد سناً عجوزاً بالنسبة إليّ. أتمنى لو أنني أستطيع منحك الذكرى التي لديّ عن والدتك في ذلك اليوم. أتمنى لو يمكنني أن أتركك متيقناً من الصور التي في عقلي، لأنها رائعة إلى حدّ أنني أكره أنها ستزول بزوالي. حسناً، ولكن مجدداً، هذه الحياة فيها روعتها الفانية الخاصة. والذاكرة ليست بفانية بطبيعتها أيضاً. وهو أمر غريب في نهاية المطاف، أن تكون قادراً على العودة إلى لحظة ما، في حين لا يمكن القول إنها تتمتّع بأي واقعية على الإطلاق، حتى في زوالها. اللحظة شيء صغير جداً، أعني، أن ثباتها هو أكثر الأمور المؤجّلة إجلالاً.

ذات مرة رافقت غلوري لنأخذ بعض الأشياء للطفلة. كانت العائلة تعيش عند الطرف المقابل تماماً من «غربي نيشنابوتنا»[1]، وحين وصلنا إلى الجسر رأينا الطفلتين، الأم وابنتها، تلعبان هناك في النهر. اتجهنا إلى المنزل وجهزنا الطعام الذي جئنا به عند السياج. لم نقترب من البيت لأن ذينك الكلبين صدّانا بنباحهما وهجومهما ولم يوقفهما أحد من أهل البيت - كنا دائماً نجلب معلبات اللحمة والحليب وما إلى ذلك، أي أشياء لا تستطيع الكلاب الوصول إليها. لابدّ من أن الصغيرة سمعت السيارة تمر والكلاب تنبح وعلمت بمجيئنا، بما أنه كان يوم اثنين. وكانت لتتجاهلنا لو أرادت. فقد كانت تعكس بولاء رأي والدها بنا. وكانت تشعر بالإهانة جراء اهتمامنا ومساعدتنا وكانت تعلمنا بهذا من خلال تجاهلنا كلما وفرنا لها الفرصة لذلك. ويجب أن أقول إنني لا أجد فهم هذا صعباً. فمن الواضح أن والدها قد افترض أننا نتكبّد كل المتاعب والنفقات لكي نبعد جاك الصغير عن المتاعب. وفي حين لم يقل أحد مثل هذا الأمر أو حتى يلمح إليه، فلا أظن أنه كان مخطئاً كلياً. ولا يمكنني الجزم إنه لم يكن جزءاً من دافع جاك للاعتراف لوالده، فهو كان يعلم أن بوتون العجوز المسكين سيتجاوب مع الوضع على نحو ما فعل. وهذا يفسّر سبب تركه السيارة.

في أيّ حال، ركنا السيارة على الطريق على بعد مئات الياردات بعد الجسر ورحنا نراقب الطفلتين. الطفلة التي بدأت تحبو عارية تماماً، وأمها

---

(1) West Nishnabotna: هذا النهر هو رافد من نهر ميزوري، وينقسم بدوره إلى رافد شرقي وآخر غربي إضافة إلى «أسفل النهر» حيث يلتقي الرافدان.

التي كان فستانها مبلولاً حتى الخاصرة. كانت نهاية الصيف. وكان النهر ضحلاً في ذلك الوقت من السنة، وعمقه نصف مكشوف. كان هنالك جروف رملية في الطرف المقابل تماماً، والكبيرة منها تشكّل أدغالاً صغيرة من العشب البري، مع فراشات ويعاسيب تطير حولها كالأرواح. كانت الأم تمارس نوعاً من الاهتمام الأمومي من وقت لآخر، مثلما يفعل الأطفال عادة مع بعضهم في أثناء اللعب. ربما كانت تعرف أننا نسمعها. كانت تحاول أن تملأ حفرة بالطين والعصي، والطفلة تحاول فهم المشروع فهم المشروع فهماً كافياً يجعلها تمدّ يد المساعدة. فتأتي لأمها بحفنة من الطين ثم حفنة من الماء، فتقول لها أمها «والآن لا تدوسي عليها. فأنت تخرّبين عملي كله!».

بعد فترة ضمّت الطفلة يديها وسكبت الماء على ذراع أمها وضحكت، فضمّت الأم يديها وسكبت الماء على بطن الطفلة، وضحكت الطفلة ورشقت أمها بالماء، فردت الأخيرة برشق الماء، إلى درجة أن الصغيرة بدأت تتشكى «والآن إياك أن تبكي! ما الذي تتوقعينه عندما تتصرّفين هكذا». وأحاطتها بذراعيها وأجلستها في حضنها، هناك في الماء، وراحت تحاول إصلاح السدّ بيدها الأخرى. ونمّ عن الطفلة صوت استفساري فقالت أمها «هذه وريقة، وريقة شجر. وريقة» ووضعتها في يد الطفلة. وكانت الشمس تشع على النهر وعلى الأشجار. وكانت حشرات زيز الحصاد تغني، وأشجار الصفصاف تغمس جدائلها بالماء، والدلب والدردار تصدر وشوشتها الصيفية تلك.

بعد فترة عدنا إلى السيارة وجئنا إلى البيت. قالت غلوري «لا أفهم

شيئاً واحداً في هذا العالم. ولا شيء».

تذكرت هذا لأن التذكر والغفران يمكن أن يكونا متناقضين. ولا ريب في أنهما كذلك عادة. وليس لي أن أغفر لجاك بوتون. أيّ أذية ألحقها شخصياً بي كانت غير مباشرة، وفعلياً صغيرة جداً. أو قل على الأقل أن تلك الأذية لم تكن بالأمر الأساسي في أيّ شيء فعله. أن يفقد رجل طفله في حين يبدد الآخر أبوته وكأنها لا شيء – حسناً، هذا لا يعني أن الثاني قد أخطأ بحق الأول.

لا أسامحه. لا أعرف من أين أبدأ بذلك.

أنت وطوبياس في الباحة الخارجية. وقد علقتَ قبعتك الـ«دودجرز»[1]، على عامود السياج، ورحتما ترشقانها بالحصى. الدقة ستأتي على الأرجح. «آه يا رجل»، يقول طوبياس ، ويلوي وجهه ويرقص رقصة إحباط صغيرة، وكأنه كاد يحقق الإصابة. والآن تذهبان لجمع المزيد من الحصى، و«سوبي» تتبعكما عن مسافة معقولة، وكأنها تقوم بأمر يخصها صودف أنه في نفس اتجاهكما.

كنت أحاول أن أتذكّر أين كانت تحطُّ العصافير قبل أن يكون هنالك خطوط هاتف. لابدّ من أنه كان أصعب عليها أن تجثم في الشمس دون

(1) فريق الدوجرز التابع إلى مدينة لوس أنجليس في كاليفورنيا.

تلك الخطوط، وهو أمر من الواضح أنها تستمتع بفعله.

وها هو جاك بوتون يأتي حاملاً مضربه وقفازه، وتركض أنت وطوبياس لملاقاته في الشارع. وضع قفازه على رأسك ووجدت ذلك رائعاً، فحملته بكلتا يديك ومشيت معتداً بنفسك بجانبه، حافي القدمين والمعدة مثل أمير بدائي. لا أرى خطوط الآيس كريم على معدتك لكنني أعرف أنها موجودة. طوبياس يحمل المضرب. بما أن جاك لا يبدو يوماً مرتاحاً تماماً، لا ينبغي أن يفاجئني أنه يبدو متوتراً بعض الشيء. لكن ها هو يعبر البوّابة. أستطيع سماعه يتكلم مع والدتك على الشرفة. يبدو حديثاً ساراً. أظن أن قلبي يفضّل أن أبقى هنا على هذا الكرسيّ، أقله في الوقت الحالي.
أنتما الثلاثة خرجتم إلى الباحة الجانبية. وهو يسدّد كرات عالية تطاردانها محاولين الإمساك بها. حين تقترب من الكرة ترفع قفازك لكي تحمي نفسك منها، فتقع على الأرض قريباً منك. لكنك تفهم فكرة قذف الكرات بيد مرفوعة. من الجميل مشاهدتكم، أنتم الثلاثة. أظن أنني سأخرج لأرى ماذا يجول بباله. أعرف أن ثمة شيئاً ما.

أراد أن يعرف إذا كنت سأكون في مكتبي في الكنيسة يوم غد. قلت في الصباح، أجل. وقال إنه سيأتي لكي يتكلم إلي.

أتمنى لو أن لديّ المزيد من صوري في شبابي، أظن لأنني أعتقد أنك بينما تقرأ هذه الرسالة لن أبدو عجوزاً، وحين أراك، في نهاية عمرك المديد، فلن يكون أياً منا عجوزاً. سنبدو كالأخوين. هكذا أتخيل الأمر. أحياناً حين تصعد إلى ركبتي وتجلس في حضني وأشعر بقوة جسدك الرشيق الخفيف وثقل رأسك، حين تكون بارداً من اللعب برشاشة المياه أو حاراً بعد حمامك الليلي، وتتمدّد بين ذراعي وتعبث بلحيتي وتخبرني بمَ كنتَ تفكّر، هذا رائع تماماً، وأتخيل ذاتك الطفولية تجدني في السماء وتقفز إلى ذراعيّ، وتشعرني الفكرة بغبطة عظيمة. ومع ذلك فالصورة الأخرى أجمل، وقد تكون أقرب من حقيقة الوضع على ما أظن. لا نعرف شيئاً عن السماء[1]، أو نعرف القليل جداً، وأظنّ أن «كالفن» محق في عدم التشجيع على التوقعات الفضولية حول أمور لم ير الربّ من المناسب كشفها لنا.

الشباب شيء رائع، ووجيز. يجب أن تحرص على الاستمتاع به طالما هو موجود.

أظن أن الروح في السماء تستمتع بشيء أقرب إلى الشباب الدائم من أي حالة أخرى نعرفها. هذا أملي على الأقل. ليس أن السماء يمكن أن تكون مخيّبة للآمال، لكنني أظن أن بوتون محقّ بالاستمتاع بمخيلته عن السماء بوصفها أجمل مسرّات العالم. لا أرى كيف يمكن أن يكون مخطئاً كلياً في مقاربته هذه. وبالتأكيد لا أمانع فكرة أن تجدني

(1) السماء أو السماوات Heaven ، مقابل الجحيم Hell، هي دائماً بمعنى الجنة وإن ارتأيت ترجمتها في موضع سابق بـ «الحياة الأخرى» أو الآخرة، بحسب السياق السردي.

والدتك شاباً قوياً. ليس في السماء من ذكر ولا أنثى، ليسا متزوجين ولا يسلمان بالزواج، ولكن mutatis mutandis[1]، وهذا سيكون رائعاً. كلمة «موتانديس» تلك. أيّ ثقل في كلمة واحدة!

هبني على الأرض ما يبدو الأفضل
حتى يكشف لي الموت والسماء ما قد تبقى
إسحق واتس

وجون آيمز يضيف آمين.

صحوت باكراً صبيحة اليوم، وهي طريقة للقول إنني بالكاد نمت ليلة البارحة. صممت على أن أرتدي ملابسي بعناية أكبر مما اعتدت عليه أخيراً. شعري كثّ وهو غير موزّع بالتساوي، لكنه حيث ينمو كثيف وشديد البياض. حاجباي أبيضان وكثان أيضاً. أعني أن الشعر ينمو طويلاً ويتوزّع في شتى الاتجاهات. حدقتا عيني بدأتا بالذوبان عند الحواف قليلاً. لم يكن لهما يوماً أي لون محدّد، وباتا الآن أفتح بكثير. أنفي وأذناي أكبر بالتأكيد مما كانا عليه في شبابي. أعرف أنني في ما يخص مظهري هرم مقبول. لكنّ التقدّم في السن أمر غريب. أمس

(1) تعبير لاتيني، يعني حرفياً «مع ما يلزم من تبديل».

وقفت قرب مقعدي ولعبتَ بحاجبي، شاداً الشعرات حتى تراها بطولها الكامل ثم تراها وهي تتكوّر ثانية. وجدتَ هذا مسلياً، وهو كذلك.

حسناً، لكنني حلقت بعناية وارتديت قميصاً أبيض ولمعت حذائي قليلاً، وما إلى ذلك. أظن أن استعدادات كهذه تستطيع أن تشكّل الفرق بين رجل مسن محترم وشخص غريب الأطوار. أعرف أن الأول مفضّل عند والدتك الرائعة، لكنني أحياناً أنسى الخوض في المشقة الضرورية للظهور بمظهر حسن، وهذا خطأ أنوي تصحيحه.

ذهبت بعدئذ إلى الكنيسة وانتظرت في صحنها هبوط الضوء وغفوت جالساً على المقعد، وهو أمر جيد لأن بوتون الصغير دخل يبحث عني حين لم يجدني في حجرة مكتبي. شعرت تماماً كما أتخيل ظلّ الهرم صموئيل حين جرته الساحرة من عالم الموتى «لماذا أقلقتني بإصعادك إياي؟». في الحقيقة أمضيت عتمة الصباح مصلياً بأن يكون جون آيمز بوتون حيكماً كفاية، وحين أيقظني، أدركت أن ذاتي الهرمة المتعبة كانت لتسلمه إلى الفلسطينيين[1] من أجل بضع دقائق إضافية من النوم. أكره فعلاً أن يجدني أحدهم نائماً في أوقات غريبة وفي أمكنة غريبة. دائماً تخبر والدتك الناس أنني أصحو طوال الليل قارئاً وكاتباً، وأحياناً يكون هذا صحيحاً. وأحياناً أكون صاحياً فحسب طوال الليل،

(1) هذه والاقتباس السابق من سفر صموئيل الأول، الإصحاح 28، إذ يموت صموئيل ويستدعي شاول امرأة جان لكي تستحضر له صموئيل لكي يسأله النصح حيال هجوم الفلسطينيين على شعب إسرائيل، وبالطبع يجب التنبه هنا إلى عدم الخلط بين فلسطينيي الكتاب المقدّس وفلسطينيي اليوم.

متمنياً أنني لست كذلك.

(أوصي فعلاً بالصلاة في أوقات كهذه التي غالباً ما يعني الأرق فيها أن ثمة ما يحتاج إلى حلّ. بلغت قدراً معقولاً من الاتزان، هناك في العتمة، وأعتقد أن هذا ما سمح لي بالنوم. المشكلة أنني نمت بعمق أكثر من اللازم. الجسد الفيزيائي يمكنه أن يلتمس النوم بجشع حيواني، كما يعرف الجميع. ثم يكون الأمر مزعجاً حين يتمّ إقلاق هذا النوم، كما كان يمكن أن يكون حالي لو لم أتذكر أنني صليت من أجل الدعة. في تلك اللحظة لا يمكنني الزعم أنني حصلت على الدعة نفسها).

فكانت كلمات بوتون الأولى «آسف جداً». جلس على المقعد الخشبي، مفسحاً لي في الوقت لكي أستجمع ذاتي، وهذا كان طيباً منه. ولاحظت أنه أيضاً ارتدى ثيابه بعناية خاصة، وأنه يرتدي سترة وربطة عنق وأن حذاءه لَمّع جيداً. جال بناظريه في الحجرة، متأملاً بساطتها، والتي أعرف أنها بساطة جرداء، لا النوع الفاخر التزييني الذي تراه في بعض الكنائس القديمة، إذ لطالما كان الغرض من هذه الكنيسة مؤقتاً.

قال: «والدك وعظ هنا».

«ولسنوات طويلة، لم تتغير الكنيسة منذ ذلك الوقت».

«إنها مثل الكنيسة التي نشأت فيها».

كان لدى المشيخيون كنيسة تشبه بالفعل هذه الكنيسة، لكنهم استبدلوها قبل بضع سنوات بمبنى حسن البناء من الحجر والقرميد يعرش اللبلاب على جدرانها. وقال بوتون إنه لو يستطيع جعلهم فقط يعتّقون برج الجرس قليلاً لبدت قديمة بالفعل. واقترح عليّ أن نظهر قدم كنيستنا

من خلال بنائها على نموذج سراديب الموتى. أظن أنني سأقترح ذلك.

قال جاك «إنه أمر يدعو للحسد، أن ترث هويتك عن والدك».

لديّ عادة رهيبة بقياس المحادثة باكراً لجهة المتعة أو الفائدة المرتجاة منها، وعند هذا الحدّ لم تكن توقعاتي عالية. قلت:»مجالي هو مجال والدي. وأظن أنه لو كان لي والد آخر يعمل في مجال مختلف كلياً لكنت تلقيت كذلك نداء الرب». أعترف أنني حسّاس بعض الشيء في ما يخصّ هذه النقطة.

صمت جاك قليلاً، ثم قال «يبدو أنني دائماً عدواني، لكنني لا أقصد ذلك دائماً، أرجو أن تفهم أنني لا أرغب في الإساءة إليك أيها الموقّر».

قلت: «سأتذكّر هذا».

قال: «شكراً لك». ثم صمت قليلاً وقال: «أتمنى لو كنتُ مثل والدي»، ونظر إليّ بترقّب وكأنه يتوقّع مني أن أضحك.

قلت: «إن والدك مثال يحتذى بالنسبة لنا جميعاً».

نظر إلي ثم غطّى عينيه بيديه، وقد نمّت هذه الحركة عن الحزن والإحباط، كما عن السأم. وعرفت ما الذي تعنيه. قلت: «أخشى أن أكون قد أسأت إليك».

قال: «لا، لا، لكنني أتمنى فعلاً لو أمكننا التحدّث بصورة مباشرة أكثر».

ساد صمت. ثم قال: «لكنني أشكرك على وقتك»، ثم نهض وهم بالمغادرة.

قلت: «اجلس يا بني. اجلس. لنحاول ثانية».

فجلسنا صامتين لبعض الوقت. خلع ربطة العنق ولفها على يده وأراها لي كأنما فيها شيء مسلّ ثم دسّها في جيبه. أخيراً قال: «حين كنت صغيراً كنت أظن أن الرب شخص يعيش في العلية ويدفع ثمن البقالة. هذا أقصى ما توصلت إليه من الإيمان». ثم أضاف: «لا أقصد أن أكون فظاً».

«أفهم».

«لماذا برأيك حصل ذلك؟ أعني لماذا لم أستطع تصديق كلمة مما قاله والدي الهرم المسكين. حتى في طفولتي. عندما فَكَّر جميع من أعرفهم أن الأمر كله، حسناً، الجميع فكّر أن الأمر كله إنجيلي».

«أتؤمن به الآن؟».

هزّ رأسه: «لا يمكنني قول ذلك». نظر إليّ وأضاف: «أحاول أن أكون صريحاً».

«أفهم ذلك».

قال: «سأخبرك شيئاً آخر غريباً. أكذب كثيراً، لأنني حين أفعل ذلك يصدّقني الناس. عندما أحاول أن أقول لهم الحقيقة تسوء الأشياء بالنسبة إلي». ضحك وهزّ كتفيه. «فأعرف المجازفة التي أخوضها هنا». ثم قال: «وفي الحقيقة الأمور دائماً تسوء عندما أكذب».

سألته ماذا يريد أن يقول لي بالضبط.

«حسناً، أظن أنني أنا طرحت عليك سؤالاً».

كان له الحق بتذكيري بهذا. فقد طرح سؤالاً، وتجنّبت الإجابة عنه.

هذا صحيح. لم أستطع منع نفسي من ملاحظة بعض التوتّر في صوته، قياساً بصدقه الواضح في جعل الحوار حضارياً.

قلت: «لا أعرف فحسب كيف أجيب عن هذا السؤل. أتمنى فعلاً لو أنني أعرف».

طوى ذراعيه ومال إلى الخلف وهزّ رجله لدقيقة. «ثم قال «أيبدو صحيحاً لك، ألا يكون ثمة لغة مشتركة بيننا؟ وألا يكون ثمة وسيلة لأن تنزل قطرة ماء علينا نحن الذين يتعذبون في النيران، أو ستتعذّب فيها؟ وفقاً لشروطك أنت؟ أنه بيننا وبينكم هوة عظيمة؟ كيف يمكن أن تكون الحقيقة غير قابلة للتواصل؟ هذا لا معنى له بالنسبة إليّ».

«لست متاكّداً من أن هذه شروطي. وأتكلم عن الرحمة في هذا السياق».

«وليس في غياب الرحمة أبداً، الذي يبدو أنه القضية هنا. إذا كانت شروطكم مضمونة. ولا أقصد ذلك بقلّة احترام».

«أفهم ذلك».

صمت قليلاً ثم قال: «إذن، ليس لديك حكمة تشاركني بها بهذا الخصوص».

«قلت: «حسناً، لا أعرف كيف أقارب هذه الحالة. أتريد أن تقتنع بحقيقة الدين المسيحي؟»».

ضحك: «أنا واثق من أنّه إنْ حدث ذلك فسأكون شاكراً. الناس كذلك عموماً كما أفهم».

قلت: «حسناً، هذا لا يمنحني أي مساعدة كبيرة، أليس كذلك؟»».

جلس هناك لفترة، ثم قال: «لي صديق، لا، ليس صديقاً، بل هو رجل التقيته في تنيسي – سمع عن هذه البلدة، وسمع أيضاً عن جدّك. وأخبرني عن الأيام القديمة في كنساس التي أخبره بها والده. قال إنه خلال الحرب الأهلية كان ثمة في آيوا كتيبة من «الملونين»[1].

«أجل، هذا صحيح. وكتيبة من كبار السن أيضاً، وكتيبة للميثوديين، كما يسمونها. كانوا ممتنعين عن المسكرات».

«من المثير للاهتمام أنه كان هناك كتيبة للملونين، لم أحسب أبداً أنه هنالك الكثير من الملونين في هذه الولاية».

«أجل، بلى. بعض الملونين جاءوا إلى هنا من «ميزوري» في الأيام التي سبقت الحرب. وأظن أن بعضهم جاء من وداي مسيسيبي أيضاً».

قال: «في نشأتي كان هناك بعض العائلات الزنجية في البلدة».

قلت: «هذا صحيح، لكنهم رحلوا قبل سنوات».

«أتذكر سماع قصة ما عن حريق في كنيستهم».

«آه، أجل، لكن هذا كان قبل سنوات كثيرة، حين كنت صغيراً. وكان حريقاً صغيراً فحسب. لم يتسبب سوى بالقليل من الضرر».

«إذن رحلوا جميعاً الآن».

أجل، لقد رحلوا. وهذا أمر محزن. لدينا العديد من العائلات الليتوانية الجديدة. وبالطبع هم لوثريون».

ضحك. ثم قال: «من المحزن أنهم رحلوا». وبدا أنه يتأمل هذه العبارة قليلاً.

(1) كلمة قديمة كانت تستعمل للدلالة على السود، تعدّ اليوم تحقيرية.

ثم قال «أنت معجب بكارل بارث». وأظن أنه هنا بدأ يتكلم انطلاقاً من غضبه، ذلك الغضب الكيدي المرهق الذي لم أستطع يوماً التعامل معه. كان دائماً ذكياً كالشيطان أيضاً. كان يجب أن أعرف أنه قرأ كارل بارث».

قلت: «أجل يعجبني فعلاً. كثيراً».

«لكنه يبدو أنّه لا يكنّ الكثير من الاحترام للتديّن الأمريكي. ألا توافقني الرأي؟ إنه صريح في هذا الأمر».

قلت: «لقد كان شديد النقد تجاه التديّن الأوروبي أيضاً»، وهو صحيح. ومع ذلك لحظة قلته أدركت أنه جواب تملّصي إلى حدّ ما. وكذلك بوتون الصغير، كما بدا واضحاً من وجهه، الذي ارتسم عليه تعبير لم يكن بالضبط ابتسامة.

قال: «لكنه يأخذ التدين الأوروبي على محمل الجدّ. يعتقد أنه يستحق الجدال معه».

«هذا أكيد». وكان هذا صحيحاً أيضاً.

ثم سألني: «ألا تتساءل أبداً لماذا المسيحية الأمريكية تبدو بانتظار أن يجري التفكير الحقيقي في مكان آخر؟».

قلت: «ليس حقاً». وفاجأني سؤاله، لأنني لطالما تساءلت حول الأمر نفسه.

الآن، عند هذه النقطة شعرت أن جاك بوتون يربح النقاش إذا جاز القول، وأكثر من ذلك أنه لم يكن سعيداً بالأمر، وربما كان ممتعضاً بعض الشيء. بالتأكيد وجدت نفسي في وضع خاطئ ثانية. شعرت أنني

راغب في التحجج بشيخوختي. لكنني كنت جالساً هناك في كنيستي، ونور النهار العذب يتدفق عبر النوافذ. وشعرت، كما أشعر غالباً، أن خذلاني للحقيقة لا يثقل كاهل الحقيقة نفسها البتة، التي لا تعتمد عليّ أو على أيّ كان. ونهض قلبي في داخلي – هكذا بالضبط شعرت به، وقلت «لقد سمعت عدداً كبيراً من العظات الجيدة خلال حياتي، وقد عرفت الكثير من الأرواح العميقة. وأدرك أن الناس يجدون النقائص في الآخرين، لكن يبدو لي من الوقاحة الحكم على صدق إيمان أحدهم، ما عدا إيمانه هو. وحتى هذا وقاحة».

وقلت: «حين يمتلئ صحن الكنيسة القديم هذا بالصمت والصلاة، فلن يكون كل كتاب سيكتبه كارل بارث يساوي ريشة ضده في ميزان العمق، وما كنت لأؤمن بأصالة بارث نفسه لو لم أؤمن أيضاً أنه يعرف ويعترف بحقيقة ذلك ويبجّله أيضاً».

شعرت بالتعب وبضيق يتجاوز ما يجدر برجل في سني أن يشعر به، وهذا هو تفسيري الوحيد لانهمار دموعي، التي فوجئت بها بقدر ما فوجئ بوتون الصغير نفسه.

قال: «لا أستطيع أن أعبّر لك عن مدى آسفي»، وكان صادقاً أيضاً.

ها أنا هناك، أمسح الدموع بكمّي، تماماً مثلما تفعل أنت. وكم شعرت بالإحراج. قال شيئاً من قبيل «سامحني» ومضى.

والآن ماذا؟ أفكّر في أن أكتب له رسالة. ليس لديّ فكرة الآن عما سأقوله فيها.

كان ثمة هنا أبطال وقدّيسون وشهداء، وأريدك أن تعرف ذلك. لأن هذه هي الحقيقة ولو لم يعد يتذكّرها أحد. إذا نظرنا إلى البلدة فليس هناك أكثر من حفنة من البيوت المتناثرة بين بضع طرقات، وصف من المباني الحجرية التي تضمّ متاجر، وناقلة حبوب وبرج مائي كتبت على جانبه كلمة «جلعاد»، ومكتب بريد ومدارس وملاعب ومحطة القطارات القديمة أصبحت الآن أشبه بالدغل. لكن كيف كانت تبدو الجليل؟ لا يمكنك أن تعرف الكثير عن مكان ما من مظهره.

شاخ أولئك القديسون وتغيّرت الأزمنة وصاروا يبدون غريبي الأطوار ومصدرَ إزعاج ولم يعد أحد يريد الإصغاء إلى عظاتهم الترهيبية القديمة أو سماع حكاياتهم القديمة الجامحة. أقول هذا بكلّ خجل - لكن حدث أنني لم أعد راغباً في التواجد مع جدّي، وهذه هي الحقيقة. لم تكن مجرد رثاثته، ولا أنه كلما اختفى غرض مفيد اتضح أن المالك في بيتنا. لكن عينه تلك بدت لي مليئة بالترقّب وخيبة الأمل، كلاهما معاً، وبدأت أخشى اللحظات التي تصبّ فيها تلك العين نظراتها عليّ. كان المتقدمون في السّن يسمون أولئك الذين أخفقوا في الوقوف إلى جانب القضية الكبرى «وجوه العجين»[1]، وهي عبارة تنطوي على الكثير من

(1) Doughfaces: يعرف قاموس وبستر للعام 1847 حالة الشخص الذي يوصف بهذه الصفة بأنه «الشخص الذي يقبل بأن يقوده شخص منه»، وفي سياق الحرب الأهلية الأمريكية أطلقت هذه الصفة على أهل الشمال ممن تحالفوا مع أهل الجنوب المطالبين بالاحتفاظ بقوة العبودية لديهم، وناهضوا إلغاءها. وبالتالي فالشخص الذي يضع قناعاً من العجين هو الشخص لين العريكة المنصاع والفاسد، ضمن هذا السياق.

الاحتقار. كانوا قساة في أحكامهم، وكانت لديهم أسبابهم على ما أظن.

أتذكر على وجه الخصوص ذات مرة حين طُلب من جدي أن يقول كلمة في احتفالات الرابع من يوليو[1]. أتذكّر هذا لأنه تسبّب لنا جميعاً بالقلق، ثم بإحراج كاف يبرّر جزءاً من مخاوفنا. كانت الفكرة أنه بما أنه نوعاً ما مؤسّس البلدة بالمعنى العام للكلمة وكان محارباً، فمن المناسب دعوته إلى منصة الخطابة في ذلك اليوم. كان العمدة في ذلك الوقت يعيش في جلعاد منذ عشرين عاماً فقط، وكان سويدياً ولوثرياً فربما لم يسمع بقصص الأيام الخوالي، كما أن جدي اعتاد أن يسرق من عائلته فحسب، إلا في ما ندر، وكانت الاستثناءات محضورة في رعيتنا ونادراً جداً ما طاولت رعايا الكنيستين المشيخية والميثودية، وكلهم كانوا حريصين على الإبقاء على الموضوع سراً بدافع من الاحترام لسنه ولحسن نواياه. اعتادت والدتي أن تقول إنك تستطيع أن تعرف أن بيتاً ما يسكنه إنسان بروتستانتي من القفل الموضوع على باب سقيفة الحطب فيه، وكان ثمة صحة في ذلك. على أي حال، لم تكن لدى العمدة فكرة عن درجة غرابة أطوار الهرم حين أرسل الدعوة له.

التمعت عينا جدي منذ لحظة تلقيه الدعوة. وقد حاول والداي إنجاح الأمر على النحو الأفضل. ففتشت والدتي البيت عن بزته العسكرية، لكن بالطبع لم يبق منها شيء ما عدا القبعة، التي أظنّ أنها صمدت لأنها كانت دونما جدوى. وكانت والدتي تقول «الأظافر والغضاريف

(1) عيد الاستقلال الأمريكي، 4 يوليو 1776، المعروف بهذا الاسم.

والأنوف»، قاصدة أن هذا كلّ ما يبقى من أيّ شيء يقع تحت يديه. عثرت والدتي على القبعة في إحدى الخزائن وبذلت جهدها لكي تهندمها قليلاً. لكنّ الهرم قال: «إنني أعظ»، وأعاد القبعة إلى الخزانة. ما زالت لديّ العظة المعنونة باللاتينية ipissima verba[1] لأنها كانت بين الأشياء التي دفنها والدي ولم يدفنها ذلك اليوم في الحديقة. وهي وجيزة جداً فسأقوم بنسخها هنا كما كتبها. وقد شجعه والدي على كتابتها على الأرجح تفادياً لتشتت جدي في أثناء قولها، وربما أملاً بأنه قد يلقي هو أو والدتي نظرة عليها ويناقشها قليلاً مع جدي إذا ما تطلّب الأمر ذلك. لكن جدي أبقى الكلمة سراً لنفسه، وأحرق المسودة في الموقد، محتفظاً بالنص في شخصه الناصري الذي لا يمسّ.

هذا ما كتبه وقاله:

يا أبنائي،

حين كنت شاباً جاءني الرب ووضع يده هنا على كتفي الأيمن. ما زلت أشعر بيده هناك. وكلمني بوضوح تام وقد اخترقتني كلماته اختراقاً. قال، حرّروا العبيد. بشروا المساكين. انشروا الحرية في الأرض[2]. هذا كله من الكتاب المقدّس بالطبع، وبدت الكلمات شديدة الألفة لي في حينه. لكنه من الواضح بما فيه لكفاية لماذا شعر بضرورة التشديد على

(1) باللاتينية، أي الكلمات بحرفيتها.

(2) إنجيل لوقا، 4: 18، «روح الرب عليّ لأنه مسحني لأبشر المساكين، أرسلني لأشفي المنكسري القلوب، لأنادي للمأسورين بالإطلاق، وللعمي بالبصر، وأرسل المنسحقين في الحرية».

هذه المعاني. لأن أحداً لا يعمل بها، ما لم يأخذ الرب بيده. وأنا لم أعمل بها طبعاً حتى وقف الربّ بجانبي وكلمني بهذه الكلمات.

أسمّي تلك التجربة رؤيا. كانت لدينا رؤى في تلك الأيام، وقد رآها عدد منا. ويرى شبانكم رؤى ويحلم شيوخكم أحلاماً[1]. والآن أولئك الشباب باتوا شيوخاً، إذا بقي أحد منهم على قيد الحياة، ولم تعد رؤاهم أكثر من أحلام، والأزمنة القديمة باتت في طيّ النسيان. إننا نمضي منسيين كالأحلام[2]، كما تقول الترتيلة القديمة، وتُنسى أحلامنا قبلنا بزمن طويل.

ذات مرة وصف الرئيس - الجنرال غرانت[3]- آيوا، بأنها نجمة الراديكالية المشعّة. لكن ما الذي تبقّى هنا في آيوا؟ ما الذي تبقّى في جلعاد؟ الغبار. الغبار والرماد. يقول الكتاب إن الناس يفنون وهم يفنون حقاً. وهذا مذهل. ولهذا كله فإن غضبه لم يزل، ويده ما زالت ممدودة.

يحفظكم الرب ويرعاكم، إلخ.

بدا أن حفنة من الناس فحسب أصغت إلى كلمته. وأولئك الذين سمعوها كادوا يشعرون بالإهانة من فكرة أنهم يفنون في وقت كان ما

(1) الكتاب المقدّس، أعمال الرسل، 2: 17.

(2) من تراتيل إسحق واتس.

(3) Ulysses Grant (1822- 1885): جنرال معروف خلال الحرب الأهلية الأمريكية، والرئيس الثامن عشر للولايات المتحدة الأمريكية.

زال فيه الجفاف الرهيب في بداياته ومن شأنه أن يفلس ويهجّر الكثير من العائلات، بل بلدات بأسرها. وقد ارتفع بعض الضحك من النوع الذي تسمعه عندما يوافق السامع بصورة عامة عل أمر غريب. لكن كان هذا أسوأ ما في الأمر. وقف جدي هناك على المنصة برداءه الكنسي الأسود، محملقاً بالحشد ببرود الموت نفسه، والرايات ترفرف حوله. ثم بدأت الفرقة بالعزف وصعد والدي إلى المنصة ووضع يده على كتف جدي الأيمن وأنزله من هناك إلينا. قالت والدتي «شكراً لك أيها الموقّر» وهزّ جدي رأسه وقال «أشك في أنها أفادت أحداً».

لطالما فكرت بذلك، كيف تتغيّر الأزمنة، والكلمات نفسها التي تبث الحماسة في جيل ما تصبح مضجرة عديمة المعنى للجيل التالي. قد تحسبني تحت وطأة واجب ما لكي «أخلّص» بوتون الصغير، وأنه باستفساره عن تلك الأمور يضع على كاهلي هذه المسؤولية. حسناً، لقد عشت تجربة معينة مع التشكك والنقاش الذي يولّده، وثمة عقم لا يمكن تجنبه فيها بل إنها تجربة مدمّرة. وثمة شباب من رعيتي عادوا إلى البيت بنسخة من La Nausee[1] أو من L'Immoraliste[2]، مذهولين من احتمال عدم الايمان، في حين يتعيّن عليّ أن أخبرهم ألف مرة أن اللاإيمان ممكن. وهم ينجذبون إليه من الكتب نفسها التي تخبرهم كم أنه يمثّل حالاً مزرية.

(1) رواية الفيلسوف الوجودي الفرنسي جان بول سارتر «القرف» أو «تقزّز» الصادرة عام 1938.

(2) رواية الكاتب الفرنسي أندريه جيد «اللا أخلاقي»، نشرت عام 1902.

ويريدونني أن أدافع عن الدين وأن أقدّم لهم «البراهين». لكنني أرفض ببساطة فعل ذلك. فهذا يؤكّد لهم شكوكهم فحسب. لأنه لا شيء حقيقاً يمكن أن يقال عن الرب من موقع دفاعي.

منذ بدأ والدي يتلقى تلك الرسائل الطويلة من ألمانيا، بدأ بمراقبتي أكثر أو بالأحرى أكثر من السابق. وكانت تلك المرة الأولى في حياتي التي لم نكن خلالها مرتاحين في علاقتنا. كان عليّ أن أكون حذراً حيال ما أقوله له، لأنه يلحظ أيّ مسحة من الهرطقة ويعظني بجدية حول طبيعة الخطأ الذي قد يودي بي تفكيري إليه. وحتى بعد مرور أيام كان يأتيني بأدلة جديدة داحضة لما قد أكون قلته. لاريب في أنه كان يكلّم إدوارد من خلالي؛ يكلّمني وكأنني إدوارد التالي. ثم أنه كان من الواضح أنه يتمرّن لصالحه تحضيراً لدفاعه عن معتقداته التي حتى تلك اللحظة لم تبد لي هشة هكذا، ولا له أيضاً.

ثم حين بدأ بقراءة تلك الكتب التي أحضرها إلى البيت، بدا وكأنه راغب في أن يقتنع بها، وكأن كل نقد قد أوجهه لها لم يكن أكثر من عناد شخصي، مستعملاً كلمات من قبيل «الفكر الطليعي». قد تحسب أن حجة سيئة يمكن قبولها كما هي لمجرد جدّتها المفترضة، بحق الرب. والكثير من الجدة في هذا التفكير الجديد كان قديماً بقدر قدم لوكريتيوس[1]، الذي كان يعرفه بقدر ما أعرفه. في تلك الرسالة التي أرسلها إليّ والتي أحرقتها تكلم على «الشجاعة المطلوبة لاعتناق

(1) تيتوس لوكريتوس كاروس (99–55 ق.م) المعروف باسم لوكريتوس، شاعر وفيلسوف روماني، صاحب القصيدة الملحمية «حول طبيعة الأشياء» التي تعدّ أثره الوحيد الباقي، والتي سعى إلى تخليص البشرية من الخرافات ومن هاجس الموت.

الحقيقة». لم أنسَ تلك الكلمات بسبب الاضطراب الذي أحدثته في نفسي. فقد افترض فحسب أن جانبه من السؤال هو «الحقيقة» وأن الجبن وحده يمنعني من الاعتراف بذلك. ولكنني أحسبه طوال الوقت كان يحاول الوصول إلى إدوارد، ولا يمكنني لومه على ذلك. فقد حاول فعلاً أن يأخذني معه.

لطالما وجدت – في مسألة الإيمان – أن الدفاع عنه لا يوازي في هشاشته إلا الاتهامات التي تساق ضده. وأرى أن محاولة الدفاع عن العقيدة يمكن أن يزعزعها، لأنَّ ثمة دائماً لا صوابية في مجادلة المفاهيم المطلقة. نحن نشارك في الكينونة دون تمييز. وليس من نفس ولا فكرة ولا ثؤلول ولا شعرة من شعر اللحية، ليست غارقة كلياً في الكينونة. ولكن لا أحد يمكنه القول ما هي الكينونة. إذا فكرت ما المشترك بين فكرة وشعرة من لحية، وبين الإعصار الاستوائي وارتفاع أسعار الأسهم، مستثنياً «الوجود»، الذي بالكاد يعيد إعلان الحقيقة بأنها تحتل مكاناً ضمن قائمتنا من الأمور المعروفة والمعرّفة (والذي تعتبره استبصاراً: هذا التساوي في الوجود)، فقد تكون أنجزت أمراً رائعاً، بيد أنه مع ذلك جزئي جداً إذ لا يكاد يكون له أيّ معنى.

لقد شردت عما أردت قوله. وهو أنك تستطيع الجزم بوجود شيء ما – الكينونة – دون ان تكون لديك أصغر فكرة عن ماهيته. فالربّ في موضع أعلى. فإذا كان هو صانع الوجود، فأي معنى هناك في القول

إنه موجود؟ لدينا مشكلة في المفردات. يجدر أن تكون للرب شخصية سابقة على الوجود، وافتقارنا إلى الفهم لا أكثر هو ما يسميه وجوداً. ومن الواضح أن هذا مصدر ارتباك. قد يكون هنالك حاجة إلى تعبير آخر لوصف حالة ما أو سمة ما لا خبرة لنا بها على الإطلاق، وليس لها إلا أقلّ الشبه بالوجود كما نعرفه. وإذن بناء البراهين بناء على أيّ تجربة كانت هو مثل بناء سلّم إلى القمر؛ فهذا يبدو معقولاً، حتى تتوقّف لترى طبيعة المشكلة.

فنصيحتي هي هذه - لا تستجدي البراهين. لا تحمل همّها على الإطلاق. فهي ليست كافية البتة للإجابة عن السؤال وهي دائماً غير ذات صلة به لأنها تزعم للرب حيزاً ضمن قدرتنا على الفهم. وهي ستبدو على الأرجح خاطئة لك حتى لو أقنعت سواك بها. هذا انزياح عن التعبير الطويل «هكذا فليضئ نوركم للناس ليروا أعمالكم الصالحة»[1]، إلخ. وقد كان كوليردج[2] هو القائل إن المسيحية هي الحياة، وليست عقيدة. لا أقول لك ألا تشكّ البتة أو ألا تطرح الأسئلة. فقد أعطاك الرب عقلاً لكي تستعمله استعمالاً نزيهاً. ما أقوله هو أنه يتعيّن عليك أن تكون واثقاً من أن هذه الشكوك والأسئلة تخصك أنت، ولا تخص الشاربين والعكاز اللذين يصدف أن يكونا موضة أيّ لحظة معينة.

(1) إنجيل متى، 5: 16.

(2) صموئيل باتلر كوليردج (1772–1834): الشاعر والفيلسوف الإنجليزي، الذي أعلن مع زميله وليام ووردوورث (وردزورث) بدء الحركة الرومنطيقية في إنجلترا.

لا نوم هذه الليلة؛ قلبي شديد الاضطراب. وإنه لمن الغريب أن تشعر بالوهن والأسى في العضو نفسه.، غير قادر على تمييز أحدهما عن الآخر. لطالما كانت عادتي أن أتفكّر في الأسى، أي أن أتبعه عبر تجاويفه وشرايينه الأورطية لكي أجد أمكنة اختبائه. ذلك العبء القديم على الصدر، ينبئني بأن ثمة شيئاً ما عليّ أن أتناوله بإسهاب، لأنني أعرف أكثر مما أعرفه وعليّ أن أكتشفه بنفسي، والعبء نفسه يقلقني هذه الأيام.

لكنّ الحقيقة أنني لم أجد وسيلة أخرى أكون بها صادقاً مع نفسي قدر ما أستطيع إلا بمراجعة نفسي حول مصادر تعاستي هذه، أي أولئك في داخلي الذين يكيلون إليّ الاتهامات والتوبيخات، باركهم الربّ جميعاً، ما داموا لا يقضون عليّ كلياً. إذ أفضّل حقاً أن أموت بقلب ساكن. وأعرف أن هذا قد لا يكون مطلباً واقعياً.

حسناً، أغمض عينيّ وأرى جاك بوتون، ويبدو لي أنه أكثر من أنه نضج أو تقدّم في السن، فقد سئم. وأفكّر لماذا عليّ دائماً الدفاع عن نفسي ضدّ هذا الكهل الحزين؟ فأي أذية أتوخّاها منه؟

حسناً، هذا ليس بالسؤال البلاغي فقط. هذا الصباح أعطتني والدتك رسالة منه تقول «آسف جداً لأنني أسأت إليك يوم أمس. ولن أفعل ذلك ثانية». خطّ يده جميل. على أي حال، شعرت من سلوكها أنها تعرف ما الذي خلف الرسالة. كانت مجرّد قصاصة ورق مطويّة، لكنّها ما كانت لتقرأها أبداً لو لم يرها إياها. ربما أخبرها بفحواها أو قال لها ببساطة إنها رسالة اعتذار.

سمعتهما يتكلمان على الشرفة قبل أن تأتي لي بالرسالة. بدت شديدة القلق والاهتمام، عليّ، أو ربما عليه، أو علينا كلينا. إنهما يتكلمان مع بعضهما بعضاً وأعرف ذلك. ليس كثيراً ولا غالباً. لكنني أحسّ بنوع من التفاهم بينهما.

«التفاهم» ربما لا تكون الكلمة الصحيحة، بما أنني لم أكلمها البتة عنه، وحقيقة أنها تعرف القليل عنه بالتحديد هي التي تقلقني. أو قد تكون هذه هي الكلمة الصحيحة تماماً، بصرف النظر عما تعرفه أو لا تعرفه. لا أستطيع أن أحسم أيّ الفكرتين يقلقني أكثر. ربما كانتا تقلقانني بصورة متساوية.

أرسلت له رسالة. قلت له إنني أنا من يتوجّب عليه الاعتذار، وأن صحتي لم تكن بأفضل حال أخيراً، وما إلى ذلك، وإنني آمل أن نتكلم ثانية عما قريب. وحملت والدتك الرسالة له.

كنت أتذكر عندما كان في العاشرة أو الثانية عشرة وملأ صندوقي البريدي بنثرات الخشب وأشعل فيها النار، مستعملاً ربما فتيل مغمس بالكاز. كان الصندوق معلقاً حينذاك على سارية عند البوابة، وقد اتخذ شكل رغيف الخبز الطويل الذي يستعمله الناس في الريف. كنت عائداً إلى البيت من اجتماع في الكنيسة في أمسية شتوية معتمة. وسمعت صوتاً كتيماً فنظرت، فاندلعت في تلك اللحظة النيران من فتحة الصندوق. وقد أجفلني ذلك كثيراً. لكنني لم أشكّ في لحظة بهوية الفاعل.

لطالما كان هذا الفتى وحيداً وحانقاً ومصمماً على شيطنة ما. لم يكن قد تجاوز العاشرة حين فرّ بسيارة «موديل تي»(1) وجدها مركونة في الشارع. كانت السيارات ما زالت نادرة في تلك الأيام، فكان اهتمامه بها مفهوماً. مضى بها غرباً لبضعة أميال حتى نفد منها الوقود، ثم عاد إلى البيت راجلاً. وحدث أن مرّ شبان مع زوج من الجياد بالسيارة فقطروها إلى ويلكينسبورغ وقايضوها ببندقية صيد. أظن أن نصف سكان المقاطعة امتلكوا السيارة يوماً أو اثنين خلال شهري اختفائها. ثم جاءت إلى جلعاد عائلة كبيرة قايضت السيارة بعجل لكي تمضي يوم الرابع من يوليو، فألقي القبض عليها. وقد تعقبت السلطات سلسلة المقايضات والاستدانات وألعاب البوكر التي تمحورت حول السيارة لكنها لم تتوصّل إلى معرفة السارق الحقيقي. وقد اتضح أنَّ هناك عدد كبير من الذين تورّطوا في جنح صغيرة تعلقت بشراء السيارة وبيعها إذ أن القانون لم يكن بيده حيلة أمام الأمر، فنُسي الأمر برمته رسمياً وظلّ يُتذكّر طويلاً بعد ذلك لأنه شكّل قصة مسلية. كان الناس يعرفون أن السيارة مسروقة لكنهم لم يستطيعوا مقاومة امتلاكها لبعض الوقت وإن لم يمتلكوا الشجاعة للاحتفاظ بها - الأمر الذي أبقى سعرها معقولاً جداً والإغراء بالحصول عليها أكبر.

كان جاك نفسه الذي اعترف لي بفعلته. كان قد احتفظ بمقبض علبة القفازات كتذكار وأراه لي، لكنني كنت سأصدقه بكل الأحوال. ففي دهائه ذاك، حتى في صغره، كان يعلم أنني لن أخبر أحداً بما جرى، ولم

(1) نوع من سيارات فورد أنتج بين 1909 و 1927.

أفعل ذلك. بالطبع فكرت أنه يجدر أن يعلم والداه، ومع ذلك لم أمتلك الجرأة لقول شيء لهما. كنت دائماً مروعاً بعض الشيء من طفل يمكنه الاحتفاظ بسرّ كهذا، في حين أن القصة لا تكتمل دون معرفة أن طفلاً في العاشرة قد جرّم نصف المقاطعة.

ثمة حزن في هذا الأمر برمته لا أحب أن أخفيه. أعني ثمة حزن في الطفل. أتذكّر خروجي من البيت ذات صباح لأجد درجات سلمي الأمامي وقد طليت بدبس السكر. كان النمل كثيفاً إلى حدّ أنه تكوّم فوق بعضه بعضاً في كتلة صلبة. والآن يجب أن تسأل نفسك، ما مدى الوحدة التي يشعر بها طفل حتى يكون لديه الوقت لارتكاب مثل هذا العبث؟ وقد طوّر وسيلة ما لاقتحام حجرة مكتبي من النافذة عبر خلع الإطار بكامله والدخول. وكان هذا مذهلاً. سأسأله كيف فعل ذلك، ذات يوم حين يحلّ السلام على نفسينا ويمكننا أن نضحك من الأمر.

هذا ما كان يفعله في طفولته، أذية على حافة الأذية، بصورة عامة. هذا ما أعتقده على الرغم من أن بعض الأمور المؤذية قد حصلت فعلاً والتي لا أحب أن أنسبها إليه، ولكن التي، في سرّي، لطالما عزوتها إليه. على سبيل المثال حصل حريق في حظيرة، وبعض الحيوانات فقدت فيه. قد أكون مخطئاً لإلقائي اللوم عليه في هذا الشأن.

كانت انتهاكاته ماكرة ومستوحدة، وهذا بات أصحّ مع تقدّمه في السن. أظن أنني ذكرت سابقاً أنه لم يرتكب السرقة بالمعنى التقليدي، لكنني عنيت بذلك أنه لم يسرق شيئاً ذا قيمة إلا لأولئك الذين سرق منهم. لم يكن ثمة معنى لما يرتكبه، ما لم يكن هدفه هو التسبب بأقصى

حرج والمخاطرة بالحدّ الأدنى من التوبيخ. حين كان في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، تسلل إلى البيت خلال وجودي في الكنيسة وسرق شيئاً أو شيئين. كانت الحيلة الأكثر إزعاجاً التي يمكنك تخيّلها. ذات مرة سرق ذلك الكتاب المقدس اللاتيني القديم عن منضدتي. إذا كان هناك شيء لا يستحق عناء تكبّد المتاعب لسرقته فلا أعلم ما هو. ذات مرة سرق نظارات القراءة خاصتي. وذات مرة جئت ووجدته واقفاً في الردهة، لكنه ضحك وقال «مرحباً يا بابا»، بكلّ هدوء وفتنة ممكنين. وقد تكلم قليلاً بتلك الطريقة الحريصة الخاصة به، وكأن هناك دعابة ما بيننا. وقد تطلبني الأمر وقتاً لأعرف ما الذي فقد حينذاك. ثم أدركت أنها كانت صورة فوتوغرافية صغيرة في إطار أرجواني للويزا في طفولتها. وقد غضبت أشدّ الغضب جراء ذلك، على اللؤم الصرف في ذلك. وكيف يمكنني أن أخبر بوتون أنه فعل أمراً كهذا؟ كيف يمكنني النطق بالكلمات؟

كانت الأشياء تعود آجلاً أم عاجلاً. الكتاب المقدس اللاتيني ترك على دعسة الباب. والصورة ظهرت على المنضدة في ردهة بوتون، بصورة غامضة، وأعيدت إليّ. ومطواة الجيب تلك التي نقش على مقبضها المزيّن بالأصداف «تشارترز»، تركت على طاولة المطبخ، مغروزة في تفاحة. وقد وجدت ذلك مربكاً آنذاك.

ثم بدأ بفعل الأشياء التي أوصلت اسمه إلى الصحيفة، سارقاً الشراب والسيارات وما إلى ذلك. وقد عرفت شباناً أمضوا محكوميات في السجون أو أرسلوا إلى البحرية بسبب سلوكيات لم تكن أسوأ من

تصرفاته. لكنّ عائلته كانت بالغة الاحترام إلى درجة أنّه نجا من العقاب على كلّ أفعاله هذه. أي سُمح له بأن يعاود إلحاق الخزي بعائلته.

ألاحظ أنني قلت إنه بدا وحيداً. وكان هذا أمراً شديد الغرابة فيه، لأنه، كما أسلفت أيضاً، لأنَّ عائلته، كما أسلفت، قد أحبته فعلاً. جميعهم أحبوه. ولطالما وقف أشقاؤه وشقيقاته إلى جانبه أياً يكن الأمر. كان في صغره ينسلّ ويفرّ، ويأتون بحثاً عنه، قلقين بما يتجاوز أعمارهم، آملين بالعثور عليه والتأثير فيه قبل أن يورّط نفسه في المزيد من المتاعب. أتذكّر ذات صيف أنني زرعت عبّاد الشمس على امتداد السياج الخلفي. لابدّ من أنني زرعت ما لا يقلّ عن عشرين غرسة منها. وذات أصيل جاء بوتون الصغير الآخر إلى بابي سائلاً عن جوني، كما كانوا ينادونه في تلك الأيام، فخرجت لمساعدتهم في البحث عنه قليلاً، لأجد أنه قام بثني الشتلات إلى الأسفل وتطويحها فوق السياج، حيث تدلت رؤوسها من الجانب الآخر منه. قالت غلوري: «يمكن أن تكون الريح قد تسبّبت بذلك». فقلت: «بلى يمكن أن تكون الريح».
إذا اضطررت إلى اختيار كلمة واحدة أصف بها حاله كما هو الآن، فقد تكون هذه الكلمة «وحيد»، وإن كانت كلمة مثل «سئم» و«غاضب» معبرتان أيضاً. ذات مرة في أثناء الوقت الذي أضعت فيه صورة لويزا ذهبت إلى منزل بوتون لكي أستعير كتاباً، وجلسنا على الشرفة وتكلمنا قليلاً، وكان ذلك الصبي جالساً على الدرجات يلعب بمقلاع مصغياً إلى

كلّ كلمة نقولها، ناظراً من وقت لآخر نحوي ومبتسماً، كأننا متواطئان على دعابة ما، على مؤامرة لطيفة ما. وقد وجدت ذلك شديد الإزعاج. فقد كاد يستفزني للإتيان على ذكر أمر الصورة الفوتوغرافية في ذلك الوقت والمكان، مما اضطرني إلى المغادرة لكي أمنع نفسي من ذلك. قال «وداعاً يا بابا!»، فذهبت إلى البيت مرتجفاً. ربما يمكنك أن ترى لماذا حين نشأت المشكلة مع الفتاة الصغيرة، كنت بصورة أساسية مصدوماً من اللؤم الكامن فيها.

لا أحسبني أسدي قلبي نفعاً بتذكري هذه الأمور. ما أريد قوله هو أنه لطالما كان لغزاً، ولهذا السبب أقلق عليه، ولهذا أعرف أني لا أستطيع الحكم عليه على نحو ما أفعل مع سواه. أي أنني لا أستطيع أنْ أقيّم أخلاقه تقييماً أخلاقياً. فهو شرير فحسب. حسناً، لا أعرف إذا كان ذلك يصحّ عليه الآن. لكنني أرى بوضوح بالغ ما يمكنه التسبّب به من أضرار. بينما كنت واقفاً هناك في المنبر، خطرت لي فكرة أنني أنظر إلى الوراء من القبر لأراه هناك جالساً قربك، وينظر نحوي مبتسماً...

هذا لا يفيدني البتة. يستحسن بي أن أصلي.

أفقت هذا الصباح على رائحة الفطائر المحلاة، التي أحبها كثيراً. كان قلبي نوعاً من كتلة الطين في وسط مرئي، وهذا بعد الكثير من الصلاة.

وجدتني والدتك نائماً على كرسي ونزعت خفيّ وألقت عليّ لحافاً. أحياناً أنام بصورة أفضل جلوساً هذه الأيام إذ أجد التنفّس أسهل. وقد حرصت على إبعاد هذه اليوميات قبل أن أطفئ الضوء ليلة البارحة. أعرف أنه ما زال أمامي الكثير من التفكير في ما يخصّ موضوع جاك بوتون.

إنه عيد مولدي، فكان هنالك نبات القطيفة على الطاولة وشموع في الكعك المحلى. وكان هناك القليل من السجق جانباً. وقد أنشدتَ «طوبى» دون خطأ تقريباً، وكررتها مرتين، متوهجاً كلياً بعظمة إنجازك، كما يحقّ لك. أعطت والدتك السجق لـ «سوبي» التي تسلّلت وخبّأته في مكان مجهول. إنها بلا ريب سليلة أجيال متعاقبة من أكلة الهوام، على الرغم من سمنتها، وعلى الرغم من أنها منزلية كما يجدر بها أن تكون.

أكره التفكير بما يمكن أن أعطي مقابل ألف صباح كهذا الصباح. مقابل صباح أو اثنين. كنت ترتدي قميصك الأحمر وكانت والدتك ترتدي فستانها الأزرق.

وقد عثرت والدتك على العظة التي كنت أتساءل عنها، عظة عيد العنصرة تلك، التي ألقيتها في المرة الأولى التي رأيتها فيها. وجدتها بجانب طبقي، ملفوفة بمحارم ورقية، وقد لفّت بشريط. قالت لي: «والآن لا تراجع هذه، ليست بحاجة إلى مراجعة». وطبعت قبلة على

جبيني، الذي بالنسبة إليها كان أمراً مخجلاً.
فأصبحت الآن في السابعة والسبعين.

كان يوم أمس رائعاً بالإجمال. مرّت غلوري بسيارتها وأخذتنا في نزهة إلى النهر. جاء طوبياس، طوبياس الطيّب. كان هناك بالونات وحتى مفرقعات نارية، وكان هناك كعكة بالشوكولا مع طبقة من الكريما. كانت مياه النهر ضحلة إنما جميلة، مع أولى الوريقات الصفراء تنجرف مع التيار. شعرت بالندم لأنني لم أنم جيداً ليلة أمس، إذ أنني شعرت بالكثير من التعب في جهة قلبي. لكن الحفلة مضت بصورة بهيجة. أصبحت غلوري ووالدتك صديقتين حميمتين، وأمضيت وطوبياس الوقت تسابقان الوريقات في النهر وتلعبان حولها عموماً.
ليلة أمس نمت جيداً بما فيه الكفاية.

يزعجني أن أكون قلقاً من موضوع الموت، إذا فهمت ما أعنيه. جاك بوتون عاد إلى المنزل لكي يرضي والده، صديقي العزيز. فكل ما أعرفه أنه لم يرتكب أيّ أذية، ولا ينوي ذلك. ومع ذلك فمجرد فكرة وجوده تقلقني.
سألتَ إذا كان سيأتي إلى حفلة عيد الميلاد. وقد خاب أملك. وقد خرجت غلوري بعذر ما، واكتفت والدتك بالصمت. كانت الحقيقة

واضحة. كان عليّ أن أتساءل ما الذي تعرفانه، وما الذي تكلمتا حوله. كيف لا تشفقان عليه؟ فأنا أشفق عليه. وأشعر بأسف تام لأنني لا أستطيع التكلم معه كراع وأنا أعلم كم أنه روح قلقة. وهذا مشين.

أحد أفضل خصال الأناس الطيبين أنهم يحبون مع الشفقة. وهذا يصح أكثر على النساء من الرجال. فيجدن أنفسهن في أوضاع مؤذية. وقد رأيت هذا يحدث مراراً. ولطالما عانيت من إيجاد طريقة للتحذير من ذلك. بما أن هذا حرفياً من الأخلاق المسيحية.

لم يردّ بعد على رسالتي إليه.

كتبت رسالة أخرى أخبره فيها بمدى شعوري بالذنب وما إلى ذلك، وحملتها بنفسي إلى منزل بوتون. وكنت على وشك وضعها في صندوق البريد عندما خرج جاك إلى الحديقة ورآني فأخذتها مباشرة إليه. وقد بدا خجلاً منها بعض الشيء. قلت له إنها اعتذار آخر، أكثر (أعمق) تفكيراً من الأول، فشكرني عليها، وأنا واثق من أنه شعر بارتياح حقيقي لأن هذا بدا ظاهراً على وجهه. أظن أنه لم يقرأ الرسالة الأولى، ربما ظناً منه أنها قد تتضمن شيئاً من التوبيخ. لكنه فتح تلك التي ناولتها له باليد وقرأها، ثم شكرني ثانية.

قلت «إذا أحببت أن نتكلم فسأكون سعيداً برؤيتك وقتما تشاء».

فقال: «أجل، أودّ فعلاً التكلم إليك، إذا كنت واثقاً من أنه لا بأس بذلك». فسنرى إذن ما الذي سينتج عن ذلك.

اغتبطت لأن الأمر جرى بطريقة مريحة. وشعرت بأن عبئاً أزيح عن كاهلي. وأعترف أن جزءاً من دافعي لكتابة الرسالة الثانية أنني لا أريد أن تشفق والدتك عليه بسبب أيّ أذية قد أكون سبّبتها له. ومع ذلك شعرت بالراحة لذلك. استمتعت برؤية وجهه يتغيّر على نحو ما تغيّر عندها. بدا شاباً لبرهات قليلة.

لا نوم من جديد. كنت أفكر بالصبيحة التي عمّدت بها جاك بوتون. طلبت من أحد الشمامسة أن يبدأ القدّاس دوني، لكي أذهب إلى كنيسة بوتون. كنا قد تكلمنا في الأمر واتفقنا على تسمية الطفل ثيودور دوايت ويلد[1] الذي وجدته اسماً رائعاً. وقد سمع جدي ويلد يعظ كلّ ليلة طوال ثلاثة أسابيع حتى أقنع مجموعة مستوطنة كاملة من «وجوه العجين» بالانضمام إلى قانون حظر العبودية، وقد عدّ الهرم ذلك من بين أعظم تجارب حياته. لكنني حين سألت بوتون بأي اسم يرغب في مناداة الطفل؟، أجابني «جون آيمز». ففوجئت أشدّ المفاجأة حتى أنه اضطر إلى لفظ الاسم ثانية، والدموع تجري على وجنتيه.

(1) Theodore Dwight Weld (1803–1895): خطيب وكاتب وناشط يعد من أبرز مهندسي حركة مناهضة العبودية في الولايات المتحدة الأمريكية، ويعد كتابه «العبودية في أمريكا على حقيقتها: شهادات ألف إنسان» الذي نشر عام 1839 من أبرز الأعمال في هذا المجال، وقد بنت هارييت ستو روايتها الشهيرة «كوخ العم توم» على هذا الكتاب.

لم يكن ببساطة من طبع بوتون أن يضعني في موقف كهذا. فقد كان سلوكاً لا ينمّ أبداً عن كنيسته المشيخية، في المقام الأول. وقد سمعت نحيباً بين الحاضرين. وتطلبني الأمر وقتاً لمسامحته على ذلك. أخبرك الحقيقة فحسب.

لو أنني حظيت بساعة فقط للتمعّن في الأمر، فلربما اختلفت مشاعري على الأرجح. لكن في تلك اللحظة تجمّد قلبي وفكّرت، هذا ليس طفلي - ولم أكن قد فكّرت قبلاً بأي طفل. لا أعرف ما هو اشتهاء ملك الغير بالضبط، لكنه بحسب تجربتي ليس اشتهاء ثروة أو سعادة إنسان آخر بقدر ما هو رفضها والشعور بالاستياء منها.

هذا مثير للاهتمام. هناك عظة ما بالتأكيد هنا. «طوبى لمن لا يعثر فيّ»[1]. هذا النص الأساسي. آمل أن يتسنى لي الوقت لأفكّر به ملياً.

سأخبرك أمراً بالغ الحماقة. فكّرت من وقت لآخر أن الطفل كان يشعر بمدى برودي تجاه تعميده، وكم أن أفكاري كانت بعيدة عن مباركته. وهذا تفكير سحري. هذه خرافة. وأشعر بالخزي لقولي شيئاً كهذا. لكنني أحاول أن أكون صادقاً. وأشعر فعلاً بالذنب تجاه ذلك الطفل، ذلك الرجل الذي يحمل اسمي. لم أتمكّن أبداً من أن أكون دافئاً معه. أبداً.

يسرّني أنني قلت هذا؛ أن أراه بكلماتي الخاصة، بخطّ يدي. لأنني الآن

(1) إنجيل لوقا، 7: 23.

أدرك أنه غير صحيح. وهذا مصدر راحة عظيم لي.

أتمنى لو أستطيع تعميده ثانية، من أجلي أنا. لقد كنت غارقاً في أفكاري المزرية الخاصة، إلى حدّ أنني لم أشعر بتلك القداسة بين يدي التي لطالما شعرت بها، الإحساس بأن الطفل هو الذي يباركني. وهذا مدعاة للأسف.

جون آيمز بوتون هو ابني. إذا كان ثمة أيّ حقيقة في أيّ شيء أؤمن به، فإن هذا حقيقي أيضاً. وأعني بأنه «ابني» ذاتاً أخرى، ذاتاً أكثر احتضاناً ورعاية. كلامي هذا غير معبّر بما فيه الكفاية لكنه أفضل ما يمكنني قوله في اللحظة الراهنة.

أجدني أفكر بتلك الفقرة في كتاب كالفن «الأسس» الذي يقول فيه إن صورة الربّ كما تتجلى في أيّ إنسان كافية لكي نحبّه، وإن الرب ينتظر لكي يرفع عن كاهل أعدائه خطاياهم. فمن قبيل رفض الرحمة أن نمسك على أعدائنا أخطاءهم. وهذا لا يمكن إلا أن يكون صحيحاً. يبدو لي أن الناس يميلون إلى أنه يجدر بنا أن نحبّ أعداءنا، لا لكي نرضي معياراً ما من الصوابية، بل لأن الرب يحبّهم. وقد وعظت على الأرجح حول هذه النقطة مئات المرّات.

ولا أقصد تسمية بوتون الصغير عدوّي. هذا أعرفه في أعماق قلبي. كالفن يوضح هنا الحالة الأكثر تطرفاً: fortiori[1]، كم عليّ أن أكون أكثر قابلية لنسيان إساءات لا تعدو في حقيقتها عن كونها إزعاجات، فيما

(1) كلمة لاتينية تستعمل في المحاجحة، وتعني إثبات حجة ما من خلال صحة حجة أكثر قوة، من قبيل أنه إذا كان المرء قادراً على حمل مئة كيلوغرام فهو قادر حكماً على حمل 50 كيلوغرام. ما يوازي هذا المفهوم بالعربية هو «القياس».

يخصُّ تأثيرها فيَّ حتى الآن؟ لقد تسبّب جاك بالحزن العميق لوالده وقد سامحه دوماً، وفوراً، وأنا نفسي أحزنت بوتون حين شعر أنني بطيء في مسامحتي لجاك أيضاً. أظن أن معظم ذلك الأسى كان شعور بوتون العجوز بالوحدة تجاه الفتى، الذي كان غريباً عنه وعنا جميعاً.

والآن هذه هي النقطة التي أودّ إيضاحها، لأن هذه الفكرة التي راودتني وأنا أضع هذا كله أمام الربّ. الوجود هو الشيء الجوهري والمقدّس. إذا اختار الربّ ألا يجعل شيئاً من آثامنا فهي ليست شيئاً. أو أياً تكن حقيقتها فهي تافهة وشرطية مقارنة بحقيقة الوجود الأولية والجوهرية. بالتأكيد الرب يمسحها مثلما أمسح الغبار عن وجهك أو الدموع. ففي نهاية الأمر لماذا يهتم الربّ كثيراً بهذه اللطخات التي ليست جزءاً من «خلقه»؟

حسناً، هناك الكثير من الأسباب الوجيهة التي تدفعه إلى الاهتمام. فنحن البشر نتسبّب بأضرار حقيقية. وتاريخنا في ذلك يدمي قلب الحجر. وأنا واع أن اضطراباً كبيراً يداخل تفكيري في هذه اللحظة. فأنا متعب – وربما يكون هذا جزءاً من المشكلة. لكنني أذكر أنه حتى في ريعان شبابي كنت أضع الثقل الحقيقي للخطيئة مقابل رحمة الرب وغفرانه. لو كان بوتون الشاب ابني، فإنَّ طفلته تلك، تبعاً للمنطق نفسه، ستكون طفلتي أيضاً، وكان رهيباً فحسب ما حدث لها. كرجل مؤمن لا يمكنني قول شيء آخر.

بعد إلقائي نظرة على هذه الأفكار التي وضعتها ليلة أمس، أدرك أنني تجنبت ما هو بالنسبة إليّ السؤال المركزي. وهو: كيف ينبغي أن أتعامل مع مخاوفي، من أن جاك بوتون سيلحق بك وبوالدتك الأذية، فقط لأنه يمكنه ذلك، فقط بسبب الفظاظة المحض الكامنة في الأمر؟ وقد سألتني عنه مرتين هذا الصباح.

الأذية التي تلحق بك ليست أذية لي بالمعنى المباشر، وهذا جزء كبير من المشكلة. قد يرميني عن السلالم ومع ذلك أجد الأعذار اللاهوتية لكي أسامحه قبل أن أصل إلى قاع السلّم. لكن إذا أذاك بأقلّ الطرق، فأخشى أن يخذلني اللاهوت.

وقد يكون هذا جزءاً كبيراً ما أخشاه، الآن وقد فكّرت في الأمر.

حسناً، أسمعه على الشرفة الخارجية يتكلم إليك وإلى والدتك. وثلاثتكم تضحكون. وهذا يشعرني في الحقيقة بالارتياح. بالنسبة إليّ هو دائماً رجل على مقربة من النار، يتحمّل الألم الراهن، مدركاً أنه على بعد نصف خطوة من أمر أسوأ. حتى عندما يضحك يبدو هكذا، على الأقل حين يكون في حضرتي، وإن كنت أعتقد بصدّق أنني حاولت كثيراً ألا أزعجه. آه، إنني رجل محدود وعجوز، وسيكون ما زال في عزّ الشباب حين تصير عظامي رميماً.

كثيرة هي المرّات التي همت فيها – ضمن حدود إدراكي – في تلك البرية، تلك الحوريب[1]، في كنساس تلك، وقد أدخلت الجزع في روعي عدداً من المرات أيضاً تاركاً جميع علامات الاستدلال ورائي، أو هكذا شعرت. وقد كان ذلك من بين مسرات حياتي الحقيقية. الليل والضوء، الصمت والمشقة، تبدو لي دائماً قاسية ومفيدة. وأظن أن إدوارد نصحني بذلك، وأيضاً جدي الموقّر حين قام برحلته الأخيرة إلى البرية. قد أكون حلمت بنفسي يوماً كواحد آخر من الرجال الهرمين الأقوياء، مستعداً للغوص في الأرض، مبدداً الوقت بانتظار يوم القيامة. حسناً، لقد صرفت النظر عن هذا المشروع حالياً. فاضطراباتي الحالية تمثّل لي منطقة جديدة تجعلني أشكّ في أنني قد تهت بالفعل يوماً.

على الرغم من هذا يجب أن أقول إن هذا كله قد منحني لمحة جديدة من استمرارية العالم. نحلق منسيين كحلم، بكلّ تأكيد، تاركين العالم المنسي وراءنا لكي يسحق ويشوّه كل ما عنانا يوماً. هذه هي ماهية الأمر ببساطة، وهو أمر استثنائي.

جلب جاك القرع، كيساً كاملاً منه. وقد أعطته والدتك بعض الطماطم الخضراء. آه، يا لثروات آخر الصيف تلك، تلك اليقطينات الضخمة والقرع الهائل. كل هبوب ريح يرمي كومة من الأكواز على السطح. ومع ذلك ما زالت الرياح معتدلة. وقد انشغلت العناكب منذ مدة ببناء

(1) Horeb: هو جبل سيناء أو جبل حوريب وهو في الوقت عينه البرية المحيطة به.

شباكها في كل مكان، والآن جميع هذه الشباك تمزقت إرباً، وأظن أننا نستطيع أن نتخيل العناكب الكبيرة عالقة في وريقات الشجر القديمة، ناسية في خضم نعاسها فكرة الكدح نفسها.

أذكر والدي وجدي وهما جالسان ذات يوم على الشرفة يكسران الجوز الأسود. كانا يحبان صحبة بعضهما بعضاً حين لا يكون واحدهما ممسكاً بخناق الآخر، ما يعني أن يجلسا صامتين، مثلما كانت الحال في ذلك اليوم.

قال جدّي: «لقد انتهى الصيف ولم نجد الخلاص بعد».

فقال والدي: «هذه حقيقة الرب».

ثم غرقا مجدداً في الصمت، دون أن يتوقفا عما كانا يقومان به. كانا يقصدان الجفاف، الذي قد بدأ حينذاك واستمرّ لسنوات؛ كارثة حقيقية. أتذكر نسيماً ناعماً عذباً كأنه اليوم. ليس من عمل ممل أكثر من تكسير الجوز الأسود، وقد دأبا على فعل ذلك في كلّ خريف دون استثناء. وقالت والدتي إن طعمها كان كالأثاث، ولا أظنّ أن أحداً خالفها هذا الرأي. لكن لطالما توافرت لديها، فاستعملتها.

أنت وطوبياس على درج الشرفة تصنّفان القرع بحسب الحجم واللون والشكل، وتختاران المفضّلة منها، وتطلقان عليها الأسماء. بعضها أسماء غواصات وبعضها دبابات، وبعضها قنابل. أفترض أنني سأتلقى زيارة أخرى عما قريب من والد طوبياس. جميع الأولاد يلعبون

الآن لعبة الحرب، محاكين أصوات الطائرات والقنابل والاصطدامات والمتفجرات. وفي طفولتنا لعبنا مثلهم لعبة المدافع والهجوم بالحربات. بالتأكيد ليس في هذه الحقيقة ما يطمئن.

في هذا العالم، في سرداب الموتى هذا، من المدهش التفكير بما يبقى صامداً فيه.

وجدتني متذكراً إحدى عظات والدي، والتي كتبها بعد أن باتت قطيعته مع إدوارد أمراً شائعاً وتسنى له بعض الوقت للتأمل فيها. لم يكن من عادته قطّ الإشارة إلى أمر شخصي إلا بأكثر التعابير تجريدية. لكنه في ذلك الصباح حمد الرب لأنه جعله يعرف أخيراً وإن بدرجة قليلة أي مروق قام به، وأن يفهم ما الذي فعله هو نفسه لوالده في تلك الأيام التي تلت الحرب حين انضم إلى «الكوايكرز» وترك والده يحمل وحده هذا الحمل الرهيب. قال شيئاً لم أسمعه قبلاً؛ أن والدته، على الرغم من سقمها الشديد وفرط آلامها التي حرمتها لأشهر الذهاب إلى الكنيسة، قد جاءت حين علمت ببعده عن والده. وقد قامت شقيقتاه اللتان لازمتاها حينذاك، بحملها، الأولى ثم الأخرى، طوال الطريق الذي لابدّ من أنه كان طويلاً عليهما. تأخرتا لأنه في ذلك الصباح فحسب طلبت منهما أمهما أن تحضراها، وكانتا متوترتين ومهملتين بسبب العجلة، العجلة المصحوبة بالرقة، لأنه في ذلك الوقت كانت أمهما بالكاد تحتمل أن يلمسها أحد. كانت شاحبة الوجه مقصوصة

الشعر وكان الفستان الذي ألبساها إياه بكثير من الحذر صغيراً. دخلن وسط العظة على تلك الحال الشعثاء. وقد حملت «آيمي» - الكبرى - والدتها كأنها تحمل طفلاً كبيراً. قال والدي إن الموقّر الهرم توقف عن الوعظ ووقف ينظر إليهن، ثم استأنف العظة، التي كانت عن مدى إلغاز المعاناة على الآخرين، الذي كان موضوع جميع عظاته وقتذاك. استمرّ لبضع دقائق ثم صلى لبضع دقائق أخرى وقال «الطوبى» ثم ذهب إلى زوجته وحملها وقبلها على جبينها وحملها إلى البيت، تاركاً رعيته لسبت الميثوديين الطويل.

قال والدي: «لا أستطيع وصف الخزي الذي شعرت به. أخبرتني شقيقتاي عما فعلته والدتي لأنهما خشيتا أن تصرّ على الذهاب ثانية إلى الكنيسة إذا ما بقيت بعيداً ثانية. قالت لي والدتي، إذا عرّضتنا لهذا ثانية فسأكرهك حتى الممات. وبالطبع لم أعد الكرة».

كان والدي يخبر نفسه والجميع أن آثام إدوارد تافهة قياساً بآثامه هو. كان أيضاً يقول لنفسه ولبقيتنا إنَّ ثمة ملاءمة في الحرج وخيبة الأمل الحاليين يجعلهما قيمين ومدمرين بالنسبة إليه - وكأنه هناك شيء من التدبير في ذلك، وكأنها هبة من الرب، أمثولة المقصود منها تعميق فهمه. وكان من شأن رؤيته المسألة من هذه الزاوية أن تدفعه إلى الصفح عن إدوارد أو على الأقل أن تقلّل من ميله إلى لومه. إن طيش أيّ فرد، حين ينظر إليه في سياق أنه في خدمة تصميم الربّ الكامل، لا يمكن أن

يبرّر الغضب.

وقد لجأت إلى هذا المنطق مرات كثيرة، حين شعرت بالحاجة إلى ذلك ووجدت المناسبة لذلك. والحقيقة هي أنه من النادر بالتأكيد أن أي حيف يعاني منه المرء لا ينذر كلياً بضروب الحيف الذي سيرتكبه. وبعد قولي هذا، لم يكن قطّ واضحاً لي كيف أن هذا الإدراك يساعد حين يتعلق الامر بالصعوبة العملية في السيطرة على الغضب. ولم أجد سبيلاً لوضعه موضع التطبيق في الظروف الحالية، وإن لم أتخلّ بعد عن المحاولة.

عدت عصراً من اجتماع محبط في الكنيسة - لم يأت سوى قلة من الناس، ولم ينجز سوى القليل جداً. يثقل على كاهلي هذا النوع من الأمور. فأخذت قيلولة حتى ما بعد العشاء. كانت الظلمة قد هبطت حين صحوت ووجدت المنزل فارغاً فخرجت إلى الشرفة، حيث كنتَ ووالدتك جالسين على الأرجوحة، وقد تدثّرتما بلحاف. قالت: «قد تكون هذه آخر ليلة معتدلة الجوّ». ثم أفسحت لي في المجال بجانبها وبسطت اللحاف على حضني وألقت رأسها على كتفي. كان ذلك كأروع ما يكون. هذا الصيف زرعت ما تسميه حديقة البوم خاصتها، وأنا البوم المعنيّ. وكانت قد قرأت في مكان ما أن الزهور البيضاء هي الأكثر ضوعاً خلال الليل، فزرعت على امتداد الممشى الأمامي شتى

أنواع الزهور البيضاء التي خطرت لها ببال. ولم يبق الآن سوى بعض الورود وزهر الأليس والبطّونية.

جلسنا هناك في العتمة لبعض الوقت، وأنت تترنّح بين الصحو والنوم، في حين تمسّد والدتك شعرك. ثم سمعنا صوت خطوات آتية. ومثلما ظننت كان هذا جاك بوتون. أظن أنه قصد إلقاء تحية المساء علينا والمضي في شأنه، لكنّ والدتك دعته إلى المكوث قليلاً، فاستجاب لدعوتها. دخل البوابة وجلس على درجات السلم. لاحظت أنه مطيع تماماً تجاهها.

قالت: «كنا نستمتع بالسكينة».

قال: «ليس من مكان أفضل من هذا في العالم لذلك». ثم كأنه خشي أن يساء فهمه أو أن يتسبّب بأي إزعاج، قال: «من الجيد العودة لبعض الوقت، هناك أناس هنا لا يعرفونني لا يعرفونني مطلقاً. هذا رائع».

ثم وضع يده على وجهه، على عينيه. كانت عتمة لكنني لاحظت الإيماءة. فهو يقوم بها طوال حياتها.

قلت: «لقد كانت عودتك مصدر سعادة كبيرة لوالدك».

قال: «هذا الرجل قدّيس».

«ربما هذا صحيح، ومع ذلك كان من اللطف منك المجيء».

قال: «آه»، كما يقول امرؤ حين ينفتح شق تحت قدميه.

ساد صمت لبعض الوقت، ثم وقفت والدتك وحملتك إلى السرير.

قلت: «سررت برؤيتك». وذلك بالفعل كرمى لبوتون العجوز.

لم يرد على ذلك.

«أقول هذا بكلّ صدق».

مدّ رجليه ومال إلى الخلف على عامود الشرفة.

قال: «لا شكّ عندي».

«أقسم على رزمة من الأناجيل».

ضحك: «ما مدى ارتفاعها؟».

«نحو ذراع».

«أظن أن هذا يفي بالغرض».

«هل يريح بالك ذراعان؟».

«كلياً». ثم، متذكراً التصرّف بتهذيب «سررت برؤيتك مجدداً، والتعرف إلى زوجتك وعائلتك».

ثم صمتنا لوقت.

قلت: «أعجبني فعلاً أنك تعرف كارل بارث».

قال: «آه، من وقت لآخر ما زلت أحاول تفكيك الشيفرة».

قلت: «حسناً، أقدّر عنادك»؟

قال: «قد لا تفعل إذا فهمت دوافعي».

من بين كلّ البشر ربما يكون أصعب شخص تمكن إجراء محادثة معه.

فقلت «لا بأس بذلك، أقدّر ذلك في كلّ الأحوال».

فقال: «أشكرك».

وغرقنا في الصمت من جديد. خرجت والدتك حاملة إبريقاً من

عصير التفاح الساخن والفناجين، وجلست هناك بصمت، تلك المرأة الغالية. وأمضيت الوقت مفكّراً كيف كان سيكون الأمر لو أن جاك بوتون هو ابني الحقيقي، وقد عاد إلى البيت سئماً من الحياة التي كان يعيشها، أياً كانت تلك الحياة، وها هو جالس هناك بسكون وتبدو عليه الدعة في ليلة وادعة كهذه. أشعرتني هذه الفكرة برضى غامر. كانت فكرة الرحمة تسكن تفكيري، الرحمة أو نوع من النار الرقيقة التي تعيد الأمور إلى جوهرها. هناك في العتمة والسكون شعرت أنني أستطيع نسيان جميع التفاصيل المملة وأن أشعر فقط بحضور كينتونته الفانية والخالدة. وسيطر عليّ إحساس ما، نوع من الخوف المحبّب، جعلني أفكّر بخوف بوتون من الملائكة.

الآن، ربما كنت صرت نصف غاف عند هذا الحدّ، لكن طرأت ببالي فكرة وبقيت معي. تمنيت لو أمكنني الجلوس عند قدمي تلك النفس الخالدة والتعلّم منها. بدا لي حينذاك بالفعل ملاك نفسه، وقد تفكّر في الألغاز التي ترسمها حياته الفانية، ما في أعماق ذات الإنسان. وبالطبع هذه ماهيته بالضبط. «فمن من الناس يعرف ما في الإنسان غير الذي فيه؟»[1]. بكلّ طريقة من الطرق نحن أسرار منفصلة عن بعضنا، وأظن فعلاً أنَّ هناك لغة قائمة بذاتها في كلّ واحد منا، وأيضاً جماليات وقوانين قائمة بذاتها. كلّ واحد منا هو حضارة صغيرة بنيت فوق خرائب ما لا يحصى من الحضارات البائدة، لكن لكلّ واحد منا آراءه المختلفة عما هو جميل وعما هو مقبول - الذي أتعجّل إلى إضافة أننا لا نشبعها

(1) رسالة كورنثوس الأولى، 2: 12.

ونكابد للعيش بها. نعتبر التشابهات الواقعة صدفة بيننا على أنها شبه فعلي، لأن أولئك المحيطين بنا سقطوا ورثة للعادات نفسها، ويتعاملون بالعملة نفسها، والمعرفة نفسها بهذا القدر أو ذاك، والمفاهيم نفسها عن النزاهة والمنطق السليم. هذا كله يتيح لنا فحسب التعايش مع الأسوار المنيعة التي لا تخترق في ما بيننا.

ربما يجدر بي أن أقول إننا كالكواكب. لكن عندئذ كنت سأفوّت بعض ما أريد قوله بتشبيهنا بالحضارات. قد تبدو الكواكب كلها مطروحة من النجم نفسه، لكنّ البعد التاريخي مفقود في هذا التشبيه، وصحيح أننا جميعاً نعيش حقاً في خرائب حيوات أجيال سابقة، فهناك ما يبدو استمرارية، وهي مهمة، لأنها تضللنا. وقد أوغلت في العمر بما فيه الكفاية لأتذكر حين كنا نخرج إلى الأجمات، كثر منا، وننتشر في دائرة ثم نضيّقها تدريجياً، مخيفين الأرانب أمامنا، حتى تعلق في الوسط، ثم نقوم بقتلها بالعصي والهراوات. كان هذا خلال الكساد، وكان الناس جائعين، وفعلنا كلّ ما في متناول أيدينا لكي نعيش. لا أجد خطأً في ذلك (لم نأخذ الأرانب الوحشية بل فقط قطنية الذيل. كنت أعرف أنَّ ثمة بعض الاعتراض على صيد الأرانب الوحشية لكنّ أحداً لم يأت على ذكره). كان هناك من يأكلون المرموط. وكان الأطفال يذهبون إلى المدارس وسلال طعامهم خاوية إلا من البطاطا المسلوقة وشريحة خبز مسحت بدهن اللحم. في تلك الأيام كان الغبار يتكوّم على نوافذ الكنيسة إلى درجة كنت أضطر عندها إلى تسلّق سلّم حاملاً مكنسة لكي أمسحه فيدخل ضوء كاف يمكّن الناس من قراءة تراتيلهم.

كانت أوقاتاً رهيبة، لكننا عشناها وتعودناها كثيراً. كانت تلك حضارتنا. وادي ظلماتنا[1]. أو ربما أورنا[2] الكلدانية التي بات الجميع في أيامنا يعرف بشأنها. وعلى هذا أحمد الربّ مع ذلك، إذ بما أنه كان مقدراً حدوث الكساد لست بآسف على أنني عشته. فقد منحني هذا نظرة أخرى إلى الأمور. سمعت أناساً يقولون إن ذلك الزمن علّمهم بأن في الحياة ما هو أهم من الأمان والراحة المادية، لكنني أعرف كباراً في السّن هنا بالكاد يتحمّلون مفارقة نيكل، إذ ما زالت ذكرى تلك الأيام مقيمة فيهم. ولا يسعني لومهم على ذلك، وإن عنى أن الكنيسة بدأت الآن فحسب تخرج من كسادها الخاص. «ربّ مبذّر يزداد ماله ومقتصد فوق الحدّ لا تكون عاقبته إلا الفاقة»[3]. وثمة الكثير في هذه البلدة مما يثبت حقيقة هذا المثل. حسناً، الكنيسة متهدّمة للسبب عينه الذي يجعلها ما زالت واقفة في المقام الأول، فإذن لا يجدر بي أن أتذمّر. ولا بأس بأن يعرف المرء معنى أن يكون فقيراً، ويحسن أن يفعل ذلك مع آخرين.

أظنّ أنهما حسباني غفوت، كما أفعل عادة. فشرعا بالحديث. قالت

(1) المزامير، 23: 4، «وإني لو سرت في وادي الظلمات لا أخاف سوءاً لأنك معي...».
(2) أور، مدينة سومرية كانت عاصمة للسومريين عام 2100 قبل الميلاد، هي اليوم موقع أثري، وهي من أقدم الحضارات وقد ولد بها إبراهيم أبو الأنبياء.
(3) الأمثال، 11: 24.

والدتك، بصوت خفيض: «أعزمت أمرك كم ستبقى هنا؟».
قال: «أخشى أنني ربما أطلت المكوث، وإن ليس بالنسبة إلي».

ساد صمت ثم قالت: «وستعود إلى سانت لويس؟».

«هذا وارد».

صمت آخر. أشعل عود ثقاب. شممت دخان سيجارته.

«أترغبين في واحدة؟».

ضحكت: «لا، شكراً لك، بالتأكيد أرغب في واحدة، لكن هذا ليس من شيم زوجة واعِظ».

«ليس لائقاً فحسب! أظنّ أنهم كانوا في أعقابك».

«لا أمانع، على أحدهم أن يخبرني بضعة أمور آجلاً أم عاجلاً. الآن كنت محتشمة منذ زمن طويل إلى درجة أنني بدأت أحبّ ذلك».

ضحك.

قالت: «لقد تطلبني الأمر وقتاً حتى اعتدت على هذا المكان».

«حسناً، بالنسبة إليّ المشكلة لا تكمن هنا. فالمكان أليف فعلاً. لكنه أشبه بالعودة إلى موقع الجريمة».

بعد برهة قالت: «الجميع يتكلم عنك بلطف شديد، كما تعرف».

«أحقاً؟ هذا مثير للاهتمام. أعتقد أنني أصدّقك».

ضحكت: «لم أكذب منذ سنوات».

«إمممم... هذا يبدو متعباً».

«يقال إنه يمكنك تعوُّد كلّ شيء».

قال: «ألم يحذّرك الموقّر مني؟».

أمسكت يديّ بين يديها الدافئتين: «إنه لا يتكلم إلا بالحسنى، لا يفعل ذلك قطّ».

ساد صمت. كنت غير مرتاح مع نفسي، كما يمكنك أن تتصوّر، وكنت على وشك إظهار بعض الإشارات على الحراك، فقط لكيّ أحرّر نفسي من هذا الوضع المشين - الشبيه بالتنصّت - الذي وضعت نفسي فيه.

لكنّ والدتك قالت: « كنتُ مرة في سانت لويس. بعضنا ذهبن إلى هناك بحثاً عن عمل». ضحكت «دون أن يحالفنا الحظ».

قال: «إنه مكان بائس ليكون المرء مفلساً فيه».

«إذا كان من مكان جيد لذلك، فبالتأكيد لم أجده. وقد طرقت جميع الأمكنة».

ضحكا.

قال: «حين كنت شاباً كنت أظن أن الحياة المستقرة هي ما يحصل لك ما لم تأخذ جانب الحذر».

قالت: «لطالما عرفت أفضل من هذا. وكان هذا جلّ ما أريده. كنت أنظر من خلال نوافذ الناس ليلاً وأتساءل كيف هي الحياة هناك».

ضحك. «هكذا أنوي أن أمضي هذه الأمسية بالذات».

صمتا.

قالت بصوت رقيق جداً: «حسناً، حسناً يا جاك بورك قلبك».

وقال: «عجباً، أشكرك على هذا يا ليلى». ثم نهض «انقلي تحياتي المسائية للموقّر». ومضى.

بقيت مستيقظاً طوال الليل، ما عدا الجزء منه الذي أمضيته جالساً إلى مكتبي، كاتباً هذا كله، ومفكّراً. بالطبع تأثّرت باعتداد والدتك بأنني أتجنّب ذكر الناس بالسوء. وهذا أمر أحاول فعلاً تجنّبه، وإن كنتَ تعرف جيداً كم كان ذلك شاقاً عليّ في هذه الحالة.

لكنني لم أستطع سوى الشعور بالصدمة حيال ذهول بوتون الصغير من أنني – بحسب كلماته – لم أحذرها بعد منه. بدا كأنه يحسبني متراخياً حيال الأمر. ومن يمكن أن يكون حكماً أفضل منه في ذلك؟ لعله يظنّ أنني أعرف أشياء لا يعرفها، ظاناً أن بوتون أسرّ لي أشياء أكثر مما فعل حقاً. أو أن الكلام عنه قد بلغ مسامعي، مثلما حدث فعلاً إنما في أوقات نادرة. لطالما توقعت من الناس قدراً كبيراً من اللباقة عندما يتعلّق الأمر به.

«موقع الجريمة»، تلك كانت دعابة، إنني واثق من ذلك. لكن هذا الكلام يدفعني فعلاً إلى التساؤل عن أن حجم الإلغاز الذي أشعر به تجاهه متأت من حقيقة أنه موجود هنا، حيث استمرّت أشياء قد تتسبّب له بالمعاناة وربما بالخزي.

أتمنى لو يمكنني أن أضع يدي على جبينه وأمحو كلّ الشعور بالذنب والأسف الذي بالغ به أو أحله في غير محله، أو ما يتجاوز الإصلاح بمعايير عالمنا هذا. وعندئذ يمكنني أن أرى ما الذي أتعامل معه فعلياً.

من الناحية اللاهوتية، هذه فكرة غير مقبولة كلياً. لكنها خطرت ببالي فحسب. وأعتذر عنها.

بما أنني أحاول قول الحقيقة، فهناك أمر إضافي. فقد زالت حدّة صوته لمّا تكلم مع والدتك. وأكاد أقول إنه بدا مسترخياً. بدا كشخص يتكلم إلى صديق. وهي كذلك.

أعتقد أنني بدأت أرى أين النعمة[1] لي في هذا. لقد صليت كثيراً، ونمت مدة أيضاً، وأظن أنني بدأت أصل إلى بعض الوضوح.
لم أذهب قطّ إلى سانت لويس وهذه حقيقة أندم عليها الآن.

راجعت ما كتبت في هذه الصفحات، وأدركت أنني كنت– منذ بعض الوقت – أتسبّب بالقلق لنفسي، في حين كانت نيتي منذ البداية أن أتكلّم إليك. قصدت أن أترك لك شهادة صريحة إلى حدّ معقول عن ذاتي الفضلى، ويبدو لي الآن أن ما تراه هنا ليس إلا رجلاً هرماً يكابد مشقات فهم ما الذي يكابده.
أظن أنني وجدت سبيلاً للخروج من كهف الانهمام السقيم هذا. وهو يستحق المحاولة. إذن:

(1) Grace: هنا، كما في كل مكان تذكر فيه، هي نعمة الرب، «تكفيك نعمتي، في الضعف يظهر كمال قوتي» (رسالة كورنثوس الثانية، 12: 9).

حين كنت جالساً هناك على الشرفة ليلة أمس مدعياً النوم واحتضنت والدتك يدي بين يديها، كانت تلك سعادة كبيرة لي. أظن أنني أشرت إلى هذا، «يديها الدافئتين»، ولاحظت أنها في الوقت نفسه تحدثت عني بلطف أكبر مما أستحق. فقط إذ أتذكر ذلك أدرك أنها كانت تتكلم إنما انطلاقاً من الحياة المستقرة التي قالت إنها لطالما حلمت بها، وكأنها لن تخسرها البتة وإن كانت تعرف بكل المعاني العملية والمادية أنها ستخسرها. وقد أغبطني ذلك أيضاً. حين تذكرت كلامهما عن النظر إلى النوافذ والتساؤل عن حيوات الآخرين جعلني أشعر بالألفة تجاههما. شعرت أننا نتشارك في هذا الشعور، لأنني وكما يعلم الربّ طوال سنوات فعلت بالضبط الأمر نفسه. لكن في تلك اللحظة، بدا من الطريقة التي تكلمت بها، أن جميع التساؤلات المتعلقة بالحياة قد أجيب عنها، مرة واحدة وإلى الأبد، وإذا صحّ ذلك فهو رائع. هذه الفكرة هي مصدر سلام داخلي لي.

حلمت مرة أنني وبوتون عند النهر نبحث في المياه الضحلة عن شيء ما – حين كنا أطفالاً كان هذا الشيء سيكون الشراغيف[1] – وبرز جدي من بين الأشجار بالطريقة الرهيبة التي عرف بها، وملأ قبعته بالمياه ورماها، فجاءت صفحة من الماء نحونا، تطير في الهواء كالحجاب، وسقطت علينا. ثم أعاد قبعته إلى رأسه وعاد إلى الأشجار مجدداً وتركنا

(1) صغار الضفادع.

واقفين هناك في ذلك النهر المترقرق، مذهولين من ذاتينا ملتمعين بالمياه كالرسل. أذكر هذا لأن تحولات بمثل هذه الفجائية تحصل في الحياة، وتحصل دون أن يسعى إليها المرء أو ينتظرها، وهي تتوسّل آمالك ورغباتك. وقد تذكرت هذا في معرض تفكيري في اليوم الذي رأيت فيه والدتك للمرة الأولى يوم عيد العنصرة المبارك الماطر.

كانت صبيحة ذلك اليوم بداية شيء شعرت معه كأن نفسي تستدعى الخروج من جسدي، وهذه حقيقة. لم أخبرك كيف حصلت المسألة برمتها، وكيف تزوجنا. وصدقني لقد تعلمت الكثير من هذه التجربة. فمجرد معرفتي أن مثل هذا التحول ممكن الحدوث وسّع من حدود فهمي للأمل، وأسبغ عذوبة على صورتي عن الموت، أياً يكن مبلغ الغرابة في مثل هذا الإحساس.

وعلى الرغم من أنني قلت لنفسي إنني بالكاد لاحظت وجودها صبيحة ذلك اليوم، فقد أمضيت الأسبوع التالي برمته أترقّب عودتها. وقد وبّخت نفسي كثيراً لسماحي لنفسي بسؤالها عن اسمها وهي تخرج من الباب، مفكراً في ذلك بمعايير التزامي تجاه «القطيع الشارد»، و«النفوس الضائعة»، وهي تعبيرات لا أستعملها قطّ، حتى بيني وبين نفسي، والتي بالتأكيد ما كنت لأطبّقها عليها. وقد كان أحد النواحي المثيرة للاهتمام في التجربة برمتها أنني لم أستطع ببساطة أن أكون صادقاً مع نفسي، ولا أن أخدع نفسي أيضاً. وكان ذلك رهيباً. شعرت بأنني مغفّل. لكن كما ترى، كنت أدرك شبابها وشيخوختي، ولم أكن أعرف شيئاً عنها، وسواء أكانت متزوجة أم لا. فلم أستطع الاعتراف لنفسي

أنني ببساطة راغب في رؤيتها وسماع صوتها ثانية. قالت «صباح الخير أيها الموقر»، وكان هذا كلّ شيء. لكنني أتذكّر محاولتي استعادة صوتها، سماعه ثانية في رأسي.

سأقول لك، لو رمى جدي عباءته عليّ فعلاً، إذا جاز التعبير، فقد فعل ذلك قبل وقت طويل من مجيئي إلى هذا العالم. فقد أسبغت قداسة حياته قداسة ما على حياتي، أو إلى عملي، وقد حاولت أن أبدّدها أقلّ ما يمكنني من التبديد. حاولت الحرص على سمعتي وعلى شخصيتي كذلك. حاولت إبقاء الكتاب المقدس نصب عينيّ كمعيار لحياتي ودعوتي. ومع ذلك ها أنا ذا أحاول كتابة عظة، في حين كلّ ما أردت فعله هو أن أحاول تذكّر وجه امرأة شابة.

لو أنني مررت بهذه التجربة قبلاً في حياتي، لكنت أكثر حكمة بكثير، أكثر عطفاً بكثير. لا افهم حقاً ما هذا الذي يجعل الناس يأتون إليّ غير مكترثين البتة للحكم السليم وللمنطق، أو لماذا يقولون «أعرف، أعرف»، حين أحثّهم على أن يكونوا منطقيين بعض الشيء، ولماذا عنى ذلك «لا يهم، لا يهمني فحسب». هذا ما يقوله القدّيسون والشهداء. وأعرف الآن أنه الشغف ما يجعلهم مسرفين في نكران الذات. قد يبدو أنني أقارن شيئاً عظيماً ومقدّساً بشيء صغير واعتيادي، أي حب الله، مع الحب الفاني. لكنني ببساطة لا أراهما كشيئين منفصلين على الإطلاق. إذا كان يمكن أن نقتات من كسرة خبز، ونبارك بلمسة، فعندئذ قد تؤشّر لنا اللذة الرهيبة التي نجدها في وجه معين على طبيعة هذا الحب العظيم. أعتقد بكلّ إخلاص أن هذا صحيح. أتذكّر في تلك الأيام حبي للرب

بسبب وجود الحب وشكري الرَّب على وجود الشكر، في أعماق بؤسي. أدركت أموراً كثيرة لا أجدني قادراً على التعبير عنها جميعاً. وبالطبع هذه المشاعر باتت أقلّ حِدَّة مع الوقت، وهذه نعمة.

كان زواجي بلويزا محسوماً منذ الطفولة. فلم يحضّرني شيء لأن أجد نفسي أفكّر ليل نهار بغريبة بالكامل، امرأة تصغرني سناً بكثير، وربما امرأة متزوجة أيضاً - كانت تلك المرة الأولى في حياتي التي شعرت أنه يمكن أن أنتزع من شخصيتي، ومن ندائي ومن سمعتي، كأنها جميعاً يمكن أن تتداعى كقشة جافة. لم أشعر قبلاً أنَّ كلّ شيء كنت أشعر أنه يكونني، ليس إلا الرداء الذي يكسوني والكتب على رفوفي والروزنامة المليئة بالواجبات التي عليّ القيام بها. كما أسلفت، كان شعوراً مسبقاً بالموت، على الأقل بالاحتضار. ولماذا يجب أن يبدو ذلك غريباً؟ ذلك أن «الهوى»[1]، هي الكلمة التي نستعملها في نهاية المطاف.

حسناً، تفاقمت الأمور أكثر من ذلك بكثير. صارت تجيء كل يوم أحد بعد ذلك، ما عدا يوم واحد، وأنا كتبت كلّ تلك العظات، أعترف، وفي بالي إرضاؤها ونيل إعجابها. كابدت كثيراً لكي لا أكثر من النظر إليها أو لكي لا أطيل النظر إليها، لكنني مع ذلك كنت أقنع نفسي بأنني رأيت خيبة أمل معينة على وجهها، ثم أمضي الأسبوع التالي مصلياً، جاثياً على ركبتي، لكي تمنحني فرصة أخرى. شعرت بأنني في غاية السخف. لكنني دعوت الله أن يمدّني بالقوة للقيام بأعباء مسؤولياتي الرعوية، ولم تكن كلمة مما قلته صادقة، لأنني كنت مجرد رجل هرم

(1) Passion: تعني آلام المسيح وفي الوقت نفسه الشغف أو الهوى أو العاطفة.

أخرق يطلب من القدير أن يتساهل مع حماقته وعرفت ذلك في حينه. وقد استجيبت صلواتي أبعد من كلّ ما فكّرت في طلبه. زوجة، وطفل، لم أكن لأُصدِّق ذلك البتة.

كان هناك يوم الأحد الرهيب ذاك الذي لم تأت فيه. كم كان ذلك الصباح حزيناً وميتاً، وكم بدونا جميعاً رثاثاً كالأمتعة الرديئة، والكنيسة أيضاً. بالطبع كانت عظتي في ذلك اليوم عن ضيافة الغريب «لأن بها أضاف بعضهم الملائكة وهم لا يدرون»[1]. كرهت قراءة العظة. شعرت أن جميع الحاضرين يعرفون أنني أقف هناك معترفاً بحماقتي. بدا محتماً لي أنها لن تعود ثانية. فأمضيت أسبوعاً رهيباً مستسلماً لضآلة حياتي وكآبتها، حامداً الرب أنني لم أجعل من نفسي معتوهاً بالكامل ولم أستوقفها عند الباب وأسعى إلى الحديث معها، مع أنني تمرَّنت في عقلي على ما سأقوله لها وحتى أنني كتبته. يجب أن أقول أيضاً إنني كرهت نفسي على حماقتي لعدم استيقافها والتحدّث معها. أمضيت ذلك الأسبوع محاولاً إقناع نفسي وصف الذي جذبني إليها بتلك القوة - مفكراً أنه ربما لأنني لم أستطع التكلُّم إليها، فإن الانجذاب سيزول. وأمضيت الأسبوع أفتقدها، كأنها الصديق الوحيد لي على هذه الأرض. (كما فكرت بعض الشيء بتلك المشكلة العملية المتعلقة بمعرفة اسمها ومكان إقامتها، مفكّراً في التحجّج بحجج بحجج القساوسة. يا للإذلال).

الأحد التالي رأيتها هناك. شعرت بالبؤس من فرط الراحة،

(1) رسالة إلى العبرانيين، 13: 2.

وخشيت أن تنمّ عني ضحكة بلا سبب، خائفاً من أن أنظر إليها أكثر من اللازم، محاولاً تذكير نفسي بأنها غريبة، وإن كانت الفكرة الأغلى والأكثر حميمية طوال أسابيع، وأنني لا يجب أن أجفلها مني بقرب غير محسوب. كنت قد ذهبت إلى الحلاق وارتديت قميصاً جديداً، إذ شعرت أنه من الحصافة فحسب افتراض أن أي صلوات شغوفة وثابتة وغير ذات بال، من صلواتي، يمكن أن تستجاب. وقد قمت ببعض الاختبارات مع مقوّي الشعر الخاص بي. لاقاني بوتون على الطريق كما كان يفعل غالباً في تلك الأيام ونظر إليّ وضحك، وفكرت يا لغبائي الصارخ.

حين غادرت الكنيسة ذلك اليوم أمسكت يدها فعلاً وقلت بضع كلمات «افتقدناك الأسبوع الفائت، يسرنا أن نراك بيننا ثانية».

«آه»، قالت، وتضرّج وجهها ومضت مبتعدة، وكأنها فوجئت بلطفي معها، وإن كان اللطف الأكثر كنسية وروتينية، وهو كلّ ما شعرت أنني أستطيع السماح لنفسي به في مثل هذه الظروف.

«أنا مريض من الحب»[1]، هذا من الكتاب المقدّس. يضحكني أن أتذكر أنني لجأت إلى الكتاب المقدَّس في محنتي تلك، كما أفعل دائماً. وكان النص الذي اخترته نشيد الأنشاد! لعلي عرفت منه أن محناً كمحنتي

(1) نشيد الأنشاد، 2: 5، «أسندوني بأقراص الزبيب، أعينوني بعصير التفاح، فأنا مريضة من الحب».

كانت جميلة بعين الرب، لو كنت أصغر سناً ولو علمت أن والدتك لم تكن متزوجة. كما كان الأمر، فإن روعة القصائد قد آذت مشاعري فحسب.

آه، لكن في الأسبوع التالي أوقفتها وقلت لها إنَّ لدينا درس درساً في الكتاب المقدَّس ليلة الأحد وإننا نرحّب بحضورها. ثم ذهبت إلى البيت ودعوت الرَّب أن تأتي حيلتي بنتيجة، وحلقت ثانية، وحاولت أن أقرأ حتى المساء. ذهبت مبكراً إلى الكنيسة، وإذا بها هناك تنتظرني عند الدرج، آملة بأن تتبادل معي كلمة. عند هذه النقطة بدأت أشك مثلما أفعل من حين لآخر، بأن النعمة الإلهية تضمر سخرية كبيرة في ذلك. وقد أسرّت لهذا العجوز (الهرم) التافه المضمّخ بالعطور أنها جاءت إليّ تطلب المعمودية.

«لم يحرص أحد على تعميدي في طفولتي، وقد كنت أشعر بالافتقار لها»، وكم بدا وجهها حزيناً طاهراً.

قلت: «حسناً يا عزيزتي سنهتم بك»، وعندئذ سألتها بصورة اعتيادية ما إذا كانت لديها عائلة في المنطقة.

هزّت رأسها وقالت بنعومة شديدة: «ليس لديّ عائلة على الإطلاق». شعرت بحزن شديد من أجلها، ومع ذلك، في قلبي البائس، حمدت الربّ على ذلك.

وهكذا علمت والدتك مبادئ العقيدة، وفي الوقت المناسب قمت

بتعميدها، وبت معتاداً بغبطة على رؤيتها، على حضورها الصامت، وبدأت أحمد الرب لأنني عشت أسوأ مراحل شغفي دون أن أتسبب بالدمار لسمعتي الطيبة، دون الجري خلفها في الشارع، كما كدت أفعل ذات مرة حين رأيتها تخرج من متجر بقالة وتمضي مبتعدة. وقد أخفت نفسي أشدّ الخوف حينذاك إلى درجة أنَّ العرق بدأ يتفصّد مني. إلى هذا الحدّ كانت مشاعري قوية. وكنت في السابعة والستين. لكنني تعاملت دائماً بكل احترام تجاه شبابها ووحدتها، هذا أؤكده لك. وقد حرصت أشدّ الحرص على ذلك. فكّرت بأنه من الأفضل لي تجنيد بعض ألطف النسوة المسنّات لمرافقتها خلال تعليمها الديني، وأظن أن هذا جعلها خجلة من التكلُّم، وهو ما أسفتُ له كثيراً.
كان هناك امرأتان أو ثلاث ممن يصرحن بآراء معلنة حول نقاط معينة في العقيدة، لاسيما في ما خص الخطيئة واللعنة، التي لم يتعلمنها مني. ألوم المذياع على بثّ الكثير من الاضطراب في المسائل اللاهوتية. والتلفاز أشدُّ سوءاً. يمكنك أن تمضي أربعين عاماً وأنت تعلم الناس بأن يكونوا يقظين حول حقيقة اللغز ثم يأتي أحدهم لا يملك من الوعي اللاهوتي أكثر من أرنب وحشي، ويجعل نفسه كاهناً إذاعياً وعندئذ يغدو كلّ ما قمت به في طيّ النسيان. أتساءل أين سينتهي هذا كله.

ولكن حتى هذا كان للأفضل، لأن إحدى السيدات، فيدا داير، تحمست كثيراً في الحديث عن النيران أي الجحيم، فشعرت أنني مجبر

على إحضار كتاب «تأسيس الديانة المسيحية»[1] وأن أقرأ لهن الفقرة المتعلقة بالهلاك، وكيف أن عذابات الهالكين «يعبّر عنها من قبلنا بالأشياء الفيزيائية»، النار التي لا تنطفئ وما إلى ذلك والتي تعبّر «عن شدّة بؤس الخروج من صحبة الرب». كانت الفقرة أمامي. وهي مقلقة بالتأكيد، لكنها ليست سخيفة، قلت لهنّ، إذا أردتنّ التعرف على حقيقة الجحيم لا تضعن أيديكن فوق شمعة تشتعل، بل تأملن فقط أكثر الأمكنة إقفاراً وشراً في نفوسكن.

وقد انغمسن جميعاً بالتأمل لبعض الوقت، وأنا أيضاً، مصغياً إلى زفيف الرياح الليلية وصرير الجداجد. وكدت أغتمّ من فكرة الوحشة الممتدة أمامي ومرارتها المتجدّدة، وكم كنت أكره السرية ونكران الذات اللذين تتطلبهما النزاهة مني ويفرضهما عليّ المنطق السليم. لكن حين رفعت رأسي رأيت والدتك تنظر إليّ وقد ارتسم على وجهها طيف ابتسامة، ولمست يدي وقالت «ستكون على ما يرام».

كم كان صوتها رقيقاً. أن يكون هنالك مثل هذا الصوت في هذا العالم، وأن أكون من يسمعه، بدا لي عندئذ ويبدو لي الآن، نعمة بالغة الغموض.

باتت ترافق نسوة أخريات إلى منزلي، لكي يأخذن الستائر للغسيل، ولكي يزلن الثلج من صندوق الثلج. ثم صارت تأتي بمفردها لكي تعتني بالحديقة. وقد جعلتها رائعة مزدهرة. وذات مساء حين رأيتها في الخارج بين الورود الرائعة، قلت لها: «كيف لي أن أسدّد لك عن

(1) كتاب جان كالفن المعروف.

تعبك هذا؟».

فقالت: «يجدر بك أن تتزوجني». وتزوّجتها.

إليك فكرتي: لو قُدِّرَ لي أن أضع يدي على جبينها وأباركها بصفاء بوصفي خادماً كليّاً للرب، لرغبت في أن يكون لها التجربة ذاتها، تماما كتلك التي أتمناها لنفسي. آه، أعرف أنها تحبني وأنها شديدة الوفاء. لكنني أملت أحياناً بأن يجفلها نشيد الأنشاد، وكأنه يخرج من قلبها هي. لا يمكنني إقناع نفسي حقاً بأن مشاعرها كانت مثل مشاعري. ولماذا أقلق إلى هذا الحدّ بشأن جاك بوتون؟ الحبّ مقدس لأنه مثل النعمة الإلهية؛ ليست قيمة موضوعها هي المهمة قطّ. وقد أتركها لتتمتع بسعادة أكبر مما منحتها لها، مع التسليم بكل الصعوبات. أحياناً أفكر بأنني بدأت أرى بدايات ذلك فيها. إذا كان الرب قد تركني مؤقتاً شاهداً على نعمة يضمرها لها، فسأجد في هذا فضلاً عظيماً تجاه نفسي.

أطلّ فجر رائع فوق بيتنا في طريقه إلى كنساس، تلك التي أفاقت على شعاع شمس جذل انتشر في سمائها؛ يوم آخر من الأيام المحدودة التي تُسمّى فيها هذه البرية القديمة كنساس أو آيوا. لكنه كله يوم واحد؛ اليوم الأول. الضوء ثابت، ونحن نتقلّب فيه فحسب. فكلّ يوم هو في الحقيقة المساء نفسه والصباح نفسه. غمر الضوء قبر جدي، ورائعاً كان

الندى على رقعة فنائه الصغيرة المعشوشبة.

«كنت في عدن جنّة الله، كلّ حجر كريم ستارتك، عقيق أحمر وياقوت أصفر... «. (سفر حزقيال، 28: 13).

بينما أفكّر في الأمر، لعلك حين تغدو هرماً مثلي تفكّر في كتابة مذكراتك، على نحو ما أفعل. بحسب خبرتي، فإن العمر يجعل من الصعب أن يحافظ المرء على إحساسه بنفسه، وأقل صلابة بصورة ما.

لماذا أحب فكرة أن تبلغ سنّ الشيخوخة؟ ذلك الوخز الذي تشعر به في ركبتك جرّاء داء المفاصل هو شيء أتخيله بكل الرقة التي شعرت بها حين أريتني سنك المتخلخل. كن مجتهداً في صلواتك أيها الهرم. أتمنى أن ترى من العالم أكثر مما أتيح لي، ولست ألوم سوى نفسي على ذلك. وأتمنى أن تكون قد قرأت بعض كتبي. وليبارك الرب عينيك وسمعك أيضاً، وبالطبع قلبك. أتمنى لو يمكنني مساعدتك على حمل ثقل السنين. لكنّ الرب سيحظى بهذا الرضى الأبويّ.

كان هذا يوماً غريباً مقلقاً. مرّت بنا غلوري ودعتك ووالدتك إلى السينما. ثم حين جاءت لأخذكما، كان بوتون العجوز معها، وساعدته على النزول من السيارة عبر الممشى ثم درج الشرفة الخارجية. نادراً جداً ما يغادر منزله ولذا فقد فوجئت حقاً حين وجدته على باب منزلي. أجلسناه إلى طاولة المطبخ وقدّمنا له كوباً من الماء، ثم غادر ثلاثتهم. وقد بدا متعباً جراء مشقة المجيء، لأنه جلس هناك فحسب وقد ارتسم

تعبير ودود على وجهه وإنما مغمض العينين، متنحنحاً من وقت لآخر كأنه يفكّر بالتكلّم ثم يصرف النظر عن الأمر. وجدت شيئاً على المذياع وكانت تنمّ عنه ضحكة خافتة من حين لآخر حين يسمع شيئاً مثيراً للاهتمام. أظنّ أنه مكث نحو ساعة قبل أن يتكلم.

ثم قال: «أنت تعرف، أن جاك ليس متصالحاً مع نفسه بعد، ليس متصالحاً بعد»، وهزّ رأسه.

قلت: «لقد تكلمنا بهذا الخصوص».

قال بوتون: «آه، أجل إنه يتكلم، لكنه لم يخبرني البتة لماذا عاد إلى هنا. ولا أخبر غلوري أيضاً. كان يفترض به الحصول على عمل ما في سانت لويس. ولا أعرف ما الذي جرى بهذا الخصوص. ظننا أنه ربما كان متزوجاً. وأظن أنه كان كذلك، لبعض الوقت. لا أعرف ما الذي حصل بهذا الخصوص أيضاً. يبدو أنه لا يملك الكثير من المال. لا أعرف شيئاً عن الأمر. أعرف أنه يتكلم إليك وإلى السيدة آيمز، أعرف ذلك».

ثم أغمض عينيه ثانية. بدا التكلم شاقاً جداً عليه، وأظن أن ذلك بسبب كراهيته لقول ما قاله تواً. وقد اعتبرت هذا إنذاراً. لا أعرف طريقة أخرى للنظر إلى الأمر. واعتبرت مجيئه إلى منزلي كطريقة للتشديد على كلماته، كما حصل حقاً. وزاد ذلك من قناعتي بضرورة أن أتكلم إلى والدتك.

جاء بوتون الصغير عبر الشرفة عندما كنا ما زلنا هناك. دعوته إلى

الدخول وقدّمت له كرسياً، لكنه وقف بالباب لدقيقة أو اثنتين ناظراً إلينا مستخلصاً الاستنتاجات، والتي كانت قريبة من الواقع كما بدا لي من تعبيرات وجهه. يبدو دائماً مرتاباً من أنَّ الناس متحالفون ضده على نحو ما. ولا شكّ في صحة ذلك في أغلب الأوقات، كما كان صحيحاً في تلك اللحظة. وهناك عنصر من الإحباط والحرج في سلوكه، حين يلوح عليه ما هو أبعد من التظاهر، كما يحاول دوماً أن يفعل، وهذا يخجلني من كوني جزءاً من الأمر، وأشعر بالأسف من أجله أيضاً. هناك غضب كذلك، وهذا يخصني أنا.

قال جاك: «عدت إلى البيت ولم أجد أحداً. شعرت بالصدمة بعض الشيء».

قال بوتون بصوت ودّي ما زال قادراً على تجنيده كلما أراد أن يبدو صادقاً في ما يقول: «أعتذر يا جاك! أنا وآيمز كنا نعتني ببعضنا بعضاً عندما ذهبت النسوة إلى السينما! حسبناك ستتأخر أكثر من ذلك!».

قال: «حسناً، هذه ليست مشكلة». وجلس بعد أن دعوته مجدداً إلى ذلك، ناظراً إليّ وقد ارتسمت على وجهه شبه الابتسامة تلك التي يضعها على وجهه حين يريدك أن تعلم أنه يعرف ما الذي يجري حقاً ولا يصدق محاولتك الاستمرار في خداعه. بوتون غفا نوعاً ما في تلك اللحظة، كما يفعل عندما ينحو الحديث منحى صعباً، ولا يمكنني أن ألومه، وإن كان يجدر بي التفكير بمتاعب قلبي أيضاً. لأنه كان إجهاداً كبيراً عليّ التفكير في ما أقوله لجاك، مثلما كان الأمر دوماً، ومثلما سيبقى. أشعر بالشفقة عليه، وهذه حقيقة. بالنسبة إليّ تبدو قدرته على

اختراق الناس ومعرفة مكنوناتهم لعنة. بالطبع، لا يمكنني أن أكون صادقاً معه، فها أنا ذا أخادعه، وهو يحملق بي وكأنني أسوأ كذاب في العالم، كأنني أهينه، كما يفترض بي في حقيقة الأمر أن أفعل.

قلت: «شعر والدك بالحاجة إلى الخروج من البيت».

قال: «هذا مفهوم».

وفي الحقيقة كان هذا قولاً ساذجاً من الطرفين أخذاً في الاعتبار أن كل ما يستطيع بوتون فعله هو السير من سريره إلى كرسيه على الشرفة.

قلت: «أفترض أنه أراد الاستفادة من الطقس الجيد بينما (ما دام) ما زال موجوداً».

«أنا واثق من ذلك».

قلت بعد برهة: «حسناً، يا لها من سنة لأكواز الصنوبر!»، وكان هذا قولاً مثيراً للشفقة كلياً. وقد أضحك جاك فوراً.

قال: «وقد كثرت الغربان، وغدا القرع وافراً كبيراً، على ما أظن». وطوال ذلك الوقت كان ينظر إليّ وكأنه يقول لي فلنكن صادقين مع بعضنا بعضاً لخمس دقائق فحسب.

الآن، أعذر نفسي في هذا كوني لا أعرف ما هي الحقيقة. أنا أيضاً أعتقد أن أباه جاء إليّ لكي ينذرني منه، لكنني لست واثقاً كلياً من ذلك. وعلى أي حال، بالكاد يمكنني خيانة ثقة – ولاسيما ملتهبة وجارحة – كتلك الثقة، بالتأكيد ليس مع بوتون العجوز جالساً هناك على بعد ثلاثة أقدام عني، يصغي على الأرجح إلى الحديث برمته. لكن عدم الصدق هو عدم الصدق، ومن المذل أن يفتضح أمرك وأنت تقوم به، خاصة

حين لا يكون لديك خيار سوى الإصرار عليه، محاولاً إنقاذ قدر ما يمكنك منه، تحت عين السخط نفسه، إذا جاز التعبير.

من ناحية أخرى، أشعر بوصفي رجلا طاعناً في السّن - يكبرني والده بنحو سنتين على الرغم من نشاطي النسبي مقارنة به — أن لديّ الحق بألا يناكدني أحدهم على هذا النحو. إذا كان الغرض إغضابي، فإنني غاضب وأنا أكتب هذا. قلبي ينوي شيئاً ينذر جسدي برمته في حقيقة الأمر. أشعر بالحاجة إلى الصلاة. أتساءل ما الذي يعرفه عن حال قلبي.

حسناً، لابدّ من أنه يعرف الكثير عن حال قلبي، بما أن والدتك طلبت مساعدته في إنزال مكتبي إلى الأسفل.

حين أصلي حول هذه المسألة برمتها، فإن إحساساً بالحزن المقيم في بوتون الصغير يظلّ يراودني. إنه شخص يجب أن يغفر له إلى حدّ بعيد على أساس معاناته الغريبة هذه.

وحين عدتم أنتم الثلاثة، ولم يطل حدوث ذلك، غدت الأمور أفضل بكثير. بدت غلوري مجفلة قليلاً في البداية حين وجدت جاك عندي، لكنّ والدتك سرت برؤيته، حالها دائماً على ما أظن.

أحببتم الفيلم. طوبياس لا يسمح له بالذهاب إلى السينما فأحضرتم له تقريباً نصف علبة من البسكويت، وهو ما رأيته جيداً منك. أتساءل ما إذا ينبغي السماح لك بالذهاب إلى السينما. لكن بوجود التلفزيون

في البيت، يبدو أن لا جدوى من منع الأفلام. بالطبع طوبياس ممنوع عليه مشاهدة التلفزيون أيضاً. وعدت والدتك أمه بأن ننتبه إلى هذا الأمر كلما جاء لزيارتك الامر الذي يعني افتقادك إلى برنامج «سيسكو كيد»، أكثر مما تودّ ذلك. لستَ أكثر طفل اجتماعي في العالم، وأخشى قليلاً أنه إذا خيرت بين التلفزيون أو طوبياس فإن أعزّ أصدقاءك سينتهي به الأمر وحيداً. وعلى أيّ حال فهو يمضي الوقت بانتظارك على الشرفة أكثر مما ينبغي. من وقت لوقت بدوت مستوحشاً جداً لنا، ثم تعرفت إلى طوبياس كرفيق محترم، كاستجابة لصلواتنا، وصرت تتركه يجلس على الشرفة حتى انتهاء الرسوم المتحرّكة. لكنني لست ميالاً إلى الإكثار من الحظر هذه الأيام. والد طوبياس شاب. ولديه سنوات وسنوات مع أولاده بإذن الله.

إذن دخلتم أنتم الثلاثة مسرورين من أنفسكم تفوح منكم رائحة الفشار، وشعرت بالارتياح إلى حدّ كبير. ثم بعد حديث قصير ساعدت والدتك وغلوري بوتون على الخروج إلى السيارة وأخذتاه إلى البيت وهو المكان الوحيد الذي بات يجد فيه الراحة، ثم أعدا عشاء لنا جميعاً لنتناوله هناك. ذهبت لتجد طوبياس ولتتمكن من إفساد عقله اللوثري الصالح بالهراء عن المارشالات الفدراليين والبنادق[1]. وجلست هناك إلى المائدة مع جاك بوتون الذي لم ينبس بكلمة. فقد استغرقه بعض الوقت ليقرر المغادرة. ولم يعد إلى منزل والده للعشاء، ولم يأت أحد

(1) إشارة إلى برنامج Cico Kid، المقتبس عن عمل للكاتب أو هنري وكان من البرامج الرائجة في ذلك الحين.

على ذكر الموضوع، لكنني أعرف أن هذا أقلقنا جميعاً. مضت والدتك وغلوري في نزهة بعد تنظيف المائدة، لكي تستمتعا بالمساء، كما قالتا، لكن حين عادتا، قالت غلوري إنهما ذهبتا لرؤية جاك، وقال لهما إنه سيعود لاحقاً إلى البيت. أراهن أنهما وجداه في الحانة. لم تقولا أي تفاصيل ولم يسألهما بوتون عنها.

جاك بوتون لديه زوجة وطفل.

أراني صورتهما. سمح لي برؤيتها بصورة خاطفة ثم استعادها. شعرت ببعض الحيرة التي لابدّ من أنه كان يتوقعه، ومع ذلك أمكنني معرفة أنه تطلبه جهداً حتى لا يشعر بالانزعاج. فكما ترى، الزوجة امرأة ملونة. وهذا فاجأني حقاً.

كنت في الكنيسة صباح أمس، في مكتبي، أرتب بعض الأوراق القديمة، مفكراً أنني إذا وضعت جانباً الأوراق المهمة، السجلات الفعلية، فإنها لن تضيع مع المهملات. هناك صناديق كثيرة من المذكرات ومقالات المجلات والنشرات والفواتير. بدا كأنني لم أتخلص طوال حياتي من أيّ ورقة. أخشى أن كاهناً جديداً لن يكون صبوراً كفاية لكي يدقّق في كل هذه الأوراق، وسيكون الذنب ذنبي.

إذن، كنت هناك، تغطيني شباك العنكبوت؛ شاعراً ببعض القذارة، وبعض النكد، كارهاً أن يقاطعني أحدهم أيضاً، إذ أنني في أي وقت قد لا أعود أشعر بالقدرة على القيام بهذا النوع من الأمور. لم يكن قد مضى

على انخراطي به أكثر من نصف ساعة حتى بدأت أشعر بالتعب.

ثم دخل جاك بوتون، مجدداً يرتدي البزة وربطة العنق، ومجدداً حسن المظهر حليق الشعر، لكن يبدو منهكاً بعض الشيء، لاسيما حول العينين، باركه الربّ. شعرت بالاهتمام لرؤيته، أكثر مما شعرت بالرضى، أعترف بذلك. لم أستطع التكلم معه والغبار يعلو وجهي ويدي، فاستأذنت وذهبت للاغتسال وحين عدت وجدته ما زال واقفاً بالباب؛ نسيت أن أقدِّم له كرسياً، فظلّ واقفاً هناك فحسب. بدا شاحباً كلياً، وقد شعرت بالخجل من طيشي هذا. لكنه يخشى كثيراً أن يزعجني من حيث لا يحتسب أنه يلتزم بسلوك ينساه معظم الناس ما أن يتعلموه، وهذا يمكن أن يجعل الأمر يبدو وكأنه يقصد إشعاري بالخجل. هكذا شعرت على الأقل، وشعرت أن هذا غير عادل تجاهي.

ثم حين جلس مضيت لكي أرفع بعض الصناديق عن منضدتي فوقف وحمل واحداً من يدي، مما كان طيباً منه، لكنه ضايقني قليلاً أيضاً. أفضّل أن أسقط ميتاً وأنا أؤدّي أعمالي بنفسي على أن أمضي يوماً آخر في حياتي مدّعياً فيه العجز. حمل الصندوقين إلى الأرض، فاتسخت يداه وسترته، فأخرج منديلاً ومسح نفسه قليلاً. اقترحت أن نذهب إلى صحن الكنيسة، لكنه قال إنه لا بأس بالمكتب. فجلسنا هناك صامتين لبعض الوقت.

ثم قال: «لقد بقيت بعيداً عن هذه البلدة لمدّة طويلة. من باب الاحترام تجاه والدي بصورة أساسية. وكان يمكن ألا أرجع البتة».

سألته ما الذي دفعه إلى تغيير رأيه. فتطلبه الأمر وقتاً حتى يجيب.

«لأسباب عدة. شعرت أنني بحاجة إلى التكلّم إليه. أعني إلى والدي. ولكن على نحو ما حين وصلت إلى هنا لم أتوقّع أن أجده مسناً إلى هذا الحدّ».

«كانت السنوات الأخيرة القليلة شاقة جداً عليه».

غطى عينيه بيديه.

قلت: «كان مفيداً له أن يجدك هنا».

هزّ رأسه «تكلمت إليه بالأمس».

«أجل، بدا قلقاً بعض الشيء عليك».

ضحك. «قبل بعضة أيام قالت لي غلوري إنه هشّ، ولا نريد أن نقتله. لا نريد، نحن! ومع ذلك فهذا صحيح. لا أريد أن أقتله. فحسبت أنني ربما أستطيع التكلّم إليك. وهذه ستكون محاولتي الأخيرة. أعدك بذلك».

كدت أذكره أن صحتي هي الأخرى ليست بالممتازة، الأمر الذي كان لينمّ عن حماقة، ما دام بعد التفكير بالأمر لم أستطع أن أتخيّل أن أيّ بوح قد يقوم به يمكن أن يصرعني.

أخرج حقيبة جلدية صغيرة من جيب سترته وفتحها أمام ناظري. ولم تكن يده ثابتة، وكان عليّ أن أضع نظارات القراءة، وعندئذ رأيت الصورة جيداً. كانت بورتريه تمثله هو وشابة مع طفل يقف بجانبها، وبوتون الصغير يقف خلفهما. كان جاك بوتون، وامرأة ملونة وصبي فاتح اللون.

نظر بوتون إلى الصورة ثم أقفل الحقيبة وأعادها إلى جيبه. قال بنبرة

شديدة السيطرة على صوته حتى جعلته مريراً «أترى، لديّ أيضاً زوجة وطفلة». ثم أخذ ينظر إليّ لدقيقة أو اثنتين، متأملاً بجلاء ألا يضطّر إلى تحمّل كلام مزعج مني.

قلت: «هذه عائلة ظريفة».

أومأ برأسه «إنها امرأة طيبة. وهو فتى طيب. وأنا محظوظ». ثم ابتسم.

«وأنت خائف من أن هذا قد يقتل والدك؟».

هزّ كتفيه. «كاد الأمر يقتل والديها. إنهما يلعنان اليوم الذي ولدت فيه». ضحك ووضع كفه على وجهه «كما تعرف لديّ تجربة كبيرة في تعذيب الناس، لكن هذا على مستوى مختلف كلياً».

غصت في أفكاري الخاصة، فقال «ربما لا، ربما هكذا يبدو لي الأمر». ثم جلس هناك محملقاً بيديه.

فقلت: «حسناً، كم مضى على زواجك؟»، وندمت فوراً على السؤال.

تنحنح، ثم قال: «تزوجنا أمام نظر الرب كما يقولون. وهو لا يعطي وثيقة زواج، لكنه لا يفرض أيضاً القوانين المعادية للزواج المختلط. الرب الخفي Deus Absconditus[1] في أفضل خصاله. عذراً». ابتسم «أمام عين الرب كنا زوجاً وزوجة منذ ثماني سنوات. وقد عشنا زوجاً وزوجة سبعة عشر شهراً وأسبوعين ويوماً واحداً».

---

(1) عن اللاتينية، الرب المتواري أو الخفي؛ مفهوم لاهوتي طرحه توما الأكويني بمعنى أن الرب غادر عالمنا هذا متعمداً، وأنه عصي على إدراك البشر وفهمهم.

قلت إنه ليس لدينا مثل هذه القوانين هنا في آيوا، فقال: «أجل، آيوا، نجمة الراديكالية اللمّاعة».

فسألته إذا كان قد عاد لكي يتزوّج.

هزّ رأسه. «يرفض والدها تزويجها لي. وبالمناسبة هو أيضاً قسيس. وهناك مسيحي صالح في تنيسي، وهو صديق للعائلة، مستعد للزواج من زوجتي وتبنّي ابني. ويحسبون هذا لطفاً بالغاً منه. وأظنّ أنه كذلك. يظنّون أن هذا سيكون الحلّ الأنجع للجميع. وهذه حقيقة، قد عانيت صعوبة بالغة بالاعتناء بعائلتي. من وقت لآخر كانا يعودان إلى تنيسي، حين تصير الأمور بالغة الصعوبة. وهما هناك الآن. لا أستطيع أن أطلب منها الانفصال نهائياً عن عائلتها في ظلّ هذه الظروف». ثم تنحنح.

جلسنا صامتين فحسب. ثم قال: «أتعلم ما الأمر الأساسي الذي لدى والدها ضدّي؟ يعتبرني ملحداً! أخبرتني ديلا أنه يرى جميع الرجال البيض ملحدين، والفرق الوحيد هو أن بعضهم يدركون ذلك. ديلا هو اسم زوجتي».

قلت: «حسناً، مما سمعت منك أحياناً شعرت أنك ملحد».

أومأ برأسه «ربما من الأصح القول إنني في حالة من عدم الإيمان الصريح. لا أؤمن حتى في أن الربّ غير موجود، إذا فهمت مقصدي. بالطبع هذه مسألة تقلق زوجتي أيضاً. جزئياً من أجلي، وجزئياً من أجل الصبي. كذبت عليها بشأن الأمر لبعض الوقت. وحين أخبرتها بالحقيقة، أظن أنها حسبت أنها تستطيع إنقاذي. كما أسلفت، حين عرفتني أولاً اعتبرتني رجل دين. كثر يرتكبون هذا الخطأ». ضحك،

«وعموماً أصوّب لهم. وقد صوّبت لها».

الآن، الحقيقة هي أنني لا أعرف كيف سيتقبّل بوتون العجوز المسألة. فاجأني أن أدرك ذلك. أظن أنّها مسألة لم نتناقش بها طوال سنوات صداقتنا التي ناقشنا خلالها كلَّ شيء. لكن هذا الموضوع لم يرد البتة للنقاش.

قلت: «أفهم أنك تكلمت إلى غلوري».

«لا، لا يمكنني فعل ذلك. سينفطر قلبها بسبب ذلك. ستحسبني جننت أو ما شابه. الأرجح أنها تحسبني أعاني بعض المتاعب. وأظنّ أن والدي يظنّ ذلك أيضاً».

«أظنّ أنه يظنّ ذلك».

أومأ. «كان يبكي بالأمس». ثم نظر إلي «لقد خيّبت أمله ثانية». ثم قال، محاولاً السيطرة على صوته «لم أسمع شيئاً من زوجتي منذ غادرت سانت لويس. وقد كنت أنتظر سماع شيء ما. وقد راسلتها عدداً من المرّات – ما هو المثل؟ الرجاء المماطل يُمرض القلب» (سفر الأمثال، 13: 12). ابتسم «وجدتني حتى ألجأ إلى الكحول على سبيل العزاء».

قلت: «أفهم ذلك». وضحك.

«أعطوا مسكراً لهالك وخمراً لمريض النفس، أليس هذا صحيحاً؟» (سفر الأمثال، 31: 6).

مثل بمثل.

قال: «كان كلّ ما قالته لي شكراً لك أيها الموقّر. كانت عائدة إلى البيت بمعطف المطر حاملة كتباً وأوراقاً – كانت معلمة – ووقعت منها

بعض الأوراق على الرصيف وأخذت الريح تبعثرها، فساعدتها على جمعها، ثم رافقتها إلى باب منزلها بما أنني كنت أحمل مظلة. لم أفكّر بما أفعله بصورة خاصة. أعني أخلاقياتي المعصومة عن الخطأ».

«لقد رّبيت تربية حسنة».

قال: «بكلّ تأكيد. قال لي والدها أنني لو كنت رجلاً محترماً لتركتها وشأنها. أفهم لماذا يشعر هكذا نحوي. كانت تعيش حياة جيدة. ولست برجل محترم». لم يتح لي الوقت للاعتراض على ذلك «أفهم ما تعنيه الكلمة أيها الموقّر. لكنني أستطيع القول الآن إن تأثير زوجتي جعلني أتغيّر نحو الأفضل، على الأقلّ مؤقتاً».

ثم قال: «لا أريد أن أضجرك بهذا. أعرف أنني قاطعتك. سأخبرك صراحة لماذا ألححت على التكلّم إليك».

قلت له إنني أرحّب به وقتما يشاء. قال «هذا لطف جمّ منك». ثم جلس صامتاً لبعض الوقت. ثم قال: «إذا استطعنا تدبير سبيل للعيش، فأظن أنها ستتزوجني. وسيكون في هذا ردٌّ على اعتراضات أهلها الجسيمة، على ما أظن. يقولون إنني لا أستطيع توفير حياة لائقة لعائلتي، وفي الحقيقة هذا كان واقع الحال حتى الآن».

تنحنح. «لو منحتني بعض الوقت فسأشرح لك. شكراً لك. أترى، لقد التقيت ديلا خلال مرحلة منحطّة من حياتي. ولن أخوض في ذلك. وكانت ديلا لطيفة جداً معي، بالغة الرقة. فوجدت نفسي من وقت لآخر أذهب إلى الشارع في تلك الساعة وأحياناً أراها ونتحدّث معاً. أقسم أنه لم تكن لديّ أيّ نوايا، سواء نبيلة أم لا. كنت أغتبط برؤية

وجهها فحسب». ضحك. «وكانت تبادرني دائماً (عمت مساء أيها الموقّر) ولم أكن في ذلك الوقت معتاداً على أن أعامل كرجل محترم. فيجب أن أعترف بأنني استمتعت بذلك. وقد كان الأمر كذلك إلى درجة أنني صرت أمشي في شارعها دون أن أفكر برؤيتها، بل لمجرد إحساسي بالراحة لتذكّرها. ثم التقيتها ذات مساء وتكلمنا قليلاً ودعتني إلى الدخول لشرب الشاي. كانت تشترك في السكن مع فتاة أخرى تعلّم في مدرسة السود. وأمضينا وقتاً ممتعاً. احتسينا الشاي نحن الثلاثة. وعندئذ قلت لها إنني لست بكاهن. وكانت تعرف ذلك. وأظن أنها دعتني إلى منزلها منذ البداية لأنه كان لديها هذا الانطباع، لكنني كنت صادقاً معها حول هذا. ولم يبد الأمر مهماً كثيراً.

لا أعرف على وجه الدّقة كيف حصل الأمر؛ مررت لأعيرها كتاباً اشتريته بهدف إعارته لها - وكأنه من مكتبتي - وحتى أنني طويت بعض الصفحات، ودعتني إلى على عشاء عيد الشكر. كانت تعرف أن علاقتي ليست جيدة بعائلتي، وقالت إنها لن تدعني أمضي هذا العيد وحيداً. فقلت لها إنني لا أشعر بالراحة في صحبة الغرباء، ووعدتني بأن كلّ شيء سيكون على ما يرام. ومع ذلك تناولت كأسين قبل أن أذهب وتأخرت عن الموعد. حسبتني سأجد حشداً ما، لكنني وجدتها وحدها، والتعاسة تلوح على محياها.

«اعتذت قدر الإمكان وعرضت عليها أن أرحل لكنها قالت (اجلس فحسب). فجلسنا هناك نتناول العشاء، دون أن ينطق أحدنا بكلمة. قلت لها إن الطعام رائع وقالت: (على الأرجح كان كذلك. لكنك

تأخرت ساعتين ثم جئت والخمر يفوح منك)، متكلمة إليّ وكأنني كنت... حسناً، ما أنا عليه حقاً، وخطر لي إنه ليس لديّ شأن هناك، لم أكن شخصاً يسعها احترامه، وقد أذهلني حجم الحزن الذي شعرت به. وقفت لكي أشكرها وأستأذن الذهاب، ثم غادرت.

لكن بعد أن مشيت بضعة أحياء أدركت أنها تتبعني. ثم اقتربت مني وقالت لي: فقط أريد أن أقول لك ألا تشعر بالسوء كثيراً.

فقلت لها: الآن سيكون عليّ أن أرافقك إلى البيت ثانية.

فضحكت وقالت: بالطبع ستفعل.

ففعلت. ثم جاءت الفتاة الأخرى إلى البيت، لورين، شريكتها في السكن. كان هناك حفل عشاء في كنيستهما، لكن ديلا احتجّت بعارض صحيّ ما وبأنها مضطرة للبقاء في البيت. كان يجب أن أكون منصرفاً قبل وقت طويل، لكن وجدتني أتناول معها فطيرة اليقطين. ما الذي يمكن أن يكون أكثر وضوحاً من ذلك؟».

ضحك «كان كلّ شيء يجري بصورة محترمة. لكن وصل الخبر بطريقة ما إلى تنيسي فجاءت أختها للزيارة، بنية واضحة هي إبعادي عنها. كنت آتي مساء بكتاب من الشعر نقرأه معاً، في حين تظلُّ أختها تحملق بي. كان الأمر سخيفاً ورائعاً. لكن حين انتهى العام الدراسي، جاء أشقاؤها وأخذوها إلى تنيسي. وتركت لي رسالة وداع مع لورين. كنت أعلم أنه لا يصعب العثور على والدها، بما أنه قسّ، فذهبت إلى هناك، إلى ممفيس، وعثرت على كنيسته وهي كنيسة ميثودية أسقفية كبيرة، وكان اليوم التالي يوم أحد، فذهبت لأسمع عظته، عالماً أن

ديلا ستكون هناك بكلّ تأكيد. وأملت بالتحدّث معه، وفي حسباني أن ذهابي إليه سيجعلني أبدو رجولياً ونزيهاً في ناظريه. لمعت حذائي ورتّبت شعري.

كانت الكنيسة مليئة وجلست في الصفوف الخلفية، لكنني كنت الأبيض الوحيد هناك، فبالتأكيد رآني. وعرفت أنه عرفني، من طريقة نظراته إليّ. وقد وعظ حول أولئك الذين يأتون بلباس الحمل في حين أنهم في حقيقتهم ذئاب. كما تكلم عن الأضرحة المبيضة من الخارج ولكن المليئة بعظام الرجال النتنة. ناظراً إليّ طوال الوقت، بالطبع.

ومع ذلك اقتربت منه عند الباب. قلت: أريد فقط أن أؤكّد لك أن صداقتي بابنتك مشرّفة بالكامل. فأجابني: لو كنت رجلاً شريفاً لتركتها وشأنها».

قلت له: أجل سأفعل ذلك. وقد جئت إليك لأؤكّد لك ذلك. وهذه كانت كذبة طبعاً. نويت طبعاً التوقف عن رؤيتها، لكنها كانت مجرد نية تشكلت في كنيسته في تلك اللحظة. فكرت أن موقف ديلا مع عائلتها قد يتحسن لو أنني أثرت إعجاب والدها كرجل محترم ورصين، وكانت فرصتي الوحيدة لفعل ذلك بالرحيل. وهناك رأيت أيّ حياة كريمة عاشتها. لست واثقاً من طبيعة النوايا التي دفعتني للذهاب إلى هناك. بالتأكيد لم أفكّر بالمغادرة دون قول كلمة واحدة لها. لكنني فعلت. غادرت سانت لويس في مساء اليوم نفسه. لست واثقاً من أنه أعجب بفروسيتي، لكنني واثق من أنني أثرت إعجاب ديلا. ثم جاء الخريف، وصودف أنني كنت أسير في شارعها، كما اعتدت أن أفعل كلّ أسبوع

أو نحوه فإذا بها هناك. رفعت قبعتي سلاماً فانفجرت بالدموع. ومنذ تلك اللحظة اعتبرنا نفسينا زوجاً وزوجة.

وصل الأمر إلى تنيسي وعلى نحو أو آخر تنكّر أهلها لها، ثم حبلت وصرفتها المدرسة من العمل. كنت أبيع الأحذية في ذلك الحين؛ ثمة القليل من المال في هذه المهنة، لكنك لا تعتقل لممارستها أيضاً. فجاءت أمها قبل بضعة أسابيع من الولادة ووجدتنا في حال أقرب إلى الإملاق، نعيش في غرفة فندقية مفروشة في حيّ حقير من المدينة. كان ذلك مذلاً. لكننا بالطبع لم نستطع العثور على سكن لائق، وقد تقاضى مني حاجب الفندق مبلغاً أكبر أجرة للغرفة لغضّه الطرف عنا. كان لديه تعبير يصف به القانون الذي نخترقه «المساكنة الخبيثة؟ التعايش الداعر؟ الفاسق. لسبب ما دائماً أنسى هذه الكلمة. لا يمكنك أن تتخيّل كم يمكنهم جعل الحياة شاقة عليك.

ثم جاء والدها وأشقاؤها، وتكلمنا نحن الخمسة عن وضع ديلا، وبدأ والدها بالقول: «يجب أن تكون سعيداً جداً لأني رجل مسيحي»، إنه شخصية مهيبة وقد أقنعني بأن أطلب من ديلا العودة إلى الديار لكي تتلقى الرعاية المناسبة. وفعلت ذلك، وذهبت معهم. آه، يا للأسى! ويا للراحة! كنت خائفاً كثيراً من فكرة ذلك الطفل. عرفت في قرارة قلبي الرث أن شيئاً ما يمكن أن يمضي خطأ وأنني سألام على ذلك. حاولت أن أخفي ارتياحي عنها، لكن كان يمكنها رؤيته، وقد تأذّت منه، وعرفت أنها تأذّت. قلت لها إنني سأزورها قريباً في ممفيس ما أن أدّخر بعض المال. تطلّبني الأمر أسابيع لأنه كان في عهدتي بعض الديون

وقد وجدني الدائنون. وكنت أشعر أنهم سيجدونني، وكان هذا سبباً كبيراً لارتياحي لذهابها، لكن بالطبع لم يكن في إمكاني شرح ذلك لها. أخيراً راسلت والدي وطلبت منه بعض المال، ولم يكن قد سمع شيئاً عني منذ سنة على الأقل، وأرسل لي ثلاثة أضعاف ما طلبت. وكان هناك ملحوظة أخبرني فيها أنك ستتزوج.

في خلال تلك الأسابيع كان هنالك لقاء ديني عند النهر. وصرت أقصده كلّ مساء بسبب الصخب والحشود وقلة الكحول. وذات ليلة وقع رجل كان واقفاً على مقربة مني، على المسافة نفسها التي بيننا الآن تقريباً، وقع أرضاً كأنه أصيب بطلق ناري. وحين نهض ثانية عانقني قائلاً: قد زالت الأعباء عن كاهلي! لقد عدت طفلاً! فكّرت أنني لو كنت واقفاً على بعد قدمين إلى اليسار لكنت أنا ذلك الرجل. إنني أمزح بالطبع. لكنها حقيقة أنني لو استطعت إبدال مكاني معه لاختلفت حياتي برمتها، بمعنى أنني كنت استطعت النظر في عيني والد ديلا، وحتى في عينيّ والدي، وأنني لن أعود أعتبر خطراً على حياة طفلي. كان ذلك الرجل يقف هناك والنشارة تملأ لحيته، قائلاً «قد كنت أسوأ الآثمين!»، وبدا أنه يمكن أن يكون صادقاً في ما يذهب إليه. وإذا به يبدأ بالنحيب بتوبة وارتياح في حين وقفت أنظر إليه واضعاً يديّ في جيبي، غير شاعر إلا بالقلق والخزي، وببعض التسلية إذا عذرتني على قولي هذا. لكن في اليوم التالي وصلت رسالة والدي فاشتريت معطفاً لائقاً وتذكرة حافلة وكان كلّ شيء على ما يرام.

حين وصلت إلى ممفيس عرفت أن الطفل ولد قبل أيام قليلة، وقد

غصّ البيت بالعمات وبنسوة الكنيسة. سمحوا لي بالدخول وأجلسوني في الزاوية. لا أظن أن أحداً منهم عرف كيف يتصرف معي قبل عودة والدها إلى البيت، فانشغلوا في الأثناء في شؤونهم الخاصة. لو كان اليوم أكثر دفئاً، لكنت جلست على عتبة المنزل الخارجية. قالت لي إحدى النسوة: «كلاهما على أحسن حال. إنهما نائمان». وأحضرت لي صحيفة، وكان هذا لطفاً منها، إذ قلّل حصولي على شيء أنشغل به من إرباكي.

«حين عاد والدها أخيراً إلى البيت فرغت الحجرة وحلّ السكون على البيت. نهضت، لكنه لم يمدّ يده للمصافحة. وكانت أولى كلماته: أفهم أنك لست مجنداً؟ آه، كذبت كذبة ما بشأن علة في قلبي وندمت عليها فوراً، لأنني أسبغت على نفسي صفة الواهن، لكن لم يكن من حاجة إلى أن أقلق حول هذا الأمر، لأنه كان واضحاً أنه لم يصدّق كلمة مما أقول. كما أتذكّر، يقول (سفر التثنية) إن الجبن يمنع المرء من الذهاب إلى الجيش، «من هو الرجل الخائف والضعيف القلب ليذهب ويرجع إلى بيته لئلا تذوب قلوب إخوته مثل قلبه» (سفر التثنية، 20: 8). فكانت لدي حجة مستقاة من الكتاب المقدس لكنني آثرت ألا أذكرها.

قال: أفهم أنك من عائلة جون آيمز من كنساس. بالطبع أيّ شخص سواي كان ليصحّح له الأمر، لكنني ظننت أنه ربما تكون بعض الفائدة من تركه يظنّ ذلك؛ كان يشير إلى جدّك بالطبع. وقد كان ذلك أول شيء لطيف ولو قليلاً يقوله لي. قال إنه يعرف أناساً جاءت عائلاتهم شمالاً من «ميزوري» قبل الحرب، ومن الواضح أنّهم ذكروا بعض القصص

الرائعة عنه، عن الغارات والمصائد. قلت له إنني سمعت قصصاً عن الهرم في أثناء نشأتي، وهذا صحيح. وكانت في الأغلب قصصاً عنه وهو يسرق الغسيل، لكنني لم أخبره بذلك. أتذكر أن والدي قال ذات مرة حين كان صبياً جاء الهرم إلى كنيستنا وجلس في الخلف وحين وصل طبق التبرعات إليه أفرغ محتوياته في قبعته».

صحيح أن جدي لطالما اتهم المشيخيين باكتناز الأموال، فهذا لم يكن مستغرباً منه. وقد استفاد حقاً من تلك القبعة.

قال جاك: «تبادلنا بضع دقائق من الحديث الجدي، لكن كان عليّ أن أكون حذراً. لم أكن أعرف الكثير عن تلك الأزمنة إلى درجة أنني أخبر الأكاذيب عنها، فقلت له إن عائلتي صارت مسالمة بعد الحرب. ولم تكن تحبّذ الإتيان على ذكرها. وهذا صحيح، أليس كذلك؟».

بكلّ تأكيد.

«كان يعرف اسمي الكامل لأنه الاسم الذي أرادت ديلا إطلاقه على الطفل. وقد ارتحت كثيراً حين سمعت ذلك. قال والدها: إنها بانتظارك. وجلست هناك بقرب سريرها طوال فترة بعد الظهر، وتكلمنا قليلاً حين شعرت بالرغبة في ذلك. ورحت أنظر إلى الطفل من حين لآخر. وكانت النسوة يحملنه بعيداً حين يبكي. ثم أحضروا بعض العشاء. وحسبت أن الأمور في طريقها إلى التحسن ربما، لكنهم كانوا يتصرفون وفقاً لأخلاقهم المسيحية فحسب. وفي المساء قال لي والدها إنه من الأفضل أن أرحل. قال: هذه المرة لن أناشد شرفك، وأظن أنه كان محقاً في قوله هذا. كانوا يعتنون بها، ولم أرَ كيف سيمكنني فعل

ذلك، ففكرت بالعودة إلى سانت لويس والعثور على وظيفة مناسبة وادخار بعض المال ومحاولة الخروج بحلّ ما، لأنها كلمتني عن إحضار الطفل إلى الديار، وعنت سانت لويس.

تركت معها ما أمكنني من مال والدي. وبعد ثلاثة أشهر جاءت مع أختها والطفل إلى المنزل القديم، منزل لوراين، حيث كانت تعيش حين تعارفنا. التقيتها. كنت أعيش في غرفة جديدة حينئذ، غرفة رخيصة ونظيفة، ومحترمة جداً، أي إنني كان يمكن أن أرمى في الشارع لو أنني عدت إلى البيت مع زوجة وابن ملونين. لم أكن قادراً على تحمّل البؤس السابق إذا أردت ادّخار شيء على الإطلاق. وكما حدث الأمر لم أعد ولا فلساً من دين والدي.

إذن طوال السنوات الفائتة كنا على هذه الحال، صعوداً وهبوطاً، وهي تذهب إلى ممفيس كلما ساءت الأحوال، من أجل الصبي. وهو صبي رائع. أعتقد أنه لم يفتقر إلى شيء. لديه أخوال وخالات، وجده يحبه حباً جماً. اسمه روبرت بوتون مايلز. وهو طيب جداً معي، شديد الاحترام والتهذيب. ليس مسترخياً معي مثلما هو ابنك.

تمكنت أخيراً قبل نحو عامين في الحصول على وظيفة بأجر ضئيل. دفعت دفعة مسبقة على بيت في حيّ مختلط، وجاء روبرت وديلا للعيش معي. لم يكن بالبيت العظيم، لكنني قمت بطلائه ووجدت بعض الحصر والكراسي وأقمنا قرابة الثمانية شهور هناك. ثم تصرفنا بحماقة ذات يوم وذهبنا إلى الحديقة معاً، وصودف أن ربّ عملي كان هناك مع عائلته، وفي اليوم التالي استدعاني إلى مكتبه وأخبرني أنَّ لديه سمعة عليه

صونها. فضربته، وكانت تلك حماقة مني. ضربته مرتين. فوقع على المكتب وكسر ضلعاً. وظننت أنني أقنعته بعدم اللجوء إلى الشرطة بعد أن وعدته بتسديد فواتير الطبيب وبتعويض ما عن الأمر، لكن في تلك الليلة جاء رجال الشرطة إلينا، لكي يذكرونا بذلك القانون بشأن منع الزواج المختلط. كان ذلك مذلاً، لكنني بقيت مرفوع الرأس. أظن أنه يحسن بالأب والزوج أن يبقى بعيداً عن السجن حينما يمكنه ذلك. دبّرت أمر ذهاب عائلتي بالحافلة إلى ممفيس، وأجّرت المنزل. ومنحت الكلب للجيران.

وعندما دبّرت الأمر بأفضل ما أستطيع جئت إلى هنا، مفكّراً في طريقة ما تمكّنني من العيش مع عائلتي هنا، أعني مع زوجتي وابني. وحسبت أنه ربما يكون أمراً ساراً أن أعرّف روبرت إلى والدي. فقد أردته أن يعرف أنني أخيراً فعلت ما يجعله فخوراً بي. إنه طفل رائع، لامع، وصدقني لقد نشأ نشأة كنيسة. ويريد أن يصبح واعظاً. لكنني الآن أرى مدى وهن والدي، ولا أريد التسبب بموته. لا أريد ذلك حقاً. لديّ ما يكفي من الأعباء التي تثقل كاهلي».

ثم أضاف: «لن تقول لي إن هذا قصاص إلهي».

«هذا آخر ما أفكّر به».

«كنت متيقناً من أنك لن تفكّر هكذا».

«شكراً لك».

أخذ نفساً عميقاً. قال: «أنت تعرف والدي جيداً».

«لكنني لا أستطيع منحك أي تطمينات حول هذه المسألة بأي

شكل من الأشكال. أخشى أن أكون مخطئاً. عليك أن تدعني أفكّر في الأمر».

«لو كنت أنت، لا والدي...».

الآن رأيت وجهة نظره في طرح الأمر هكذا، بما أننا وبوتون نتفق عموماً حول أمور شتى. لكنه لم يكن بالسؤال البسيط كما حسبته، فاكتفيت بالصمت.

تفرّس بي لبرهة، ثم ابتسم وقال «لقد تزوجت أنت نفسك زواجاً غير تقليدي إلى حدّ ما. وتعرف القليل عن كونك موضوع فضيحة. بالطبع ديلا امرأة متعلمة». كانت هذه هي الكلمات التي استعملها.

الآن، هذا كان من شيمه. ذلك اللؤم. ولم تكن ملاحظته ذات صلة كبيرة بالموضوع ولم أفكر بأن ثمة في زواجي أيّ شبهة من الفضائحية. فوالدتك – على طريقتها الخاصة – امرأة رائعة. وإذا ما سمعت أحياناً بعض التعليقات حول زواجنا فقد كنت أسامح أصحابها فوراً سريعاً وكأنني لم أسمعهم، لأنه كان من الخطأ منهم أن يطلقوا الأحكام وعلمت ذلك ويفترض أن يعلموه كذلك.

لكن عندئذ سيطرت عليه تلك الملامح التي تنمّ عن الرثاثة التامة وغطى وجهه بيديه. ولم يكن في وسعي سوى مسامحته.

كانت فكرتي حين تردّدت في الإجابة عليه أنه بما أنني منذ زمن طويل معتاد على رؤية اللؤم في أساس كلّ ما يفعله، فلربما شككت بدوافعه بالتورّط مع تلك المرأة التي لم يتزوجها، والإتيان بهذا الطفل. أعتقد أنني كنت مخطئاً، لكن سؤاله لم يكن كيف يجب أن يكون رد

فعلي بل كيف يمكن أن أتفاعل مع هذه المسألة. ومع بوتون هذا سيكون مختلفاً كلياً، لأنه يفكّر بجاك بصورة أفضل مني بكثير، أو هكذا ظننت دوماً.

قلت: «أحب التعرف إلى الطفل. خاصة بعد أن شرحت لي كلّ شيء على نحو ما فعلت الآن». ثم أضفت: «لاريب في أنه أولع بتلك الطفلة الأخرى».

رمقني بوتون الشاب بنظرة لم أر مثلها في حياتي. ثم شحب وجهه بالكامل. ثم ابتسم وقال: «الأحفاد هم تاج المسنين».

قلت: «اعذرني على قولي هذا. كان من الحمق مني ذكر ذلك. إنني متعب وعجوز».

قال: «أجل»، وكان شديد السيطرة على صوته، «وقد أخذت الكثير من وقتك. شكراً لك. أعرف أنني أستطيع الوثوق بكتمانك كقس».

قلت: «لا يمكننا أن ندع الحديث ينتهي هنا»، لكنني كنت شديد التعب إلى درجة أنّ كل ما أمكنني فعله هو النهوض عن الكرسي. وقف عند الباب ومضيت إليه وأحطته بذراعي. لبرهة ترك رأسه يستلقي على كتفي. وقال: «إنني متعب». وأحسست بمدى وحدته. وهنا كان ينبغي أن أكون أباً ثانياً له. أردت أن أقول له شيئاً بهذا المعنى، لكن بدا ذلك معقداً، وكنت متعباً أكثر من أن أفكر بإيحاءاته الضمنية المحتملة. فقد يبدو كأنني أحاول أن أرسّخ نوعاً من المساواة بين إخفاقاته وإخفاقاتي، في حين قصدت أن اقول إنه إنسان أفضل مما حسبته سيكون يوماً. فقلت: «أنت رجل طيب»، ونظر إليّ نظرة فاحصة ثم ضحك وقال:

«ثق بهذا أيها الموقّر، هناك من هم أسوأ مني».

لكنه أضاف: «ماذا عن هذه البلدة؟ إذا جئنا وتزوجنا هنا، أيمكننا العيش هنا؟ هل سيدعنا الناس وشأننا؟».

حرت جواباً عن هذا السؤال أيضاً. حسبتني لا أعرف الجواب.

قال: «لقد شبّت نار مرة في كنيسة الزنوج».

«كان ذلك حريقاً عبثياً صغيراً وقد مضى على وقوعه زمن طويل».

«ومضى زمن طويل على وجود كنيسة للزنوج».

بالطبع لم يكن ثمة الكثير مما يمكنني قوله بهذا الشأن.

قال: «أنت صاحب تأثير هنا».

قلت إن هذا قد يكون صحيحاً، لكنني لا أستطيع أن أعد بالعيش طويلاً للاستفادة من هذا النفوذ. وذكرت له متاعب قلبي.

قال: «لم يكن من حقي أن أرهقك بمشكلاتي»، ما فهمت أنه يعني أنه لم يكن من جدوى من كلامه معي. حسبت أن محادثتنا كانت جيدة، وقلت ذلك، وأومأ برأسه وقال وداعاً. ثم قال بعد برهة «لا يهم يا أبتاه، أحسب أنني قد خسرتهما على أيّة حال».

جلست هناك فحسب ملقياً رأسي على المكتب واستعدت الأمر برمته وصليت حتى جاءت والدتك بحثاً عني. خشيت من أن أكون قد أصبت بنوبة ما، وأنا تركتها تفكر كذلك. بدا لي أنه كان يجدر أن أصاب بنوبة. ولم يكن ثمة ما يسعني قوله تبريراً لنفسي.

قد تتساءل عن تكتمي كقسّ، وأنا أكتب هذا كله. حسناً، من جهة هذه هي الطريقة التي لديّ في النظر إلى الأمور. ومن جهة أخرى، فهو

رجل ربما لن تسمع عنه كلمة طيبة، ولا أجد طريقة أخرى أريك فيها الجمال الكامن فيه.

التقيته قبل يومين. واليوم هو الأحد ثانية. حين تشغل هذا النوع من العمل، تشعر أنه يوم الأحد طوال الوقت، أو ليل السبت. ما أن تنتهي من التحضير لعظة الأسبوع حتى يبدأ الأسبوع التالي. هذا الصباح قرأت واحدة من العظات القديمة التي تخلّفها والدتك حولي. وكانت عن «إلى أهل رومية: «بل حمقوا في أفكارهم وأظلم قلبهم الغبي. وبينما هم يزعمون أنهم حكماء صاروا جهلاء»[1] إلخ. واقتبست من «سفر الخروج» حول وباء الظلام[2]. كانت العظة نوعاً من التهجّم على العقلانية وعلى اللاعقلانية، على اعتبار أن كلا منهما يعبد المخلوق لا الخالق. وقد تأملت بها قليلاً، ولكن حين قرأتها فاجأتني، أحياناً لأنها بدت مصيبة وأحياناً أخرى لأنها بدت خاطئة بصورة محرجة، وباستمرار لأنها بدت كأن شخصاً سواي قد كتبها. كان جاك بوتون حاضراً في تلك السترة وربطة العنق، جالساً قربك، وكنتَ سعيداً جداً بذلك، وأظن أن والدتك كانت سعيدة كذلك.

الآن، لا يتفق البتة مع فكرتي عن الوعظ أن أقف هناك وأقرأ من رزمة

(1) رسالة إلى أهل رومية، 1: 21–22.

(2) سفر الخروج، 10: 14– 15، «فصعد الجراد على على كلّ أرض مصر (...) وغطى وجه كل الأرض حتى أظلمت الأرض...».

ورق صفراء مليئة بما لابدّ أنها كانت أفكاري يوماً، محاولاً استعادة اليقين الذي كتبت به ذات ليلة سوداء قبل عمر كامل. وهناك في الصف الثاني كان جاك بوتون، الذي أشعر دائماً أنه يخترقني بناظريه. ووجدتني مجبراً – وقد اقتنعت أخيراً بأنه ربما يأتي إلى الكنيسة مفعماً بأمل ساخر ما بأن يجد حقيقة حية – على النطق بتلك الكلمات الميتة في حين جلس هناك مبتسماً في وجهي. أظن أنه كان ثمة جدوى من ربط العقلانية باللاعقلانية، أي المادية بالوثنية، ولو كنت أملك الطاقة للخروج عن النص لكنت فعلت ذلك. لكن كما حصل الأمر، قرأت العظة فحسب، ثم صافحت عدداً من الأيدي، وعدت إلى البيت لكي آخذ قيلولة على الكنبة. كان لديّ شعور بأن جاك بوتون قد ارتاح من تفاهة عظتي رداً على أي شيء جرى بيننا، أي شيء يتعلق به، فليبارك الربّ الشيطان المسكين. كانت الحقيقة أنني – واقفاً هناك – تمنيت لو أجد أساساً لمخاوفي القديمة. وهذا أذهلني. شعرت أنني كنت لأورثه زوجة وطفلاً لو استطعت تعويضاً عن خسارته لزوجته وطفله.

صحوت صبيحة اليوم مفكراً أن هذه البلدة قد تكون واقفة على أرض الجحيم المطلقة، تلك الأرض المفعمة صدقاً، وأن الذنب ذنبي بقدر ما هو ذنب الجميع. كنت أفكّر في الأمور التي حدثت هنا خلال حياتي فحسب؛ مواسم الجفاف والإنفلونزا والكساد وثلاثة حروب رهيبة. بدا لي أننا لم نتوقف قط عن صَبِّ اهتمامنا في المشكلة التي تجاوزناها

تواً لكي نضع السؤال الجليّ، أي أن نسأل ما الذي يحاول إفهامنا الرب إياه. كلمة «واعظ» مشتقة من كلمة فرنسية قديمة، predicateur، التي تعني النبي. وما الغرض من النبي سوى العثور على معنى مشكلة ما؟ حسناً، لم نطرح على أنفسنا السؤال، فحرمنا منه بكلّ بساطة. أصبحنا مثل الأناس الذين دون شريعة، أناس لا يميزون أيديهم اليمنى عن اليسرى. عالقون هنا فحسب. قد يسأل غريب لماذا ثمة بلدة هنا في المقام الأول. قد يسأل أطفالنا أنفسهم ذلك. ومن يسعه الإجابة؟ كانت مجرد بلدة صغيرة بين الكثبان الرملية بعيداً جداً عن كنساس. وهذا كان المقصود من بلدتنا هذه، أي أن تكون مكاناً يلوذ به جون براون وجيم لاين كلما احتاجا إلى الراحة أو التماثل للشفاء. لابدّ من أنه كان هناك مئة بلدة مثل بلدتنا، بنيت نتيجة لمسيس حاجة قديمة قبل أن يلفّها النسيان، وصغر هذه البلدات ورثاثتها – اللذان كانا قياس الشجاعة والشغف اللذين تطلبهما إنشاؤها – بدوا الآن غريبين وسخيفين وساذجين، حتى بالنسبة إلى أولئك الذين عاشوا طويلاً هنا إذ يعرفون أفضل من ذلك. يبدو الأمر سخيفاً لي. وأشكّ حقاً أنني لم أغادر البلدة خشية من ألا أعود إليها.

أسلفت الذكر في موضع ما من هذه الرسالة أن والديّ غادرا البلدة. حسَناً، لقد فعلا ذلك بالتأكيد. اشترى إدوارد قطعة من الأرض على ساحل الخليج وبنى كوخاً لعائلته ولهما. وقد فعل ذلك بصورة أساسية ليبعد والدتي عن الطقس القاسي هنا، وكان ذلك لطفاً منه، لأن الروماتيزم بات شديداً مع تقدّمها في السن. كانت الفكرة أن يمضيا

سنة هناك، يستقران خلالها، ثم يعودان إلى جلعاد ويقصدان الجنوب فحسب في موسم الشتاء القاسي حتى يتقاعد والدي. فاستلمت المنبر للمرة الأولى في تلك السنة. ثم لم يعودا البتة، ما عدا مرتين للزيارة؛ المرة الأولى حين فقدت لويزا والثانية لكي يقنعاني بالمغادرة معهما. في تلك المرة الثانية طلبت من والدي أن يعظ هناك وهزّ رأسه قائلاً: «لم يعد بوسعي فعل ذلك فحسب».

أخبرني أنها لم تكن نيته أن يتركني عالقاً هنا. في الحقيقة، كان أمله أنني قد أسعى إلى حياة أكبر من هذه الحياة. هو وإدوارد كانا واثقين من أنني قد أفيد أحسن الإفادة من تجربة العيش خارج البلدة. قال لي إن النظر إلى جلعاد من أي مسافة يجعلها تبدو أثراً بعد عين. وحين ذكرته بتاريخنا هنا ضحك قال «أمور غابرة بائسة قد أكل الدهر عليها وشرب». وأزعجني كلامه هذا. قال: «انظر فحسب إلى هذا المكان. كلما كبرت شجرة إلى حجم معقول، تأتي الريح وتقصفها». وراح يستعرض أمامي عجائب العالم الأوسع، فازددت تصميماً على أنني لن أخاطر بالانخراط بها. قال: «بت مدركاً أننا عشنا هنا ضمن حدود الأفكار القديمة جداً والمحلية جداً. أريدك أن تفهم أنك لست مضطراً إلى أن تكون وفياً لها».

حسب أنه يستطيع إعفائي من الولاء، وكأنه ولاء تجاهه، وكأنه كان مجرد خطأ ارتكب عن حسن نية، ويريد أن يصلحه لي، وكأنه لم يكن ولاء لي أنا نفسي على الأقلّ، إذا وضعنا الربّ جانباً، على سبيل المجاز. بما أنني كنت أعرف تمام العلم في ذلك الحين – كما منذ سنوات وسنوات

– أن الرب يتجاوز كلياً أيّ فهم لي عنه، مما يجعل الولاء له أمراً مختلفاً عن الولاء لأي عادات وتعاليم وذكريات حدث أنني ربطتها به. أعرف ذلك الآن، وقد عرفته في حينه. كم يحسبني جاهلاً؟ لقد قرأت أوين وجايمس وهاكسلي وسويدنبورغ وبحق الله، قرأت بلافاتسكي كما يعلم تمام العلم، بما أنه قرأه فوق كتفي. وقد اشتركت بصحيفة «ذي نايشن». لم أكن إدوارد يوماً، لكنني لم أكن بالمغفل أيضاً، وكدت أقول له هذا.

لا أذكر أنني قلت شيئاً بالفعل، وقد فوجئت بكلامه ذاك. حسناً، كل ما أنجزه كان أنه جعلني أحنّ إلى مكان لم أغادره قطّ. لم أصدق أنه تكلم إليّ وكأنني لست أهلاً لتوظيف كفاءتي على النحو الذي ارتأيه مناسباً. كيف أقبل نصيحة شخص لديه مثل هذا التقدير المنخفض لي؟ هكذا فكرت حينذاك. ولم أغير رأيي يوماً. ثم خلال أسبوع أو نحوه تلقيت تلك الرسالة منه. لقد ذكرت لك الوحدة، والظلمة، وكنت أحسب أنني بتّ أعرف ماهيتهما، لكن في ذلك اليوم شعرت أن ريحاً عظيمة تعصف بي على نحو لم أعهده من قبل، وظلت تلك الريح تعصف لسنوات وسنوات. رماني والدي على نفسي، وعلى الرب. وهذه حقيقة. وبالتالي لا أجد إلا القليل مما أندم عليه. صحيح أن ذلك كلفني الكثير من الأسى، لكنني أفدت منه.

لماذا أفكّر بهذا على أيّة حال؟ كنت أفكر في إحباطات الحياة وخيبات أملها وهي كثيرة. ولم أكن صادقاً تماماً معك بهذا الخصوص.

هذا الصباح ذهبت إلى المصرف وصرفت شيكاً، مفكراً في مساعدة جاك بعض الشيء. فكرت أنه بحاجة على الأغلب إلى الذهاب إلى

ممفيس، ليس فوراً بالضرورة، لكن في وقت من الأوقات. ذهبت إلى بوتون وانتظرت هناك، متكلماً حول لاشيء، هادراً وقتاً لا أحتمل خسارته، حتى واتتني فرصة محادثته على انفراد. عرضت عليه المال فضحك وأعاده إلى جيب سترتي وقال «ما الذي تفعله يا بابا؟ أنت لا تملك أيّ مال»، ثم مالت عيناه على نحو ما تفعلان وقال «أنا راحل، لا تقلق». أخذت مالك، مال والدتك، الذي لم يكن منه سوى مبلغ مثير للشفقة، وحاولت أن أعطيه له، وهكذا استقبل الأمر.

قلت: «ستذهب إذن إلى ممفيس؟».

وقال: «أيّ مكان آخر»، ثم ابتسم وتنحنح وقال: «وصلتني تلك الرسالة التي كنت أنتظرها».

أحسست ثقلاً رهيباً في قلبي. وكان بوتون ممدداً هناك على مقعده الـ «موريس»[1] يحملق في الفراغ. وقالت لي غلوري إن الكلمات الوحيدة التي قالها طوال اليوم كانت «لم يضطر المسيح إلى أن يصير هرماً!». غلوري مستاءة وجاك محطّم، وجعلا يحدثانني بتهذيب عن لا شيء، متسائلين على الأغلب لماذا لا أغادر، ولم أكن أرجو سوى العودة إلى البيت. ثم جاءت اللحظة التي أمكنني فيها القيام تجاه جاك بتلك البادرة اللطيفة التي جئت من أجلها، ولم أفعل سوى إزعاجه.

ثم عدت إلى البيت وأجبرتني والدتك على الاستلقاء وأرسلتك للعب مع طوبياس. ثم أنزلت الستائر. وانحنت بجانبي ومسّدت

(1) أحد أول أنواع المقاعد ذات الظهر القابل للارجاع إلى الخلف ويحمل اسم مصممه صاحب شركة موريس.

شعري قليلاً. وبعد استراحة قصيرة نهضت وكتبت هذا، الذي أعدت الآن قراءته.

جاك راحل. كانت غلوري مستاءة جداً منه إلى درجة أنها جاءت لمفاتحتي بالأمر. كانت قد أرسلت تخبر جميع إخوتها بأن يكفوا عن أعمالهم الخيرية ويعودوا إلى الديار. فهي تعتقد أن بوتون العجوز لم يعد له الكثير من الوقت في هذا العالم. «فكيف يفكّر في المغادرة الآن بالذات!». وهذا سؤال منطقي على ما أظن، لكنني أعرف الجواب عنه. فالمنزل سيغصّ بأولئك الأناس المحترمين وأزواجهن وزوجاتهم وأطفالهم الرائعين. فكيف يمكنه أن يكون حاضراً وسط هذا كله في ظلّ هذا الحزن الرهيب وذلك السرّ الرهيب في قلبه؟ أنا الآخر لديّ زوجة وطفل.

يمكنني أن أقول لك هذا، أنني لو تزوجت صبية يافعة منحتني عشرة أطفال ومنحني كلّ منهم عشرة أحفاد، فسأتركهم جميعاً ليلة الميلاد، في أكثر ليالي العالم برداً، وأمشي ألف ميل فقط لكي أرى وجهك ووجه والدتك. وإن لم أجدك أبداً، فإنني سأجد عزائي في ذلك الأمل، ذلك الأمل الوحيد، الذي يستحيل أن يكون في الخلق برمته، إلا في قلبي وفي قلب الربّ. ليست هذه إلا طريقة أخبرك فيها كم أنني عاجز عن شكر الرب بما فيه الكفاية على الروعة التي أخفاها عن العالم – باستثناء والدتك طبعاً – وكشفها لي في وجهك العذب الأليف. سيكون

شقيقات وأشقاء بوتون اللطفاء خجلين بثروات حياتهم بجانب ما يبدو فقر حياة جاك، وهو يفضل حكماً ما خسره على كلّ ما يملكونه. وليست هذه بحالة يحتمل المرء أن يجد نفسه فيها.

أما بوتون العجوز، فإذا أمكنه النهوض عن مقعده، ومن عجزه وتداعيه وأساه ومحدودية قدراته، فسيهجر جميع أولاده الرائعين الواثقين والمعتدلين، ويتبع الولد الوحيد الذي لم يعرفه قطّ، الذي فضّله كما يفضّل المرء جرحاً، وسيحميه كما لا يسع أب فعله، وسيدافع عنه بالقوة التي لا يمتلكها، ويؤازره بسخاء أكبر من أي ثروة حلم يوماً بامتلاكها. لو أمكن بوتون أن يكون على طبيعته، فلغفر كلياً كل إثم ارتكبه ولده، في ما مضى أم في الحاضر أم في ما سيأتي، سواء أكان إثماً حقيقياً أم كان مخولاً هو أن يغفره. سيكون بمثل هذا الإسراف. وهذا شيء أحب رؤيته.

كما أسلفت القول، أنا نفسي كنت الولد الصالح، إذا جاز القول، الذي لم يترك يوماً منزل والده؛ حتى حين فعل والده ذلك، حقيقة تضع مصداقيتي فوق كلّ تحدّ. أنا أحد أولئك المستقيمين الذين ستكون بهجة السماوات بالنسبة إليهم محدودة. وهذا كله صحيح. فليس من إنصاف في الحب، ولا من نسب، ولا حاجة إلى ذلك، لأنه في أيّ حال محددة هو مجرد لمحة أو حكاية عن واقع مبهم غير قابل للفهم. وهذا لا معنى له البتة لأنه الأبدي الذي يقتحم المؤقت، فكيف يسعه إخضاع نفسه لسبب أو عاقبة؟

يستحق الأمر أن تعيش طويلاً كفاية لتتجاوز كل إحساس بالأسى

قد تكون عشته. وهذا سبب آخر لكي تعتني بصحتك.

أظنّ أنني سأضع نهاية لكلّ هذه الكتابة. لقد أعدت قراءة الرسالة برمتها، إلى هذا الحدّ أو ذاك، ووجدت بعض الأمور المثيرة للاهتمام فيها، ولا سيما الطريقة التي وجدتني من خلالها منجذباً ثانية إلى العالم. توقع الموت الذي بدأت به يبدو نوعاً من حيوية الشباب، هكذا أشعر به الآن. وقد أثارت جدّته اهتمامي كثيراً، كما هو جليّ.

هذا الصباح رأيت جاك بوتون متجهاً إلى موقف الحافلات، وبدا شديد النحول متهلهل الثياب، حاملاً حقيبة تبدو بغير وزن على الإطلاق. بدا أبعد بكثير من شبابه، أقرب إلى شخص لن ترغب في تزويجه لابنتك. ومع ذلك تلوح على ملامحه التألق والبسالة.

ناديت عليه فتوقف وانتظرني، ورافقته إلى الموقف. جلبت معي كتاب «جوهر المسيحية»، الذي وضعته على المنضدة قرب الباب، أملاً بأن أحظى بفرصة إعطائه له. قلّبه بيديه، وضحك قليلاً من مدى ترهله. قال «أتذكّر هذا الكتاب، منذ الأبد!». لعله حسبه واحداً من تلك الأشياء التي اعتاد نشلها قديماً. وقد خطرت لي هذه الفكرة، وجعلتني أشعر أن الكتاب ينتمي إليه حقاً. أظن أنه فرح به. وقد طويت الصفحة 20 منه، «وحده ذلك المنفصل عن كينونتي قادر على أن أشكّ به. فكيف أشك

بالرب إذن، وهو كينونتي؟ الشكّ بالرب هو شكّ بالذات». وهكذا دواليك. حفظت هذا والمزيد منه لكي أكلم إدوارد بشأنه، لكنني لم أرد أن أفسد الوقت الطيب الذي أمضيناه في ذلك اليوم ونحن نلعب الكرة، ولم تواتني أيّ مناسبة ثانية بعدها.

هناك مسألتان إضافيتان شعرت أنه عليّ توضيحهما في محادثاتنا السابقة، أحدهما هو أن العقيدة ليست إيماناً، بل هي مجرد سبيل للتكلم على الإيمان، والمسألة الثانية أن الكلمة الإغريقية sozo التي تترجم عادة «مخلَّص»، يمكن أن تعني مشفي، مرمم، وما شابه. فالترجمة التقليدية إذن تحدّ من معنى الكلمة على نحو يمكن أن يتسبّب بتوقعات زائفة. فكّرت أن النعمة ليست بالشيء المعدم إلى درجة أنَّها تعجز عن تقديم نفسها بشتى الطرق. حسناً، كنت أيضاً أتكلم على سبيل المحادثة. فأنا واثق من أنه سمع إلى هذا الحدّ أو ذاك الأمور نفسها من والده مرات عدّة. كانت فكرتي الأولى أن أنَّه لا ينبغي للإنسان أن يكون وحيداً بقدر ما بدا لي وهو يمشي وحيداً. وأظن أنه كان مسروراً برفقتي. فقد أومأ برأسه من وقت لآخر وكانت تعابيره تنمّ عن تهذيب بالغ.

بينما نمشي راح ينظر إلى أشياء لا تنظر إليها حقاً حين تعيش في بلدة؛ الجزء المتآكل من جملون[1] مبنى، الطريق الرث إلى موقف سيارات فارغ، أرجوحة معلقة بين شجرة حور وعامود حبل غسيل. مررنا بالكنيسة. فقال: «لن أرى هذا المكان ثانية»، وكان ثمة نوع من التساؤل الحزين في صوته. فقلت: «اعتن بنفسك. يمكن أن يحتاجوا

(1) الجملون هو الجزء الأعلى المثلّث الزوايا من جدار مكتنف بسطحين متحدّرين.

إليك في وقت ما». بعد برهة هزّ رأسه، مؤكداً هذا الاحتمال.

ثم توقّف ونظر إليّ وقال: «تعرف أنني أفعل أسوأ الأمور ثانية بمغادرتي الآن. غلوري لن تسامحني أبداً. قالت لي لقد طفح الكيل. هذا أقصى ما يمكنك فعله»، كان يتبسم لكنني لمحت ذعراً حقيقياً في عينيه، وربما أيضاً نوعاً من الذهول. كان بالفعل يقدم على فعلة شنيعة بتركه والده يفارق الحياة دونه؛ أمر لا أحد يستطيع مسامحته عليه سوى والده نفسه.

فقلت: «كلمتني غلوري عن الأمر برمته. فقلت لها ألا تدين، وأنه قد يكون ثمة ما لا تعرفه في هذا الوضع».

«شكراً لك».

«أفهم سبب اضطرارك إلى المغادرة، أفهم حقاً». كان هذا أصدق ما يمكنني قوله. وأؤكد لك – بقدر ما بدا لي هذا مذهلاً– شعرت في تلك اللحظة بالعرفان لكلّ مرارة قلبي القديمة.

تنحنح. «إذن لن تمانع بأن تودّع والدي نيابة عني؟».

«سأفعل ذلك بكلّ تأكيد».

لم أعرف كيف أكمل المحادثة بعدئذ، لكنني لم أرغب في تركه، وفي أي حال، كان عليّ الجلوس بسبب قلبي. فجلسنا معاً على مقعد. قلت: «لو تقبل بعض الدولارات مني، يكون لطفاً منك منك لو قبلت».

ضحك وقال: «أفترض أنني أستطيع تبيّن طريقي وضوح».

فأعطيته أربعين دولاراً احتفظ بنصفها وأعاد الباقي. وجلسنا هناك لبعض الوقت.

ثم قلت: «ما أرغب فيه حقاً هو أن أباركك».

هزّ كتفيه استغراباً: «ماذا يتطلب ذلك؟».

«حسناً، كما أتصور الأمر، يتطلب أن أضع يدي على جبينك وأطلب من الرب حمايتك. لكن إذا كنت تشعر بالإحراج...»، كان هناك بعض المارة في الشارع.

قال: «لا، لا، هذا لا يهمّ». وخلع قبعته ووضعها على ركبته وأغمض عينيه وأخفض رأسه، وتقريباً ألقاه على يدي، وباركته ضمن حدود قوتي، أيّاً تكن، مكرراً البركة من سفر العدد، بالطبع «يضيء الرّب بوجهه عليك ويرحمك: يرفع الرّب وجهه عليك ويمنحك سلاماً»[1]. ليس من شيء أجمل من هذا، أو أكثر تعبيراً عن مشاعري، بالتأكيد، أو أكثر ضرورة. ثم حين لم يرفع رأسه أو يفتح عينيه، قلت «بارك يا رب جون آيمز بوتون، هذا الولد والأخ والزوج والأب المحبوب». ثم جلس مستقيماً ونظر إليّ كأنه يصحو من حلم.

قال: «شكراً لك أيها الموقّر»، وجعلتني نبرته أفكّر بأنني بالنسبة إليه قد أكون سميت كل شيء لم يعد يمثله، في حين كان ذلك أبعد ما أعنيه؛ كان هذا العكس تماماً لما قصدت. حسناً، على أيّة حال، قلت له إنّه يشرّفني أن أباركه. وكان هذا صحيحاً تماماً. في الحقيقة لقد خضت غمار علمي اللاهوتي ورسامتي كاهناً وكلّ السنوات المتداخلة من أجل تلك اللحظة بالذات. راح يحدجني فحسب، بتلك الطريقة الخاصة به. ثم وصلت الحافلة. قلت له: «نحن جميعاً نحبك،

---

(1) سفر العدد، 6: 25– 26.

تعرف ذلك». فضحك وقال «كلكم قدّيسون». وقف عند باب الحافلة ومضى، باركه الله.

وصلت إلى الكنيسة ودخلت واسترحت هناك طويلاً. أظن أنَّني رأيت في وجه بوتون الصغير، ونحن نمشي، نوعاً من السخرية من كونه وظّف رجاء في هذا المكان البائس القديم، ورأيت على وجهه أيضاً الثمن الباهظ لرحيله عنها. وعرفت أيّ رجاء كان. كان من النوع الذي يشجّع عليه مثل هذه الأمكنة، أنه يمكن عيش حياة مسالمة فيه دون متاعب. «سيجلس بعد الشيوخ والشّيخات في أسواق أورشليم، كلّ إنسان منهم عصاه بيده من كثرة الأيام. وتمتلئ أسواق المدينة من الصبيان والبنات لاعبين في أسواقها» (زكريا 8: 4). هذه نبوءة، رؤية النبي زكريا الذي يقول إنَّ هذا سيكون رائعاً في عين الشعب، وكذلك في أعين كلّ الشعوب في كلّ مكان من هذا العالم الحزين. لعب الكرة مساء، اشتمام رائحة النهر، سماع مرور القطارات. هذه البلدات الصغيرة بنيت ذات يوم لتكون أسواراً تحتضن مثل هذا السلام.

يبدو أن والدتك تريد أن يكون كلّ عشاء تحضّره لي من أكلاتي المفضّلة. غالباً ما يكون هناك الخبز المدهون باللحم، ودائماً الحلوى. تضع شموعاً على الطاولة بما أن العتمة صارت تهبط باكراً الآن. وأظن أنّها جاءت بها

من الكنيسة، ولا بأس بذلك. غالباً ما ترتدي فستانها الأزرق. أما أنت فقد كبرت على قميصك الأحمر. اجتمعت عائلة بوتون، إلا ذاك الذي يتوق إليه قلبه، لكي يودعوه. وقد دعونا إلى العشاء، لكن في هذه الأيام نحبّ نحن الثلاثة المكوث في المنزل. جئتَ فوّاحاً بعبق المساء، وعيناك تومضان في ضوء الشموع على عينيّ الهرمتين. وقد أسكت البرد كلّ الحشرات. كأن العتمة تجعلنا نتكلّم برقة، مثل متآمرين هامسين. والدتك تتلو صلاة البركة وتمسح خبزك بالزبدة. أتمنى لو رأى بوتون كيف تلقى ابنه البركات، كيف أحنى رأسه. لو أخبرته، لو فهم، لغار ولرغب في أن يكون هو من يسبغ بركته عليه. كان كأنّني أحسست يده على يدي. حسناً، أتخيله أبعد من هذا العالم، ينظر إليّ بذهول الإدراك «لهذا السبب عشنا هذه الحياة!». هناك ألف ألف سبب لعيش هذه الحياة، وكلّ واحد منها كاف في حدّ ذاته.

وعدت بوتون الصغير بأنني سأودّع والده نيابة عنه، ولذا مضيت إلى بيته بعد العشاء، حين علمت أن العجوز سيكون نائماً، وحين فرغت الغرفة همست له بضع كلمات. صديقي الطيب غائب عن العالم إلى حدّ أن الغيوم قد استقرت فوق وعيه الفاني. وقد كان سمعه ضعيفاً منذ سنوات. كنت أعرف أنني لو لفظت أمامه ذلك الاسم في صحوه فسيكابد لكي يستجمع ذاته، وسيكون توّاقاً إلى الفهم، وكنت لأخلق فيه توقاً لن أتمكن في لحظتها ولا في حياتي أن أهدّئه. وكأن أيّ شيء قد

أقوله يمكن أن يحلّ أيّ جزء من ذلك اللغز الكبير بالنسبة إليه. سيكون وحيداً في حيرة أساه، ولم تكن لديّ القوة لأكون شاهداً على ذلك.

فكّرت كم سيكون رائعاً لو كان مثل يعقوب، الابن الحبيب الذي ضاع منه يأتي له لكي يباركه الصغير الرائع روبرت بوتون مايلز «لم أكن أظن أني أرى وجهك، وهوذا الله قد أراني نسلك أيضاً» (التكوين، 48: 11). شعرت بالغبطة إذ فكرت بمدى الروعة التي كان ليكون عليها ذلك؛ كأيّ رؤية للملائكة. يبدو لي أنه حين يجدر أن يكون شيء حقيقي فعلاً أكثر مما هو حقاً تكمن فيه حقيقة عظيمة القوة، مما جعلني أفكر ثانية بالجنة. حسناً، هذا ما أفكر به معظم الوقت، كما تعلم.

وضعت المسكينة غلوري كرسياً لي بجانب سرير بوتون وجلستُ طويلاً هناك. اعتدت التسلل من نافذة تلك الحجرة في عتمة الصباح لكي أوقظه ونذهب معاً إلى صيد السمك. وكانت أمه تغضب إذا ما أوقظناها أيضاً، فكنا شديدي الحذر. أحياناً كان يأبى النهوض، فكنت أشدّ شعره وأقرص أذنه وأهمس في أذنه، وإذا فكرت بشيء سخيف أقوله كان يستيقظ أحياناً ضاحكاً. كان هذا من زمان. وهناك كان مساء الأمس، نائماً على جانبه الأيمن، مثلما يفعل دائماً، في حضن الرب، لا ريب عندي، فكنت واثقاً من أنني لو أيقظته فسيعود إلى الجثمانية. فقلت له في نومه لقد باركتُ ولدك. وما زلت أشعر بثقل جبينه تحت يديّ. قلت، أحبّه بقدر ما أحببتك. فكن أكيداً أن صلواتك استجيبت أخيراً أيها الصديق الحميم. وصلواتي أيضاً، صلواتي أيضاً. كان علينا أن ننتظر طويلاً، أليس كذلك؟

حين غادرت رأيت غلوري واقفة بالرواق، تشرف على كل الحديث الهادئ في الردهة، إخوتها وأخواتها والأزواج والزوجات وأطفالهم الكبار والصغار، يتبادلون الأخبار ويتناقشون في السياسة ويلعبون الورق. وكان هنالك المزيد منهم في المطبخ وأكثر في الطابق العلوي. بينما أغادر التقيت خمسة أو ستة كانوا عائدين من نزهة في الخارج. يخجلني أنني لم أفكر حتى تلك اللحظة كم كان صعباً عليها رحيل جاك، وأن تترك وحيدة في خضم تلك الخصوبة والرضا، وحيدة لكي تتحمل كل اللطافة واللباقة، دون أن يكون هناك حتى من يبتسم لها في نهاية المطاف. ولا أحد للدفاع عنها؛ وهذا أسوأ أنواع الهجران. وحده الرب يمكنه مؤاساة ذلك.

بدا لي أحياناً كأن الرب ينفخ على جمرة الخلق الشحيحة فتصير نوراً – لبرهة أو لسنة أو لحياة كاملة. ثم تغرق ثانية في ذاتها، وعند النظر إليها لا أحد يعرف أن لها أيّ شأن بالنار أو الضوء. هذا ما قلته في عظة عيد العنصرة. لقد تأملت تلك العظة، وثمة بعض الحقيقة فيها. لكن الربّ أكثر ثباتاً وكرماً مما يبدو. أينما نظرت يكون بوسع العالم أن يتألّق وأن يتحول إلى هالة بيضاء من نور[1]. ولست بحاجة إلى إضافة شيء سوى

(1) «وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل عال منفردين.

بعض الإرادة لترى. فقط، من له القدرة على ذلك؟

سأطلب من والدتك أن تحرق تلك العظات القديمة. يستطيع الشمامسة تدبير الأمر. وسيكون هناك ما يكفي لإنشاء نار كبيرة تكفي لشيّ الهوت دوغ وإعداد حلوى الخطميّ، شيء للاحتفاء ببداية الثلج. بالطبع يمكنها أن تقرّر أي العظات تريد الاحتفاظ بها، لكنّني لا أريدها أن تهدر الكثير من الجهد عليها. سواء أكانت ذات قيمة أم لا، فهذه نهاية أمرها.

هناك مناسبتان تصبح فيهما الروعة المقدّسة للخلق بادية للعيان، وتحدثان معاً. الأولى حين نشعر بفنائنا بالنسبة إلى العالم، والثانية حين نشعر بفناء العالم بالنسبة إلينا. يقول أوغسطين إن الرب يحبّ كل واحد منا كأنه طفله الوحيد، ويجب أن يكون هذا صحيحاً. «ويمسح الرب الدموع عن كل وجه»[1]. ولا ينقص شيئاً من روعة هذه العبارة القول إن هذا هو المطلوب بالضبط.

يتكلم اللاهوتيون عن النعمة المسبقة التي تسبق النعمة نفسها وتتيح لنا قبولها. أظن أنه لابدّ من وجود شجاعة مسبقة تسمح لنا بأن نكون شجعاناً، أي أن نعرف أنّ ثمة جمالاً أكبر مما تحتمله عيوننا، الأشياء الثمينة

وتغيّرت هيئته قدّامهم وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور». (إنجيل متى 17: 1-9).

(1) سفر إشعياء، 25: 8.

وقد وضعت بين أيدينا وألا نفعل شيئاً لتكريمها هو من قبيل ارتكاب شر كبير. وبالتالي هذه الشجاعة تتيح لنا، كما يقول كبار السّن، أن نجعل أنفسنا مفيدين. أن نكون كرماء وهي طريقة أخرى لقول الشيء ذاته تماماً. لكن هذا منبر الوعظ الذي يتكلّم. ما الذي سأتركه لك سوى خرائب شجاعة قديمة وعهد فروسية وأمل قديمين؟ حسناً، كما أسلفت، كل هذا الآن جمر، وسينفخ الرب فيه يوماً ويصبح ناراً من جديد.

أحب البراري! غالباً ما رأيت هبوط الفجر والضوء ينتشر فوق الأرض وكلّ شيء يشعّ دفعة واحدة، تلك الكلمة «جيد» محفورة عميقاً في نفسي إلى درجة أنني مذهول من أنه متاح لي أن أشهد شيئاً كهذا. قد تكون هناك لحظة أولى أروع من هذه. «عندما ترنّمت كواكب الصبح معاً وهتف جميع بني الله»[1]، لكن على الرغم من كل ما أعرفه نقيض ذلك، ما زالوا يغنون ويهتفون، وبالتأكيد سيستمرون في ذلك. هنا في البراري لا شيء يشتّت الانتباه عن المساء وعن الصباح، لا شيء في الأفق ليعجّل أو يؤخّر. قد تبدو الجبال نوعاً من الصفاقة من وجهة النظر هذه.

يبدو لي من المسيحي بالنسبة إلى مكان ما أن يكون بسيطاً كهذا المكان،

(1) سفر أيوب، 38: 7.

ومنسياً بعض الشيء. لا يسعني ألا أتخيلك راحلاً عنه آجلاً أم عاجلاً، ولا بأس إذا فعلت ذلك، أو قصدت فعله. هذه البلدة برمتها تشبه فعلاً ما يشبهه الرجاء بعد أن يبلى قليلاً، ثم يبلى أكثر. لكن الرجاء المؤجل يبقى رجاء. أحب هذه البلدة. أفكر أحياناً في دخولي تربة الأرض هنا كإيماءة حبّ أخيرة ضارية؛ أنا أيضاً سأبدّد الوقت حتى يأتي الوهج العظيم.

سأصلي حتى تكبر رجلاً شجاعاً في بلد شجاع. حتى تجد وسيلة تكون فيها نافعاً.

سأصلي، ثم أنام.

جلعاد

واقفاً وراء النافذة رأيت فقاعات الماء ترتفع في الهواء: فقاعات تنتفخ وتكتسب تلك الزرقة التي تلوح عليها قبيل انفجارها. فنظرت إلى الباحة في الأسفل ورأيتكما هناك. أنت ووالدتك. تنفخان في وجه الهرة حلقات متدافعة من الفقاعات إلى درجة أنَّ الهياج ألمّ بالمسكينة من وفرة الفرص. كانت «سوبي» المعروفة بكسلها تقفز فعلياً في الهواء. وقد شقّت بعض الفقاعات طريقها بين الأغصان. وارتفعت فوق الأشجار. وكان اهتمامكما منصبّاً على الهرّة. أملاً في تبيّن الآثار السماوية لمساعيكما الدنيوية هذه. كانت الفقاعات رائعة. وكانت والدتك ترتدي فستانها الأزرق. وأنت ترتدي قميصك الأحمر. وكنتما جاثيين أرضاً و«سوبي» بينكما وتلك الفقاعات الشفافة ترتفع عالياً فتثير في نفسيكما الكثير من الضحك. آه. يا لروعة الحياة. يا لجمال الكون.

ISBN 978-9933-407-05-6
9789933407056

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

كلمة
KALIMA

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة